التحولات الاجتماعية في قرطبة
وأثرها في سقوط الخلافة الأموية

(٣١٦- ٤٢٢هـ/٩٢٨-١٠٣٠م)

ح دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، ١٤٣٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القبوري؛ فوزي عناد

التحولات الاجتماعية في قرطبة وأثرها في سقوط الخلافة الأموية.

فوزي عناد العتيبي/ الرياض، ١٤٣٩هـ

٢٥٠ ص ١٧×٢٤؛

ردمك: ٥-٠٣-٨٢٣٨-٦٠٣-٩٧٨

١. قرطبة – الاحوال الاجتماعية ٢. الأندلس – تاريخ – العصر الأموي

٣. قرطبة – تاريخ إسلامي أ. العنوان

ديوي ٩٥٣,٧١١ ١٤٣٩/٣٢١٦

رقم الإيداع: ١٤٣٩/٣٢١٦هـ

ردمك: ×-٥٢-٨٦٢-٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية

ص.ب ٢٧٢٦١ الرياض ١١٤١٧

هاتف: ٤٩١٤٧٧٦ ٩٦٦١١ +

٤٩٦٨٩٩٤ ٩٦٦١١ +

فاكس: ٤٤٥٣٢٠٣ ٩٦٦١١ +



Kounouz Eshbelia

For Publishing & Distribution

Kingdom of Saudi Arabia

P.O. Box 27261 Riyadh

11417

Tel.: +96611 4914776

+96611 4968994

Fax.: +966114453203

E-mail; eshbelia@hotmail.com

التحولات الاجتماعية في قرطبة وأثرها في سقوط الخلافة الأموية

(٣١٦- ٤٢٢هـ/٩٢٨-١٠٣٠م)

تأليف

د.فوزي بن عناد القبوري العتيبي





إهداء

إلى والدي الكريم ووالدتي الغالية وزوجتي الحبيبة وأبنائي عامر ومشاري وابنتي منار وجميع أهلي وأقربائي.

ولأهل الفضل والعلم ؛ أساتذتي الأجلاء أ.د.عبدالغفور الروزي ، أ.د عبدالعزيز الهلابي د. يوسف حوالة، أ.د.عبدالله السيف ، أ.د. خالد البكر، د. عبدالله الزيدان ، ولجميع من ساهم في هذا الكتاب برأي أو ملحوظة أو كلمة داعمة أو محفزة.

الباحث

المقدمة

مرَّت الأندلس بشكل عام وقرطبة بشكل خاص خلال حقبة الخلافة الأموية في الأندلس (٣١٦-٤٢٢هـ/ ٩٢٨-١٠٣٠م) بعدة تحولات سياسية واقتصادية واجتماعية وعسكرية كبيرة ساهمت في تطور الحياة العامة في الأندلس، حتى اعتبرت تلك الحقبة بحق العصر الذهبي للدولة الإسلامية في الأندلس. ولا غرو فقد شهد المجتمع الأندلسي خلال أغلب مراحل القرن الرابع الهجري/ التاسع الميلادي استقراراً اجتماعياً وهدوءاً أمنياً؛ إذ اختفت فيه صراعات العرب فيما بينهم، واضمحلت مشكلات المولدين والبربر في معظم فتراته، وانصهر الجميع في بوتقة الخلافة. لكن ما إن انقضى هذا القرن حتى دخلت قرطبة في فوضى سياسية واجتماعية عارمة أدت في النهاية إلى سقوط الخلافة الأموية ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م (رمز الوحدة للأندلسيين) وتشرذمت البلاد إلى دويلات عديدة ومتنافرة.

إن المتتبع لحالة المجتمع الأندلسي بشكل عام والقرطبي بشكل خاص -خلال تلك الحقبة- يلحظ أنه مر بعدة تحولات اجتماعية، سواء كانت تلك التحولات في الطبقات الاجتماعية أو في السلوك الاجتماعي، فمثلاً من تلك التحولات التي حدثت في الطبقات الاجتماعية خصوصاً في أواخر حقبة الخلافة تآكل العصبية القبلية، وضعف بيوتات الموالي، وتناقص نفوذ الأسر الحاكمة، وتغيّر في التركيبة السكانية لقرطبة، وذلك بدخول موجات جديدة من صقالبة وبربر إلى المدينة إضافة إلى تضخم طبقة العامة حتى باتت تشكل كتلة ذات ثقل سياسي ساهمت بشكل فعّال في القيام بأدوار مهمة في الأحداث السياسية في تلك الحقبة. أما التحولات في السلوك الاجتماعي كظاهرة الترف، وتحول المجتمع الأندلسي من الإنتاج الزراعي إلى الصناعي -في الغالب- وكذلك الشعور بالانتماء الإقليمي (للإقليم)، إضافة إلى الحراك العلمي والفكري الكبير الذي شهدته تلك الحقبة تحديداً زمن الخليفة الحكم(المستنصر بالله) (٣٥٠-٣٦٦هـ/ ٩٦١-٩٧٧م).

ولا ريب أن الأوضاع السياسية خلال تلك الحقبة كان لها الأثر الواضح في تشكيل تلك التحولات الاجتماعية التي شهدتها قرطبة، فمثلاً شهدت قرطبة خلال تلك الحقبة عدة مظاهر سياسية مختلفة كإعلان الخلافة الأموية في بدايات القرن الرابع الهجري/ التاسع الميلادي وتحديداً عام٣١٦هـ/ ٩٢٨م، وبعد منتصف القرن ذاته شهدت ظاهرة الحجابة العامرية، بينما شهدت في العقد الأول من القرن الذي يليه ظاهرة الخلافة العلوية، ثم استقر الأمر على حكم الجماعة في نهاية المطاف. إن مثل هذه الظواهر والتقلبات السياسية المتعاقبة قد صاحبها تحولات اجتماعية تأثرت بها وأثرت فيها، وباتت تؤثر بشكل واضح في اتجاهات السياسة خلال تلك الحقبة، ولا أدل على ذلك من أن سقوط العامريين لم يأتِ نتيجة انقلاب عسكري أو غزو خارجي إنما كان بثورة شعبية. وكذلك مسألة إلغاء الخلافة الأموية، وهي مسألة حساسة وذات بُعد ديني وتاريخي إلا أن قرار إلغائها أتى من أعيان قرطبة دون أن يحدث هذا الأمر أيّ غضبة اجتماعية.

كذلك تجدر الإشارة إلى أن نظرة المجتمع باتت مختلفة للكثير من القضايا المهمة، كقضية الجهاد مثلاً؛ فهو لم يعد من أولوياتهم كما كان في عهود قريبة منهم، والتي حرص فيها الخلفاء الأمويون والحجّاب العامريون على إرسال حملات عسكرية منظمة تسمى الصوائف والشواتي ضد خصومهم في شمال الأندلس، بل اشتهر العامريون بكثرة غزواتهم تلك حتى تجاوزت في عهد المنصور بن أبي عامر (٣٦٧-٣٩٢هـ/ ٩٧٨-١٠٠٣م) أكثر من خمسين غزوة.

إن مثل هذه الأحداث تؤكد أن قرطبة مرت بتحولات اجتماعية واضحة أثرت في ثقافة ذلك المجتمع وتكوينه السياسي،إذ تَشكَّل جيل قرطبي جديد في نسيجه الاجتماعي ونمط تفكيره وثقافته، حتى بات من الممكن قيامه بأدوار سياسية مهمة ليس فقط في إحداث شغب وثورة، إنما حتى في نظرته ومساهمته في بعض القضايا السياسية الحساسة ولاسيما قضية (الخلافة الأموية) رمز الوحدة السياسية للأندلسيين.

ونظراً للأهمية السياسية لحقبة الدراسة حيث شكلت هذه المرحلة منعطفاً خطيراً مرت به الأندلس أدى في النهاية إلى تشتتها وتمزقها السياسي، ولأهمية هذه التحولات الاجتماعية في التأثير على أحداثها، ولتميز المكان وهي قرطبة العاصمة التي شهدت الأحداث الكبيرة والحاسمة والتي ألقت بظلالها على الحياة العامة في الأندلس جاء اختيار هذا الموضوع وضرورة دراسته دراسة معمقة، فلا بد من سبر غوره، والكشف عن سماته، والدوافع الباعثة له، ومن ثم النتائج المترتبة عليه.

تتكون الدراسة من مقدمة ثم تمهيد عن الأوضاع الاجتماعية في قرطبة قبيل عصر الخلافة، ثم الفصل الأول عن مسببات التحولات الاجتماعية في عصر الخلافة في قرطبة، فيليه فصل آخر عن مظاهر تلك التحولات، ثم فصل ثالث عن انعكاسات تلك التحولات على الأوضاع السياسية في الأندلس، ثم الفصل الأخير عن نتائج تلك التحولات على الأوضاع العامة في الأندلس، ثم خاتمة الدراسة والملاحق، وقائمة بالمصادر والمراجع.

الاختصارات

الدلالة	الرمز
إذا تكرر المصدر يكتفى باسم الشهرة والاسم الأول من الكتاب مثال	المقري، **نفح**
إذا كان هناك أكثر من محقق للكتاب ومكان نشر يكتفى باسم الشهرة، والاسم الأول من الكتاب، واسم المحقق مثال	ابن حيان، **المقتبس**، مكي ابن حيان، **المقتبس**، هواري
إذا تكرر المرجع يكتفى بالاسم الثنائي، وأول كلمتين من عنوان الكتاب مثال	أحمد بدر، **تاريخ الأندلس**
دون تاريخ نشر	د.ت

❋ ❋ ❋

تمهيد

الأوضاع الاجتماعية في قرطبة قبيل عصر الخلافة

تعتبر الأندلس من الأقاليم الإسلامية التي شهدت تنوعاً في أصولها الاجتماعية؛ ففيها العرب والبربر والمولدون[١] والمستعربون[٢] إضافة لأصحاب الديانات الأخرى من نصارى ويهود، هذا النسيج الاجتماعي المتنوع استطاع أن يتعايش ردحاً من الزمن، وفي فترات مختلفة بشكل سلمي، إذا ما كانت الدولة قوية تكبح جماح الطامعين، وتضبط الأمن وتكفل للجميع حق العيش بكرامة وعدل.

لكن في المقابل شكَّلت هذه الأطياف الاجتماعية المختلفة -بعدم انصهارها في نسيج اجتماعي واحد، واستمرار كل شريحة من تلك الشرائح الاجتماعية في تغذية نسيجها الخاص بها- متاعب كثيرة للدولة خصوصاً في حال اضطراب الأوضاع السياسية فيها، بل باتت هذه الشرائح الاجتماعية تشكل عاملاً فاعلاً في عدم الاستقرار يتمثل في صراعات ونزاعات واضحة فيما بينها أثرت في أوضاع الأندلس السياسية خاصةً في أواخر عهد الإمارة، والذي شهد ضعفاً سياسيًّا واضحاً في الدولة الأموية، حتى كادت أن تعصف بها على الجُملة، لكن الأمور استقرت بعد ذلك بشكل كبير في عهد الخليفة عبدالرحمن بن محمد المعروف

---

(١) يقصد بالمولدين الجيل الثاني من مسلمي شبه الجزيرة الإيبيرية، بينما يطلق على آباء هؤلاء الذين اعتنقوا الإسلام لقب المسالمة. انظر: عبدالرحمن علي الحجي، **التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة ٩٢-٨٩٧(٧١١-١٤٩٢م)**(دمشق:دار القلم، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م)، ص١٦٣.

(٢) حدد السيد عبدالعزيز سالم بأن مصطلح المستعربين أطلق على النصارى الإسبان الذين كانوا يعاشرون المسلمين ويتكلمون العربية مع احتفاظهم بدينهم. السيد عبدالعزيز سالم، **تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة**، (لبنان:دار النهضة العربية، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، ص١٣٠.

بالناصر(٣٠٠-٣٥٠هـ/ ٩١٢-٩٦١م) فقد شهدت الأندلس عصرها الذهبي خلال تلك الحقبة، وكان للتحولات الاجتماعية التي حدثت في تلك المرحلة دور واضح في هذا الاستقرار، وفي هذا التحول الكبير الذي طرأ على الأندلس، في المقابل أيضاً؛ كان لبعض تلك التحولات الاجتماعية نتائج عكسية في أواخر هذه الحقبة، والتي كانت من الأسباب الرئيسة لسقوط دولة الخلافة الأموية في الأندلس.

ولا بد لنا حتى نفهم طبيعة تلك التحولات الاجتماعية التي حصلت في قرطبة في عصر الخلافة-مجال بحثنا- أن نعود إلى بداية تكوين المجتمع الأندلسي في مراحله الأولى، والتحولات التي طرأت عليه حتى عصر الخلافة؛ حتى نستطيع أن نتعرف على طبيعة تلك التحولات، والعوامل المؤثرة فيها، ثم النتائج المترتبة عليها.

دخلت طلائع الجيش الإسلامي شبه الجزيرة الأيبيرية سنة ٩٢هـ/ ٧١١م[1]، زمن الدولة الأموية، وأصبح هذا الإقليم (الأندلس) منذ ذلك التاريخ تحت السيادة الأموية، وينبغي لنا هنا أن نتوقف قليلاً حول كيفية تقسيم أراضي هذا الإقليم، وتوزيع استيطان الفاتحين فيه؛ حتى نفهم الطبيعة السكانية المكونة للحياة الاجتماعية الأندلسية في مراحلها الأولى.

---

(١) البلاذري، أبو الحسن أحمد بن يحيى، **فتوح البلدان**، اعتناء، عبدالقادر محمد علي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م)، ص١٤١؛ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، **تاريخ الرسل والملوك**، اعتنى به أبو صهيب الكرمي، (الأردن: بيت الأفكار الدولية، د.ت)، ص١٢٤٩؛ الرقيق، أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم، **قطعة من تاريخ إفريقية والمغرب**، تحقيق عبدالله العلي الزيدان، عز الدين عمر موسى، ط١، (بيروت: دار الغرب الإسلامي ١٩٩٠م)، ص٤١؛ وللمزيد حول فتح الأندلس انظر: عبدالملك بن حبيب السلمي الأندلسي، **كتاب التاريخ**، اعتنى به عبد الغني مستو، (لبنان: المكتبة العصرية، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٨م)، ص١٤١ وما بعدها.

تشير بعض الروايات إلى أن القائد موسى بن نصير(ت٩٨هـ/ ٧١٧م) قسم أراضي هذا الإقليم واحتفظ بحصة الخلافة من تلك الأراضي، وهي الخمس، ووزع الباقي بين جنوده[١]. كما تذكر تلك الروايات أن ابن نصير خصص العديد من السبي ليزرعون أراضي الخمس ويبقون فيها، وكان على هؤلاء أن يدفعوا ثلث محصولهم للمسلمين، وهم أهل البسائط، وأصبحوا يسمون بالأخماس، وكذلك عُرف أبناؤهم ببني الأخماس[٢]. أما النصارى الذين كانوا في المعاقل المنيعة، والمناطق الجبلية، فقد أقرهم ابن نصير على ممتلكاتهم، وديانتهم، شريطة أن يدفعوا الجزية للمسلمين[٣]. وسميت الأراضي التي ظلت بحوزة هؤلاء باسم أرض الشمل، أو أرض الصلح[٤]. وهناك رواية أخرى تذكر أن موسى بن نصير لم يتمكن من إنجاز تقسيم الأندلس بشكل كامل[٥]، ويظهر أن سبب ذلك لضيق الوقت، إذ كانت المدة التي قضاها في الأندلس قصيرة؛ إضافة لانشغاله بالجهاد والفتوح، وتأمين المسلمين هناك[٦]، وقد حاول خلفه ابنه عبدالعزيز بن موسى (ت٩٧هـ/ ٧١٦م) أن ينظم علاقة

---

(١) الغساني، محمد بن عبدالوهاب، **رحلة الوزير في افتكاك الأسير**، حررها وقدم لها نوري الجراح، (أبوظبي، بيروت: دار السويدي للنشر والتوزيع، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ٢٠٠٢م)، ص١٣٩-١٤٠.

(٢) الغساني، **رحلة**، ص١٣٩-١٤٠.

(٣) الغساني، **رحلة**، ص١٣٩-١٤٠.

(٤) الغساني، **رحلة**، ص١٣٩-١٤٠؛ عبدالواحد ذنون طه وآخرون، **تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس**، (بيروت: دار المدى الإسلامي، ٢٠٠٤م)، ص٦٥.

(٥) الغساني، **رحلة**، ص١٤١.

(٦) حول تبعات رجوع موسى بن نصير إلى المشرق ومصيره هناك. انظر: ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم الدينوري، **الإمامة والسياسة**، اعتنى به خيري سعد، (مصر: المكتبة التوفيقية، ٢٠٠٠م)، ج٢، ص٢٩٦؛ ابن عذاري، أحمد بن محمد المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق ج.س. كولان، ليفي بروفنسال، ط١، (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩م)، ج٢، ص١٨ ومابعدها.

الفاتحين مع أهالي المنطقة، فعقد عدة اتفاقات صلح معهم كما فعل مع الحاكم القوطي تدمير Theodomir[1]، وكذلك مع أهالي مدينة وشقة Huesca[2] إذ ذكر الحِميري أنّ هذه المدينة حوصرت حصاراً طويلاً حتى بنى المسلمون المساكن وغرسوا الغروس وحرثوا لمعايشهم واستمر الحصار سبعة أعوام، ثمّ «استأمنوا لأنفسهم وذراريهم، فمن دخل الإسلام ملك نفسه وماله وحرمته، ومن أقام على النصرانية أدى الجزية»[3].

بيد أن هناك روايات أخرى تشير إلى أنه حينما تولى الخليفة عمر بن عبدالعزيز الخلافة (٩٩-١٠١ هـ/ ٧١٧-٧١٩م) عين والياً من قبله هو السمح بن مالك الخولاني (ت١٠٣هـ/ ٧٢٢م)[4]، وأوصاه أن ينهي المهمة التي ابتدأها موسى بن نصير، وهي تقسيم الأرض، من

---

(١) جاء اسمه في وثيقة الصلح التي عقدها مع عبدالعزيز بن موسى، باسم تدمير بن غندريس؛ عند العذري وغندرس عند الحميري، وكان حاكم شبه مستقل لمنطقة مرسية Murcia. العذري، أحمد بن عمر، **ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك،** تحقيق عبدالعزيز الأهواني، (مدريد: مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، ١٩٦٥م)، ص٥؛ الحميري، محمد بن عبدالمنعم، **الروض المعطار في خبر الأقطار،** تحقيق إحسان عباس، (لبنان: مكتبة لبنان رياض الصلح، ١٩٧٥م)، ص١٣٢؛ إفارست ليفي بروفنسال، **تاريخ إسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية ٧١١-١٠٣١م**، ط٣، (مصر: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠م) ص٥٥-٥٦.

(٢) وشقة Huesca: تقع شرقي مدينة سرقسطة، وهي مدينة متحضرة ذات متاجر وأسواق عامرة وصنائع قائمة، كذلك هي مدينة حصينة لها سوران من حجر. الحميري، **الروض،** ص٦١٢.

(٣) الحميري، **الروض،** ص٦١٢.

(٤) السمح بن مالك الخولاني الحياوي، تولى ولاية الأندلس في حدود عام ١٠٠هـ/ ٧١٩م، وهو الذي أعاد بناء قنطرة قرطبة على نهر الوادي الكبير. الحميدي، محمد بن أبي نصر فتُّوح؛ **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس،** اعتنى به صلاح الدين الهواري، (بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م)، ص٢٣٠؛ ابن عذاري **البيان،** ج٢، ص٤، ج٢، ص٢٦. انظر: أدناه لصورة قنطرة الوادي في قرطبة من تصوير الباحث؛ ص٢١٩.

أجل أن يحدد خمس الخلافة، وهذا ربما يتعارض مع الروايات السابقة في مسألة تخميس الأرض، خاصة أن بعض الأندلسيين يؤكد بأن أرض الأندلس لم تخمس؛ فمثلاً قال ابن حزم(ت٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م) «هذا مع ما لم نزل نسمعه سماع استفاضة، توجب العلم الضروري، إنّ الأندلس لم تخمّس وتقسم كما فعل رسول الله ﷺ فيما فتح، ولا استطيبت أنفس المستفتحين وأقرت لجميع المسلمين كما فعل عمر رضي الله عنه فيما فتح، لكن نفذ الحكم فيها لكل يد ما أخذت ووقعت فيها غلبة بعد غلبة، ثمّ دخل البربر والأفارقة فغلبوا على كثير من القرى من دون قسمة[١]. ثم دخل الشاميون في طالعة بلج بن بشر بن عياض القشيري (ت١٢٥هـ/ ٧٤٣م)[٢]، فأخرجوا أكثر العرب والبربر المعروفين بالبلديين عمّا كان بأيديهم، كما ترون الآن من فعل البربر ولا فرق»[٣]. وهذا يُعيدنا للتساؤل حول طبيعة الفتح الإسلامي للأندلس هل تم صلحاً أم عنوة أم شيئاً من هذا وذاك؟! والحق؛ أن الروايات تختلف وتضطرب بشكل واضح حول هذه المسألة، فمثلاً جاء في رواية عند الغساني أنّ موسى بن نصير فتح البلاد من عمل إشبيلية Sevilla[٤]،

---

(١) ابن حزم، علي بن أحمد، **رسالة التخليص لوجوه التخليص، رسالة منشورة ضمن كتاب، رسائل ابن حزم الأندلسي،** تحقيق إحسان عباس، ط٢، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٧م)، ج٢، ص١٧٥.

(٢) بلج بن بشر بن عياض القشيري، قائد عسكري، دخل بجيشه إلى الأندلس عام ١٢٥هـ/ ٧٤٣م وتمكن من قتل واليها عبدالملك بن قطن وتولي حكم البلاد. الحميدي، **جذوة**، ص١٧٩؛ابن الخطيب، محمد بن عبدالله السلماني، **الإحاطة في أخبار غرناطة،** اعتنى به يوسف علي طويل، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)، ج١، ص١٩.

(٣) ابن حزم، **رسالة التخليص، رسائل**، ج٢، ص ١٧٦.

(٤) إشبيلية Sevilla: تقع جنوب غرب قرطبة Cordoba وتبعد عنها حوالي ١٣٠كم، تذكر بعض الروايات أن أصل تسميتها اشبالي ومعناه المدينة المنبسطة، وتذكر كذلك أن الذي بناها يوليوس القيصر. الحميري، **الروض**، ص٥٨؛ مجهول المؤلف، **كتاب الأندلس وما فيها من بلاد،** تحقيق خالد حسن الجبالي، (الأردن: دار البشير، ٢٠٠٤م)، ص٢٧.

«فبدأ بها...ثمّ سار منها إلى لبلة (Niebia)[١]، ثمّ إلى باجة (Beja)[٢]، ثم إلى أكشونبة (Faro)[٣] ، على سيف البحر، فافتتحها أجمع سلماً»[٤]. وفي موضع آخر يورد الغساني رواية تخالف ما سبق ينسبها لمحمد بن مزين نقلاً عن محمد بن موسى الرازي في سِفْره (الرايات) قوله: «فلم يبق بالأندلس بلدة دخلها المسلمون بأسيافهم، وأصبحت ملكاً لهم، إلاّ وقسّم موسى بن نصير بينهم أراضيها إلاّ ثلاثة بلاد، وهي شنترين (Santarem)[٥]، وقلنبرية (Coimbra)[٦] في الغرب، وشية -لعلها وشقة- (Huesca)[٧] ، في الشرق، وسائر البلاد خمست وقسمت... ثمّ توارث الأراضي الأبناء عن الآباء. والذي ذكره الناس والعلماء من أرض (الصلح) وأرض العنوة بالأندلس فإنما هو مال الخمس، هو أرض العنوة، وما صولحوا عليه فهو حال الشمل من أرض وشجر لا سائر أموال الناس»[٨].

---

(١) لبلة (Niebia): تقع غرب الأندلس، وهي مدينة قديمة، تعرف بالحمراء، بها أسواق وتجارات، وتعتبر منطقة غنية بالزراعة. الحميري، **الروض**، ص٥٠٧.

(٢) باجة (Beja): من أقدم مدن الأندلس، بناها الأقاصرة، وهي من الكور المجندة نزلها جند مصر. الحميري، **الروض**، ص٧٥.

(٣) أكشونبة (Faro ocsonaba): تقع بالقرب من مدينة باجة، هي منطقة منبسطة، أغلب سكانها من العرب، وأهم مدنها شلب Silves. الحميري، **الروض**، ص٣٤٢.

(٤) الغساني، **رحلة**، ص١٣٦.

(٥) شنترين (Santarem): تعد من كور باجة، وتقع على جبل عال، تشتهر بكثرة البساتين والفواكه. الحميري، **الروض**، ص٣٤٦.

(٦) قلنبرية-قلمرية (Coimbra): تعتبر من بلاد البرتغال، تقع على جبل مستدير، وهي صغيرة متحضرة يكثر فيها الكروم والتفاح. الحميري، **الروض**، ص٤٧١.

(٧) وشقة (Huesca): تقع شرقي سرقسطة (Zaragoza) وهي مدينة قديمة وكبيرة بها سوران من حجر، تعتبر مدينة متحضرة وبها متاجر وأسواق وصنائع. الحميري، **الروض**، ص٦١٢.

(٨) الغساني، **رحلة**، ص١٤٠.

ويرى بعض الباحثين أن هذه الرواية قلقة؛ فهي تبين أنّ أكثر الأراضي فتحت عنوة، مع أنّ المواجهة بعد المعركة الحاسمة مع لذريق Rodrigo[(١)] كانت مع حكام المدن الذين كانوا يصالحون عن مدنهم عادة[(٢)].

واستندوا إلى رواية أخرى أوردها الغساني نفسه تشعر بذلك، إذ يقول فيها إن «بعض علماء السلف قال إن الأندلس أكثرها إنما فتح صلحاً إلاّ الأقل من مواضع معروفة، وأنه لما هزم لذريق لم يقف المسلمون بعد ذلك ببلد إلاّ أذعنوا إلى الصلح، ولذلك بقي الروم فيها على أرضهم وأموالهم يبيعون ويباع منهم»[(٣)].

بيد أنه لو تتبعنا تفاصيل فتح المدن الأندلسية في المصادر الأندلسية لنجد أن أغلبها فتح عنوة خصوصاً مدنها الكبرى.

وهذا جدول يوضح ذلك :

---

(١) تمكن الدوق لذريق من حكم طليطلة في حوالي ٩١هـ/ ٧١٠م ثم فرض سيطرته على حكم البلاد وإبعاد أبناء الملك السابق غيطشة witiza، وحينما دخل المسلمون الأندلس كان هو حاكم البلاد، وتمكن طارق بن زياد وجيشه من الانتصار عليه في وادي لكة، وقيل إنه قتل في هذه المعركة.انظر: مجهول المؤلف، **أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بها بينهم،** تحقيق إبراهيم الأبياري، (القاهرة- بيروت: دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م)، ص١٨؛ ابن القوطية، أبو بكر بن محمد بن عمر، **تاريخ افتتاح الأندلس،** ط٢، (القاهرة-بيروت: دار الكتاب المصري - دار الكتاب اللبناني، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م)، ابن عذاري، البيان، ج٢، ص٨؛ ليفي بروفنسال، **تاريخ إسبانيا،** ص٤٦-٤٧.

(٢) عبدالعزيز الدوري، غيداء كتبي، «الفتح والأرض في الأندلس»، **مجلة اللغة العربية الأردني،** الأردن، مجمع اللغة العربية الأردني، العدد٧٢، ٢٠٠٧/ ١٤٢٨هـ، ص٤٨.

(٣) الغساني، **رحلة،** ص١٤٠.

المدينة	طريقة الفتح	المصدر
قرطبة	عنوة	مجهول، أخبار مجموعة، ص٢١؛ ابن عذاري، البيان، ج٢، ص١٠
مالقة وجميع أعمال رية	عنوة	ابن عذاري، البيان، ج٢، ص١١
غرناطة (قاعدة إلبيرة)	عنوة	ابن عذاري، البيان، ج٢، ص١١؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص١٩
تدمير	صلح	ابن عذاري، البيان،ج٢،ص١١؛ المقري، نفح،ج١،ص٢٦٤
طليطلة	بدون مقاومة (وجدوها خالية)	ابن عذاري، البيان، ج٢، ص١٢
شذونة	عنوة	ابن عذاري، البيان،ج٢، ص١٣؛ المقري، نفح، ج١، ص٢٦٩
قرمونة	عنوة	ابن عذاري، البيان، ج٢، ص١٤؛ المقري، نفح، ج١، ص٢٦٩
إشبيلية	عنوة	ابن عذاري، البيان، ج٢، ص١٤؛ المقري، نفح، ج١، ص٢٧١
ماردة	صلح	ابن القوطية، تاريخ افتتاح، ص٣٥؛ ابن عذاري، البيان، ج٢، ص١٤؛ المقري، نفح، ج١، ص٢٧٠
لبلة	عنوة	ابن عذاري، البيان، ج٢، ص١٥
باجة	عنوة	المقري، نفح، ج١، ص٢٧١
سرقسطة	عنوة	ابن عذاري، البيان، ج٢، ص١٦
وشقة	صلح	الحميري، الروض، ص٧٩٥.

استقر الفاتحون في الأندلس؛ والذين سينعتون أنفسهم بالبلديين، وتعايشوا مع السكان المحليين وتزاوجوا معهم. وعندما وصل الوالي الجديد السمح بن مالك الخولاني إلى الأندلس مع بعض أتباعه، رفض البلديون أن يسمحوا لأي من هؤلاء القادمين الجدد أن يشاركوهم أراضيهم. وتوجه وفد منهم إلى دمشق يشكون إلى الخليفة عمر بن عبدالعزيز، ويهددون بإخلاء الأندلس، لو حاول أتباع السمح الاستقرار في أراضيهم، ولقد حل الخليفة عمر هذه المشكلة، بأن منح أتباع السمح أراضي من حصة الخلافة. وأصبح هذا الإجراء هو الطريقة المثلى لإسكان الجماعات الصغيرة من العرب التي تدخل إلى الأندلس فيما بعد[1].

ويبدو أن تلك الطريقة في تقسيم وتوزيع ومنح الأراضي في الأندلس من العوامل المهمة التي ساعدت على عدم الاندماج والانصهار في نسيج اجتماعي واحد، وزاد هذا الأمر ظهور بيوتات جديدة باستقرار كل عشيرة في جهة محافظة على وحدتها[2]، خاصة أن الدولة الأموية اعتمدت على تلك البيوتات في الإدارة والجيش، ومما زاد الأمر فرقة أنه إضافة لهذا التقسيم الطبقي والاجتماعي، كان هناك تقسيم مناطقي -إن صح التعبير- وهذا يظهر جلياً حينما دخلت طالعة بلج بن بشر القشيري عام ١٢٥هـ/٧٤٣م إلى الأندلس والتي كان بها أعداد كبيرة من الشاميين[3] فحاول والي الأندلس أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي[4] إنزالهم في عدة مناطق

---

(١) عبدالواحد ذنون، **تاريخ العرب**، ص٦٦.

(٢) عبدالسلام بن المختار شقور، البيوتات الأندلسية: بحث في المكونات والضوابط والنتائج، **ندوة الأندلس، الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات**، (الرياض، مكتبة الملك عبدالعزيز، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م)، ص٢٥٢.

(٣) ابن الخطيب، **الإحاطة**، ج١، ص١٩.

(٤) حسام بن ضرار بن ربيعة بنحصن ينتهي نسبه إلى كلب بن وبرة، يكنى حُسام أبا الخطار، تولى ولاية الأندلس في حدود عام ١٢٥هـ/ ٧٤٣م الحميدي، **جذوة**، ص١٩٧-١٩٨.

مشابهة لأجواء أماكنهم في الشام، فمثلاً أنزل أهل دمشق إلبيرة لشبهها بها وسماها دمشق، وأنزل أهل حمص إشبيلية وسماها حمص لشبهها بها، وأهل قنسرين جيان وسماها قنسرين، وأهل الأردن رية وهي مالقة وسماها الأردن، وأهل فلسطين شذونة وهي شريش وسماها فلسطين، وأهل مصر تدمير وسماها مصر[(١)]. ويرى عبدالسلام شقور أن هذا الصنيع ساعد على ظهور الزعامات في أطراف الأندلس، وحال دون انصهار المجتمع الأندلسي[(٢)].

وعليه؛ يظهر أن هذه العوامل ساعدت على نشوء كتلتين مختلفتين –إن صح التعبير– في الحياة الأندلسية، الكتلة الأولى يغلب عليها الطابع المدني وارتباطها بالأرض، والأخرى كتلة قبلية– عرقية يغلب عليها الطابع العسكري والولاء للقبيلة والعرق بالدرجة الأولى. ويمكن القول بأن هذا العهد (عهد الولاة) اتسم بسيطرة سلطة القبيلة (الكتلة القبلية) على الرغم من وجود والٍ أو أمير للبلاد[(٣)]، وهذا الأمر –ربما– هو ما فطن إليه الأمير الأموي عبدالرحمن (الداخل) بن معاوية (١٣٨-١٧٢هـ/ ٧٥٥-٧٨٨م) حينما دخل الأندلس، لذا حاول حينما استقرت له الأمور إحلال سلطة الدولة مكان سلطة القبيلة، فاستكثر من العبيد والبربر واعتمد على الموالي في تدبير دولته.

ومن الممكن اعتبار عهد عبدالرحمن الداخل حتى عهد حفيده عبدالرحمن (الأوسط) بن الحكم (٢٠٦-٢٣٨هـ/ ٨٢٢-٨٥٢م) أي قرن من الزمان هو انتصار حقيقي للكتلة المرتبطة بالأرض والإقليم، والتي بدأت الأندلس فيها تشكل شخصيتها الثقافية والحضارية، ومن هنا يمكن القول إن المجتمع الأندلسي شهد تحولاً واضحاً في طبيعته وثقافته وأسلوب حياته

---

(١) ابن القوطية، **تاريخ**، ص٤٤؛ ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد، **تاريخ ابن خلدون، المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، (بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)، ج١، ص١٥١٧.

(٢) عبدالسلام شقور، **البيوتات الأندلسية**، ص٢٥٢.

(٣) عبدالواحد ذنون طه، **تاريخ العرب**، ص١٠٨.

فبات أكثر مدنية وتقدماً وترفاً. ومظاهر ذلك عديدة يمكن الاستدلال عليها من خلال الكثافة العمرانية والسكانية التي شهدتها قرطبة في تلك الحقبة[١]، حتى ذكرت بعض المصادر أن قرطبة غصت بساكنيها فاندفعوا يبنون خارجها، حتى تجاوزوا حدود المقابر، مما اضطر قاضي قرطبة الأسوار بن عقبة النصري (ت٢١٣هـ/ ٨٢٨م)[٢] وقتئذ إلى إصدار حكم يثبت فيه حدود مقبرة الربض[٣]. كذلك بروز ظاهرة البيوت الريفية المعروفة بالمنية[٤]، والتي استكثر منها الأمراء الأمويون. ويرجع ذلك أيضا للزيادة الكبيرة التي شهدتها عائدات الدولة الاقتصادية، إذ ازدادت جباية الأمراء من ستمائة دينار إلى مليون[٥]. ويبدو أن الثراء لم يكن

---

(١) ابن حيان، خلف بن حيان القرطبي، **المقتبس من أنباء أهل الأندلس**، تحقيق محمود علي مكي، ط١، (الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)، ج٢، ص٢٨٤.

(٢) الأسوار بن عقبة النصري، قال عنه الخشني: «كان من أهل التحري والخير، والتواضع والسيرة»، وقال عنه ابن الفرضي: «كان فاضلاً عاقلاً». اختلفت ترجمته عند الخشني وابن الفرضي، فالخشني ذكر أنه من أهل جيان وكان قاضي للجماعة وعزله الأمير عبدالرحمن الأوسط بعد ذلك، بينما ذكر ابن الفرضي أن اسمه إسوار وأنه من أهل قرطبة وتولى قضاءها وظل فيه حتى وفاته. الخشني، محمد بن حارث، **قضاة قرطبة وعلماء أفريقية**، تحقيق السيد عزت العطار، ط٢، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م)، ص٧٥؛ ابن الفرضي، عبدالله بن محمد الأزدي، **تاريخ علماء الأندلس**، تحقيق صلاح الدين الهواري، (صيدا-بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م)، ج١، ص٩٢.

(٣) الخشني، **قضاة قرطبة**، ص٧٥؛ أحمد بدر، **تاريخ الأندلس وحضارتها**، (دمشق:مكتبة أطلس، ١٩٧٢م)، ج١، ص١٦٥.

(٤) منية: هي عبارة عن قصر ريفي في ضواحي المدينة ضمن حدائق غناء، ويعتبر هذا النوع من البناء السابقة الأولى في العصور الوسطى التي انبثقت عنها أبنية القصور الريفية والإقامة فيها في العصور الحديثة. أحمد بدر، **تاريخ الأندلس**، ج١، ص١٥٩.

(٥) ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي كرم، **الكامل في التاريخ**، تحقيق محمد بن يوسف الدقاق، ط٣، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٨/ ١٩٩٨م)، ج٥، ص٤٦٦؛ أحمد بدر، **تاريخ الأندلس**، ج١،ص١٥٧.

مقتصراً على الطبقة الحاكمة بل بات المجتمع الأندلسي يتمتع بدرجة جيدة من الغنى، ويظهر ذلك من الاهتمام الواضح بالكماليات كالاهتمام بالزينة، فانتشر استخدام مواد جديدة لطرد رائحة البدن[١]، كالمرتك المتخذ من المرداسنج[٢]، كذلك أحدثت تغيرات عديدة في عادات الملبس والمأكل. ولعل إعفاء الأمير عبدالرحمن (الأوسط) أهل قرطبة من واجب الحشد مقابل أن يجهزوا على حسابهم مجموعة من المطوعة، عند كل صائفة، دليل على هذا التحول الذي طرأ على الحياة الأندلسية، ويظهر أن الدولة رأت أنه من المصلحة أن يكرس هؤلاء جهدهم لأعمالهم خصوصاً أنه بات بمقدورهم أن يعوضوا تخليهم عن الحشد بدفع المال[٣]. وهذا يدلل أيضا على النشاط الاقتصادي الجيد الذي بات يتمتع به المجتمع القرطبي.

---

(١) المقري، أحمد محمد المقري التلمساني، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب**، تحقيق إحسان عباس، (بيروت: دار صادر، ٢٠٠٤م)، ج٣، ص١٢٧.

(٢) المرداسنج لفظة فارسية معناها الحجر المحرق، نوع من الرصاص، ذكر ابن سينا عدة فوائد له من ضمنها أنه يطيب رائحة البدن والإبط، ويمنع العرق، ويذهب آثار الجدري. ابن سينا، الحسين بن عبدالله، **القانون في الطب**، تحقيق وشرح حسان عدنان جعفر، (بيروت: دار البحار، المركز اللبناني للطب البديل، ٢٠٠٩م)، ج٢، ص١٣.

(٣) ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص ١٠٩؛ أحمد بدر، **تاريخ الأندلس**، ج١، ص١٦٦. وقد حاول الأمير محمد بن عبدالرحمن (٢٣٨-٢٧٣هـ/ ٨٥٢-٨٨٦م) بعد ذلك أن يكسب ولاء القرطبيين أكثر فأسقط عنهم ضريبة الحشد والبعوث؛ وهذه الضريبة كانت تفرض على أهل قرطبة وأقاليمها، وكان لزاماً عليهم إخراجها كل سنة للصوائف التي تخرج لغزو الممالك النصرانية في الشمال، ويتولى صاحب المدينة مسئولية إخراج الناس لتلك البعوث، ولا يمكن أن يتخلف أحد قادر على حمل السلاح إلا إذا كان لديه عذر شرعي أو أغلق عليه داره، بعلم صاحب المدينة، شريطة ألا يغادر منزله إلا بعد عودة الجيش من الغزو، كما يتولى صاحب المدينة مسئولية حشد فتيان قرطبة القادرين على حمل السلاح، وذلك في المناسبات التي تقام فيها استعراضات عسكرية. أعيدت هذه الضريبة في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر. انظر: سالم عبدالله الخلف، **نظم الحكم الأمويين ورسومهم في الأندلس**، (المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية، ١٤٢٤/ ٢٠٠٣م)، ج٢، ص٥٠٧.

ولعل من أهم الأسباب التي ساعدت على هذا التطور السياسي والاقتصادي الذي شهدته الأندلس في هذه المرحلة؛ استقرار الشرائح الاجتماعية وركونها إلى الدعة، في ظل دولة قوية تتعامل مع كافة شرائحها المختلفة بشكل أكثر عدلاً وتسامحاً[١].

لذا باتت بعض الشرائح غير المسلمة مثلاً تشعر بأندلسيتها، ولا أدل على ذلك من دخول بعض النصارى الإسلام، وبعضهم الآخر استعرب في لغته وثقافته وعاداته وتقاليده وإن بقي على دين النصرانية، لذا سموا بالمستعربين، ونبذوا الأدب اللاتيني النصراني، وأعجبوا بالآداب والعلوم الإسلامية؛ وينقل دوزي رسالة أحد كتاب النصارى وقتئذ يصف فيها بشيء من التفصيل تلك الحالة، فيقول متحسراً: «لقد هام أبناء جلدتي النصارى بقراءة أشعار العرب وأقاصيصهم، وأصبحوا يدرسون مؤلفات فقهاء المسلمين وفلاسفتهم، لا يهدفون من وراء ذلك إلى دحضها بل يريدون التمتع بديباجتها العربية المشرقة، فأين هو اليوم ذلك العالم الذي يقرأ الشروح اللاتينية للكتب المقدسة؟ وأين ذلك الذي يدرس الأناجيل وسير الرسل والحواريين والأنبياء؟ وأسفاه!..» [٢].

ويؤكد هذا الكاتب النصراني بشيء من الأسف -في رسالته تلك أيضاً- مدى تأثر شباب النصارى بثقافة العرب وآدابهم بقوله: «إن جميع شباب النصارى الموهوبين لا يعرفون غير العربية والأدب العربي، وهم شديدو الانكباب على مطالعة الكتب العربية ودراستها، كما

---

(١) من أمثلة ذلك؛ تولية أهل الذمة لمناصب إدارية مهمة في الدولة؛ كجومث بن أنطونيان عامل أهل الذمة والذي يسميه الخشني قومس بن انتنيان؛ والذي وصل إلى مكانة مميزة في الدولة، وكان صاحب مال وفير، وكذلك عقد مجاميع دينية لأهل الذمة تحت إشراف الدولة. الخشني، **قضاة**، ص١١١؛ محمد عبدالله عنان، **دولة الإسلام في الأندلس**، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م)، ج١، ص٢٧١.

(٢) دوزي، **تاريخ المسلمين**، ج١، ص٨٥.

يسخون كل السخاء في تكوين المكتبات الكبيرة ويشيرون أنى كانوا إلى روعة هذا الأدب، فإذا حدثتهم عن الكتب المسيحية أجابوك ساخرين بأنها أتفه من أن تستحق عنايتهم أو يبذلوا فيها اهتمامهم فيا لعظم الفجيعة ويا هولها..»(١).

ويبدو أن هذا الذوبان في الثقافة العربية الإسلامية في مقابل انهيار الحضارة اللاتينية النصرانية جعل أحمد بدر يعتبره سبباً رئيساً لحركة ما سميت بالاستخفاف أو الاستشهاد التي ظهرت في أواخر عصر عبدالرحمن الأوسط، والتي قام بها مجموعة من المتعصبين النصارى(٢). ولعل من الأسباب التي لم تساعد على نجاح تلك الحركة هو وجود المستعربين بشكل أكبر في الأرياف بعيداً عن العاصمة قرطبة، يؤكد ذلك ما ذكره ابن حوقل الذي زار الأندلس في هذه المرحلة وقال: «وبالأندلس غير ضيعة فيها الألوف من الناس لم تمدَّن، وهم على دين النصرانية رومٌ»(٣).

أما بالنسبة للمولدين الشريحة الاجتماعية الناشئة والمهمة في تكوين المجتمع الأندلسي، فيبدو أن الدولة لم توفق بشكل كبير في احتضان تلك الشريحة وجعلها ركناً أساسياً في بنائها الاجتماعي وصيرورتها السياسية، وهذا خطأ استراتيجي وقع فيه مسيرو الدولة الأموية ستتضح نتائجه بعد برهة من الزمن، بدليل أن المولدين لم يبدأوا بالثورة إلا بعد زهاء قرن من الزمن، تحديداً في أواخر القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، وحتى نهاية عصر الإمارة في أوائل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي إذ ظلت حركاتهم مستمرة في الثغور تارة، وفي

---

(١) دوزي، **تاريخ المسلمين**، ج١، ص٨٥.

(٢) انظر: تفاصيل ذلك عند رينهرت دوزي، **المسلمون في الأندلس**؛ ترجمة حسن حبشي، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م)، ج١، ص٨٥ وما بعدها؛ أحمد بدر، **تاريخ الأندلس**، ج١، ص٢٠٠.

(٣) ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي، **صورة الأرض**، (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٩٢م)، ص١٠٦.

معظم مناطق الأندلس تارة أخرى[(١)].

ويتساءل هنا أحمد بدر عن هذا الهدوء طوال قرن من الزمن، ثم الثورة بعد ذلك؟ ويفسر هذا الأمر بقوله: «إن الجيل الهادئ هو الجيل الأول، أي ذلك الجيل الذي كان قوطياً من ناحية المجتمع الذي كان يعيش فيه، والقوانين الناظمة لحياته، ومسيحياً من ناحية عقيدته الدينية ثم دخل في الدين الإسلامي. وبذلك لم يغير دينه فقط، بل استبدل القانون القوطي بالقانون الإسلامي، وهو أمر محقق له فوائد كثيرة ومنافع جلّي، فمن الطبيعي والحالة هذه أن يكون هادئاً. أما بالنسبة للأجيال التالية فقد أصبحت هذه المنافع جزءاً من حياتها، وبرزت لها مساوئ جديدة أدت إلى ثورتها»[(٢)]. ويعلل في موضع آخر بقوله: «جيل المولدين الأول الذي عاش في مجتمعين وتقلّب به الحال بين النظامين، فتوفرت له فرصة تبين أفضلية العيش في ظل المجتمع العربي الإسلامي، وضمن قوانينه على العيش في المجتمع القوطي، فلا غرابة في ركونه إلى الهدوء والخضوع، أما الأجيال التي تلته فلم تعاين التجربتين، وتوفرت ظروف معينة مرتبطة بأمكنة ثوراتها أدت إلى نقمتها، وبالتالي إلى ثورتها»[(٣)].

ولعل الباحث وفق في تحديد أصل وجذور المشكلة، مع الأخذ بالاعتبار أن عامل الزمن مهم في تكوين هذه الشريحة الاجتماعية إذ تحتاج لمرور أكثر من جيل على الأقل حتى يكون لها

---

(١) انظر: : ابن حيان، خلف بن حيان القرطبي، **السفر الثالث من كتاب المقتبس من أنباء أهل الأندلس،** تحقيق محمود علي مكي، ط١، (الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م)، ص٤٥ وما بعدها كذلك؛ ابن حيان، خلف بن حيان القرطبي، **المقتبس الجزء الخامس،** اعتنى بنشره شالميتا، (الرباط-مدريد: المعهد الإسباني العربي للثقافة، ١٩٧٩م)، ص٦٠ وما بعدها.

(٢) أحمد بدر، **تاريخ الأندلس،** ج١، ص١٢٦.

(٣) أحمد بدر، **تاريخ الأندلس،** ج١، ص١٢٩.

تواجد نسبي(بشري) تستطيع من خلاله المطالبة بحقوقها، أو حتى تكون لها القدرة على الثورة، وهذا ما حصل بعد زهاء أكثر من قرن، حينما بات المولدون قوة بشرية لم تستطع حكومة قرطبة احتوائها، ولا تلبية طلباتها؛ مما سبَّب للدولة متاعب كثيرة من تكرار ثوراتهم الكثيرة، والتي تستند في الأساس على قاعدة بشرية.

وعليه؛ يمكن القول إن مشكلة المولدين تكمن في عاملين: أحدهما سياسي والآخر اجتماعي، فالأول نجده في تعامل الساسة الأمويين مع هذه الشريحة وعدم إدراكهم لخطورتها، وتفريطهم في كسبها، وإدماجها بشكل صحيح في المجتمع الأندلسي. الأمر الآخر العامل الاجتماعي؛ ويظهر في النظرة الدونية لهذه الشريحة الاجتماعية خاصة من قبل العرب، وفي ذلك يقول أحد شعرائهم :

ورثنا المجد عن آباء صدق ،،، وإرثكُم بني العبدان ذل[1]

ولعل زعيم الثوار المولدين عمر بن حفصون[2] اختصر هذين العاملين في كلامه الموجه إلى المولدين الذي قال فيه: «طالما عنَّف عليكم السلطان، وانتزع أموالكم، وحملكم فوق طاقتكم، وأذلتكم العرب، واستعبدتكم، وإنما أريد أن أقوم بثأركم وأخرجكم من عبوديتكم»[3].

أيضاً؛ قد يكون للانتعاش الاقتصادي والدعة التي شهدتها الأندلس خلال هذه الحقبة ما أعطى بعض الطبقات الاجتماعية خاصة المولدين فرصة للتفكير في أوضاعهم ومقارنتها

---

(١) ابن حيان، **المقتبس**، مكي، ج٣، ص١٣٢.

(٢) عمر بن حفص المعروف بابن حفصون، أول مندخل في الإسلام من عائلته كان جعفر والد جد هذا الثائر. مقر عائلته كان كورة تاكرنا، تقع جنوب غرب قرطبة، ثم هاجرت منها أيام الحكم (الربضي) بن هشامفاستوطنت قرية تُر جله Torrecilla من كور ريّة. الحميدي؛ **جذوة**، ص٢٣٩؛ أحمد بدر، **تاريخ الأندلس**، ص٢٤٠-٢٤١.

(٣) ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص١١٤.

بغيرهم، وفي ظل عجز الدولة عن تطوير وتغيير بعض الأنظمة الاقتصادية كالإقطاع العسكري مثلاً[(١)]؛ إذ أُعطت بعض القبائل العربية إقطاعات مقابل الخدمة العسكرية ووزعتها في الكور التي عرفت بالكور المجندة بعد ذلك مع إعطائهم ثلث أموال أهل الذمة[(٢)]، وكان هذا العمل أمراً لا يُثير الاحتجاج لأنه بمثابة ضريبة، لكن مع تقدم الزمن كان الناس يدخلون في الإسلام، ومع هذا استمر النظام في سياسته تلك وظل الجند محافظين على امتيازاتهم[(٣)]. ساعد هذا الأمر على تفاقم نقمتهم على العرب، وتطلع نفوسهم للثورة، وفي ذلك يصف ابن عذاري حالهم حينما ثاروا مع ابن حفصون بقوله : «واتفق له زمان هرج، وقلوب قاسية فاسدة، ونفوس خبيثة متطلعة إلى الشر، مُشربة إلى الفتنة»[(٤)]. وهذا على العكس تماما من وصف بعض المؤرخين للحالة التي كان عليها المجتمع الأندلسي في عصر عبدالرحمن الأوسط إذ «كانت كلمة أهل الأندلس طول أيامه مجتمعة وقلوبهم متألفة وأيديهم متواصلة وأعاديهم بحال خشوع وذلة»[(٥)]. ورغم ما في هذا الكلام من مبالغة إذ شهد عهد هذا الأمير بعض الصراعات والحروب سواء بين العرب أنفسهم[(٦)]، أو بينهم وبين المولدين،

---

(١) حول الإقطاع وأثره على الأوضاع السياسية انظر: إبراهيم القادري بوتشيش، **أثر الإقطاع في تاريخ الأندلس السياسي من منتصف القرن الثالث الهجري حتى ظهور الخلافة (٢٥٠-٣١٦هـ)** (الرباط: مطابع منشورات عكاظ، ١٩٩٢م).

(٢) ابن الخطيب، **الإحاطة**، ج١، ص٢٠؛ أحمد بدر، **تاريخ الأندلس**، ج١، ص٢٣٤.

(٣) أحمد بدر، **تاريخ الأندلس**، ج١، ص٢٣٤.

(٤) ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص١١٤.

(٥) ابن حيان نقلاً عن الحسن بن محمد بن مفرح، ابن حيان، **المقتبس**، مكي، ج٢، ص٢٩٨.

(٦) كالحرب التي حصلت في بداية عهد الأمير عبدالرحمن في تدمير بين اليمنية والمضرية واستمرت سبع سنوات. ابن حيان، **المقتبس**، مكي، ج٢، ص٤١١.

إلا أن الطابع العام الذي تميز به عصر عبدالرحمن الأوسط هو استقرار سياسي واجتماعي جعل الكثير يثنون عليه وعلى أيامه وينعتونها بالعروس[١].

والحق؛ أن القراءة المتمعنة في تلك الحقبة تكشف أن المشكلة الحقيقية التي عصفت بالأندلس لم تكن بسبب ضعف الأمراء[٢] الذين استلموا الحكم بعد الأمير عبدالرحمن (الأوسط) وهي المرحلة التي شهدت تعدد الثورات والفتن حتى وصلت ذروتها في عهد الأمير عبدالله بن محمد (٢٧٥-٣٠٠هـ/ ٨٨٧-٩١٢م) إنما تكمن المشكلة في عدم انصهار المجتمع الأندلسي في لحمة اجتماعية واحدة واستمراره في تركيبته الاجتماعية المنقسمة، وإن كان في الظاهر يبدو مترابطاً تحت ظل دولة قوية، لكن هذا الظل لن يكون ممتداً بما فيه الكفاية مع تقدم الزمن ليغطي كافة شرائح المجتمع المتزايدة مع مرور الوقت، وعليه؛ يمكن القول إن الفتن التي انفجرت قبيل نهاية القرن الثالث الهجري/ الثامن الميلادي في عهد الأمير عبدالله تحديداً لم يكن سببها المباشر هذا الأمير إنما هي عملية تراكمية للبنية الاجتماعية الهشة التي بنى عليها الأمويون أساس دولتهم، ولعدم إيجاد حلول مناسبة لردم تلك الفوهة، وتأخير تلك الحلول.

إن المتتبع للثورات التي عصفت بالأندلس في أواخر هذا القرن يجد أنها لم تكن موجهة بالدرجة الأولى للدولة الأموية –وإن تطورت في أهدافها بعد ذلك لإسقاط الأمويين

---

(١) ابن حيان، **المقتبس**، مكي، ج٢، ص٢٩٠.

(٢) مثلاً يصف بعض المؤرخين الأمير المنذر بن محمد بن عبدالرحمن بقوله: «كان مشهوراً بالبأس، محبوباً في الناس». ويذكر أحدهم أنه: «لو عاش المنذر عاماً واحداً زائداً، لم يبق بَريّة منافق». ويعدون الأمير عبدالله بن محمد(٢٧٥-٣٠٠هـ/ ٨٨٧-٩١٢م) بانه أصلح خلفاء بني أمية بالأندلس وأمثلهم طريقة، وأتمهم معرفة وأمتنهم ديانة. ابن حيان، **المقتبس**، مكي، ج٣، ص١٨٠؛ ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص١١٣، ص١٢٠.

أنفسهم- بل كانت ثورات عرقية بدأها المولدون -وسميت الفتنة باسمهم؛ لأن أغلب الثوار كانوا منهم- وكانت موجهه ضد العرب، وبعد أن عجزت الدولة عن السيطرة على المولدين وحماية رعاياها، تكتلَ العرب تحت زعماء منهم؛ وهذا أدى بدوره لخروج تلك الشرائح عن سيطرة الدولة، مما شجع بقية الطامعين من الزعماء المحليين في كل منطقة على الاستقلال في مناطقهم مستغلين هذا الوضع المتزعزع وعجز الدولة عن فرض نفوذها وسطوتها، حتى لم تعد تأمن على قرطبة نفسها! [(١)].

والملاحظ أنه في خضم هذه العواصف والفتن التي شملت معظم الأندلس في أقاليمها ومدنها وحصونها المختلفة ظلت قرطبة وفيّة وصامدة مع الدولة الأموية، وهو على عكس حالها تماماً بعد أكثر من قرن من الزمن حينما كانت قرطبة مصدراً للفتنة التي عصفت بالأندلس في بدايات القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وكانت سبباً في إشعال نار الفتنة، بينما ظلت بقية الأقاليم تنتظر ما يدور في قرطبة وما يؤول إليه أمرها، وهذا ما سنبينه في حينه، أما هنا فقد يكون هناك عوامل جعلت من قرطبة هادئة منضوية بشكل تام إلى الدولة الأموية، ولعل للجانب الاجتماعي أبرز الأثر. وقبل الاسترسال في هذا الجانب حريٌ بنا أن نعود إلى الوراء قليلاً لمعرفة تكوين مدينة قرطبة الاجتماعي والتطورات والتحولات التي مرت بها وصولاً إلى هذه الحقبة.

فمدينة قرطبة قديمة، وذكر بعض مؤرخي الأندلس أن تاريخ تأسيسها يعود إلى زمن قياصرة الروم[(٢)]. وحينما سيطر القوط على شبة الجزيرة الإيبيرية كانت قرطبة من حواضرها

---

(١) مجهول، **أخبار مجموعة**، ص١٣٣.

(٢) ذكر المقري أن مؤرخي الأندلس كابن حيان والرازي والحجاري قالوا إن أكتبيان قيصر الروم هو من بناء قرطبة. المقري، **نفح**، ج١، ص٤١٨.

الكبيرة لكنهم لم يجعلوها عاصمة لبلادهم بل كانت طليطلة Toledo[(١)] هي العاصمة، وعندما دخل المسلمون الفاتحون إلى الأندلس، لم يجدوا مقاومة كبيرة عند قرطبة بسبب هروب كثير من أهلها، ولم يكن فيها للدفاع عنها وقتئذ سوى أربعمائة فارس مع ضعفاء أهلها[(٢)].

ثم لم تلبث قرطبة في العهد الإسلامي أن باتت عاصمة الأندلس[(٣)]. وقد أطنب المؤرخون في ذكر قرطبة ومحاسنها، فقال الحجاري: «كانت قرطبة في الدولة المروانية قبة الإسلام، ومجتمع أعلام الأنام بها استقرّ سرير الخلافة المروانية، وفيها تمخضت خلاصة القبائل المعديّة واليمانية، وإليها كانت الرحلة في الرواية إذ كانت مركز الكرماء، ومعدن العلماء، وهي من الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد»[(٤)].

وقال ابن سعيد عن أهلها: «لأهلها رياسة ووقار، لاتزال سمة العلم والملك متوارثة فيهم، إلا أن عامَّتها أكثر الناس فضولاً، وأشدهم تشغيباً، ويُضرب بهم المثل ما بين أهل الأندلس في القيام على الملوك، والتشنيع على الولاة، وقلة الرضا بأمورهم»[(٥)]. وامتدح أحد السلاطين اختيار الأمويين لقرطبة لتكون دار ملكهم[(٦)].

---

(١) طليطلة Toledo: مدينة قديمة تقع على ضفة النهر الكبير، وهي مدينة غنية وجد المسلمون حينما دخلوها ثروات كثيرة، كانت مقر مملكة القوط، الحميري، **الروض**، ص٣٩٣-٣٩٤.

(٢) ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص١٠.

(٣) يذكر ابن عذاري أن أهل الأندلس بعد قتل عبدالعزيز بن موسى اجتمعوا على تقديم أيوب بن حبيب اللخمي، ونقلوا دار السلطان إلى قرطبة. ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص٢٥.

(٤) المقري، **نفح**، ج١، ص١٥٣.

(٥) المقري، **نفح**، ج١، ص١٥٤-١٥٥.

(٦) المقري، **نفح**، ج١، ص١٥٤.

وذكر بعض المؤرخين أن عدد أرباض قرطبة واحد وعشرون، في كل رَبَض منها من المساجد والأسواق والحمامات ما يقوم بأهله ولا يحتاجون إلى غيره، وبخارج قرطبة ثلاثة آلاف قرية(١).

أما بالنسبة لتركيبتها السكانية-حين الفتح والاستقرار- فيبدو أنه لم يكن بها من سكانها الأصليين عدد كبير، وكانت خليط من القبائل العربية اليمانية والقيسية إضافة إلى بعض القبائل البربرية، وهذا النسيج الاجتماعي المتوازن ربما ساعد قرطبة على جعلها بعيدة عن الثورات في قرنها الأول على الأقل، إذ باتت قرطبة-بعد مرور قرن من الزمن تقريباً- تضطرم جمرة، وأهلها ما فتئت ثوراتهم على الدولة ثورة بعد أخرى(٢)، حتى كادت الثورة الكبرى التي عرفت بثورة الربض(٣) أن تسقط الأمير الأموي الحكم بن هشام (١٨٠-٢٠٦هـ/

---

(١) المقري، **نفح**، ج١، ص٤٥٨.

(٢) تعددت ثورات العامة في قرطبة خلال هذه المرحلة، انظر: ابن حيان؛ **المقتبس**، مكي، ج٢، ص١٢٣؛ ص١٨٩؛ ص١٢٥-١٢٦.

(٣) ثورة الربض وقعت عام ٢٠٢هـ/ ٨١٨م في حي شقندة في الجزء الجنوب شرقي من قرطبة، وقد شارك في هذه الثورة بعض الفقهاء منهم يحيي بن يحيي الليثي، وطالوت بن عبدالجبار وغيرهما، وكادت الثورة أن تسقط الأمير الحكم بن هشام، لكنه تمكن من القضاء عليها بقوة وعنف حتى شهدت مقتلة عظيمة في ذلك المكان الذي أمر من بعده الحكم بعدم البناء فيه نكاية بهؤلاء الثوار، للمزيد عن ثورة الربض، ابن حيان، **المقتبس**، مكي، ج٢، ص١٤٠ وما بعدها ؛ أحمد الشعراوي، **هياج الربض ثورة شعبية على الحكم الأموي الأندلسي-بحوث ندوة الأندلس الدرس والتاريخ**، (الإسكندرية: جامعة الإسكندرية ورابطة الجامعات الإسلامية، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م)؛ وانظر: لصور حديثة للحي من تصوير الباحث أدناه؛ ص٢٢٢.

٧٩٦-٨٢٢م)[١] نفسه. ولعل السؤال المناسب هنا لِمَ ثار هؤلاء القرطبيون على الأمير الحكم؟

يبدو أن هناك عوامل عديدة للثورة، لعل من أبرزها؛ يعود إلى سلوك الأمير الحكم الشخصي وابتعاده عن مظاهر التدين حتى تجرأ عليه القرطبيون وقاموا بسببه بشكل علني منادين باستخفاف «الصلاة يا مخمور..!»[٢]، أيضا استكثاره للحرس والجند المرتزقة حتى ضايق بهم أهل البلد، كذلك اختلاف سياسة وسيرة الأمير الحكم عن أبيه الأمير هشام (الرضا) (١٧٢-١٨٠هـ/ ٧٨٨-٧٩٦م)[٣]، والذي اشتهر بالتواضع حتى كان يزاحم الناس في حضور الجنائز[٤]، وحرصه على إقامة العدل حتى شبه بالخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز[٥]، إضافة لتقريب الفقهاء والعلماء من بلاطه.

---

(١) أبو العاص، الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، ولي بعد أبيه هشام وهو ابن اثنتين وعشرين سنة، وهو الذي أوقع بأهل الربض، فسمي الحكم الربضي، توفي عام ٢٠٦هـ/ ٨٢٢م.ابن حيان، **المقتبس**، مكي، ص٩١ومابعدها؛ الحميدي، **جذوة**، ص٢٤، المراكشي، محي الدين عبدالواحد، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين وما يتصل بتاريخ هذه الفترة من أخبار الشعراء وأعيان الكتاب**، شرحه واعتنى به صلاح الدين الهواري، (لبنان: المكتبة العصرية ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م)، ص٢٤-٢٦ المقري، **نفح**، ج١، ص٣٤٤-٣٥٠.

(٢) ابن حيان، **المقتبس**، تحقيق مكي، ج٢، ص١٦٩-١٧٠.

(٣) أبو الوليد، هشام بن عبد الرحمن الداخل تولى الإمارة بعد أبيه سنة ١٧٢هـ/ ٧٨٩م وهو ابن ثلاثين سنة، كان حسن السيرة، مُتحيزاً للعدل، وكان أهل الأندلس يشبهونه بعمر بن عبدالعزيز، توفي سنة ١٨٠هـ/ ٧٩٦م. ابن عبد ربه، أحمد بن محمد، **العقد الفريد**، تحقيق محمد عبدالقادر شاهين، (بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م)، ج٥، ص٢٠٩-٢١٠؛ الحميدي، **جذوة**، ص٢٤؛ ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبدالله السلماني، **أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**، تحقيق ليفي بروفنسال، ط١، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م)، ج٢، ص١١-١٤.

(٤) ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص١٦٦.

(٥) ابن الأثير، **الكامل**، ج٥، ص٣٠٨؛ المقري، **نفح**، ج١، ص٣٣٦.

وقد حاول الأمير الحكم في بداية توليه السلطة أن يسير في سياسة مشابهة لسياسة وسيرة والده فكان يظهر التواضع ويحضر الجنائز، ويقرب الفقهاء، إلا أن الحكم انهمك في لذاته حسب وصف بعض المؤرخين(١)، وأخذ يقبض بيد من حديد على البلاد، فأبعد الفقهاء بعد أن رأى تجرُؤهم عليه وتأليبهم للناس ضده، بل غيَّر من الخط الذي سار عليه والده وحتى جده عبدالرحمن الداخل من قبل، ويوجزالمقري خلاصة ما ذكرته بعض المصادر حول ما استحدثه هذا الأمير من مستجدات لم تكن موجودة في عهد سلفه بقوله: «إنه أول من جند بالأندلس الأجناد والمرتزقة وجمع الأسلحة والعدد، واستكثر من الخدم والحواشي والحشم، وارتبط الخيول على بابه، واتخذ المماليك»(٢). وبذلك باتت هناك فجوة واضحة بين الفقهاء وعامة قرطبة من ناحية وبين الحكم وحرسه من جهة أخرى. ويضيف ابن حيان سبباً اقتصادياً للثورة وهو زيادة عشور الأطعمة بدون ضوابط شرعية مما زاد الاحتقان على هذا الأمير إضافة إلى ما نقموا عليه من أعمال سابقة، ويصف هذا الأمر ابن حيان بقوله: «فغلظ شأنه عليهم جداً-أي بعد زيادته لعشور الأطعمة- إلى أشياء نقموها عليه في ذاته من بطالته وراحاته، فثاروا به من أجل ذلك الثورة الكبرى»(٣).

ويجب ألا نغفل العامل الاجتماعي في تحريك الثورات وديمومتها في هذه المرحلة؛ فقرطبة شهدت تحولاً اجتماعياً في هذه الحقبة؛ لعل من أهم أسبابه حالة الاستقرار السياسي والأمني التي عاشتها الأندلس منذ زمن الأمير عبدالرحمن الداخل وحتى عهد الأمير الحكم نفسه، والذي بدوره انعكس على انتعاش الاقتصاد الأندلسي حتى وصلت الجباية في عهد الحكم في

---

(١) المقري، **نفح**، ج١، ص٣٣٩.

(٢) المقري، **نفح**، ج١، ص٣٤١-٣٤٢.

(٣) ابن حيان، **المقتبس**، مكي، ج٢، ص١٦٢.

أقاليم قرطبة وكورها ما يزيد عن مائة وعشرة آلاف دينار، وأربعة آلاف وستمائة مدي[(١)] من القمح، وأكثر من سبعة آلاف وستمائة مدي من الشعير[(٢)]. هذه الحياة المستقرة بشكل جيد- مقارنة بعهود سابقة- ساعدت على نشأة جيل اعتاد على حياة الأمن والترف، ولم يعايش حياة الفرقة والشرذمة التي عاشها أجداده، فبات يطالب بأكثر من الأمن والعيش الناعم كما وصف حاله أحد الشعراء وهو يتهكم على الثائرين على السلطة بعد ما آلت إليه حالهم بعد الثورة:

بعد القصور وبعد عيش ناعم   صرتم إلى ذل يهين ويسفل
بعد السرور وبعد أمن واسع   صرتم وأنتم للمنايا منهل[(٣)]

تمكن الأمير الحكم من السيطرة على شغب الناقمين عليه بقوة، وأخمد ثورتهم بشكل عنيف، وربما كانت هذه النتيجة التي آلت إليها الثورة جعلت أهل قرطبة يركنون إلى السلامة بعد أن قُضي على الكثير من الثائرين، وهُجر بعضهم الآخر خارج الأندلس، فلم تعد لديهم قدرة ولا قوة يستندون إليها لتساعدهم على القيام بالمزيد من الثورات، إضافة إلى أن سياسة الدولة قد تغيرت تجاههم بعد ذلك، وحاولت استعطاف البقية، وكسبهم وتقريب زعمائهم وخاصة الفقهاء وفي مقدمتهم يحيى بن يحيى الليثي (٢٣٤هـ/ ٨٤٩م)[(٤)]، الذي بات من

---

(١) المدي: مكيال أهل الشام، ويساوي ٤٥.٩ كيلو جرام. علي جمعة محمد، **المكاييل والموازين الشرعية**، ط٢، (القاهرة: القدس للإعلان والنشر والتسويق، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م)، ص٤٥.

(٢) المقري، **نفح**، ج١، ص٥٤١.

(٣) ابن حيان، **المقتبس**، تحقيق مكي، ج٢، ص١٧٥.

(٤) أبو محمد، يحيى بن يحيى بن كثير بن وسلاس بن شملل المصمودي، مولى بني ليث، من أهل قرطبة، سمع الموطأ من مالك بن أنس، ولما عاد للأندلس تصدر للإقراء والإفتاء. انظر: ابن الفرضي، **تاريخ**، ج٢، ص١٥٧-١٥٨؛ الحميدي، **جذوة**، ص٣٧٠.

المقربين للأمير عبدالرحمن (الأوسط) (٢٠٦-٢٣٨هـ/ ٨٢٢-٨٥٢)[١]، الذي خلف والده الأمير الحكم، وقد اختط الأمير الجديد عبدالرحمن سياسة مغايره لسياسة والده، إذ حاول منذ البداية كسب رضا العامة بدءاً؛ بقتل ربيع القومس[٢]، والذي حسب ما وصفه ابن حيان كان من أعظم البلايا على أهل قرطبة[٣]، ثم هدمه للفندق الذي اشتهر فيه شرب النبيذ في شقندة[٤]Secunda[٥]، وتغييره للمنكر في قرطبة[٦]، والزيادة في المسجد الجامع فيها[٧]، إضافة إلى تقريبه للفقهاء والعلماء خاصة الفقيه يحيى الليثي كما سبق أن أشرنا.

والحق أن الأمير عبدالرحمن كان شخصية سياسية بالدرجة الأولى؛ عرف كيف يمسك العصا من الوسط، فرغم أنه لم يكن على درجة عالية من التدين إلا أنه لم يغفل جانب الفقهاء والأعمال الخيرية في أعماله وسياساته، هذا من جهة ومن جهة أخرى نجده يقرب المغنيين وينفتح على الثقافة بشتى أنواعها حتى الفلسفية منها، حتى قيل إنه أول من أدخل كتب

---

(١) أبو المطرف؛ عبدالرحمن بن الحكم بن هشام بن عبدالرحمن الداخل، تولى الحكم أواخر عام ٢٠٦هـ/ ٨٢٢م نعمت الأندلس في عهده بالاستقرار والرخاء، كما شهد عهده حركة علمية كبيرة. توفي عام ٢٣٨هـ/ ٨٥٢. ابن حيان، المقتبس، مكي، ج٢، ص٢٧٥؛ الحميدي، جذوة، ص٢٤.

(٢) ربيع القومس:عامل أهل الذمة، قائد الغلمان الخاصة المعروفين بالخرس، وهو الذي كلفه الحكم (الربضي) بن هشام بمهمة هدم الربض القبلي بعد حادثة الربض الشهيرة. ابن حيان، **المقتبس**، مكي، ج٢ ص١٥٠.

(٣) ابن حيان، **المقتبس**، مكي، ج٢، ص١٨٣.

(٤) شقندة Secunda:حي يقع على ضفة نهر الوادي الكبير قبالة قصر قرطبة وجامعها.الحميري، **الروض**، ص٣٤٩. كذلك انظر: لصورة حديثة لذلك الحي أدناه؛ ص٢٢٢.

(٥) ابن حيان، **المقتبس**، مكي، ج٢، ص٢٧٩.

(٦) ابن حيان، **المقتبس**، مكي، ج٢، ص١٨٦.

(٧) ابن حيان، **المقتبس**، مكي، ج٢، ص٢٨١.

الفلسفة والحكمة وكتب الطب إلى الأندلس[١]، ومع ذلك لم نجد اعتراضاً على مثل هذه الأعمال كما كان يواجه والده !.

ولعل محاولة الأمير عبدالرحمن تغيير الصورة النمطية للأمراء الذين سبقوه من لباس وبساطة ونحوه، إلى التوسع في تفخيم سلطانه ولباسه ومظهره، وربما كان يهدف من هذا العمل إلى زرع الهيبة في قلوب رعيته، ويبدو أنه نجح في ذلك، وهذا ما يؤكده ابن حيان بقوله: «فغرس الهيبة في قلوب الرعية»[٢].

ولا يمكن أن نغفل شخصية اجتماعية كان لها أثر واضح في إحداث نقلة نوعية في العادات الاجتماعية في الأندلس خلال هذه الحقبة تلكم الشخصية يقف وراها المغني زرياب[٣]، والذي يصف دوزي أثره في الواقع الاجتماعي الأندلسي بأنه أحدث انقلاباً جوهرياً في العادات[٤]. سواء أكان ذلك في طريقة اللباس أم كان في الأكل ونحوه، فمثلاً كان الناس قد اعتادوا على إرسال شعر الرأس إلى الوراء في غدائر طويلة، وتفريقها في الوسط من الجبين، فباتوا يعقصون شعورهم في حلقات[٥]، وكانوا يستعملون على المنضدة أواني من ذهب وفضة، وأصبحت الأوعية من زجاج[٦]، إلى غير ذلك. ويرجح عبدالغفور روزي نجاح

---

(١) ابن حيان، **المقتبس**، مكي، ج٢، ص٣٧٨.

(٢) ابن حيان، **المقتبس**، مكي، ج٢، ص٢٨٨.

(٣) أبو الحسن، علي بن نافع مولى الخليفة العباسي محمد (المهدي) بن أبي جعفر المنصور، دخل الأندلس في زمن الأمير عبدالرحمن الأوسط قادماً من المشرق، ولقب زرياب لُقب به حينما كان بالمشرق بسبب سُحمة لونه مع فصاحة لسانه، وحـلاوة شمائله. وقيل بطائر أسود. انظر : ابن حيان، **المقتبس**، مكي، ج٢، ص٣٠٨ وما بعدها.

(٤) دوزي، **المسلمون في الأندلس**، ج١، ص٧٨.

(٥) المقري، **نفح**، ج٣، ص١٢٧؛ دوزي، **المسلمون في الأندلس**، ج١، ص٧٨.

(٦) المقري، **نفح**، ج٣، ص١٢٧؛ دوزي، **المسلمون في الأندلس**، ج١، ص٧٨.

تجربة زرياب في إحداث مثل تلك التغيرات الاجتماعية إلى عاملين أحدهما زمني؛ إذ كانت الأندلس في عصر عبدالرحمن الأوسط تعيش أكثر مراحلها المواتية لتقبل مثل هذه الأفكار ورعايتها، وظرفي؛ إذ أخذت أندلس عصر عبدالرحمن الأوسط تدخل مرحلة الاعتداد بالذات، وفيها أخذت تتخلص بقوة من شعور التبعية التي كانت تحس بها تجاه المشرق الإسلامي ويستولى عليها رغبة التأكيد على قدراتها الخاصة والندية في التعامل مع عوالم الإسلام الأخرى وعلى رأسها بغداد رمز حضارة الإسلام آنذاك[1].

ويبدو أن قرطبة حظيت بتقدير خاص لدى الأمراء الأمويين؛ بدليل إعفاء الأمير عبدالرحمن (الأوسط) والأمير محمد بن عبدالرحمن أهلها من أن يقدموا للحشد والنفير. وهذه مزايا ربما جعلتهم بعيدين عن أي تذمر أو مشاركة بالثورات التي تعصف بمحيط قرطبة، بل جعلتهم أكثر ولاء للحكومة والتمسك بها، أضف إلى أن تركيبة قرطبة السكانية باتت أكثر تماسكاً بل من الممكن القول إن قرطبة تحديداً دون بقية الأقاليم الأندلسية باتت تتشكل فيها توليفة اجتماعية متوازنة إلى حد كبير بحيث لا تطغى فئة اجتماعية على أخرى واصطبغت بلون خاص بها، مما جعلها بعيدة عن التحزبات والعصبيات القبلية والعرقية التي عصفت بالأندلس في تلك الحقبة. ولعل أدق وصف لتلك الحالة السائدة في بقية الأقاليم الأندلسية ما ذكر ابن حيان: «تفاقم في هذا الوقت ما بين العرب والمولدين والعجم، واستعملوا العصبية وتميزت أحزابهم بعضهم إلى بعض بكل جهة، فعادوا في الجاهلية وتسافكوا الدماء ودانوا بالاستباحة، وتحزَّبت المسالمة مع المولدين، وتميزت إليهم نصارى الذمة، فصاروا جميعاً إلباً على العرب، قائمين بدعوة عمر بن حفصون»[2].

---

(١) عبدالغفور إسماعيل روزي، «زرياب والزريابية في الأندلس من منظور عصر عبدالرحمن الأوسط»، **مجلة العصور**، لندن، دار المريخ، المجلد العاشر، ج١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ، ص١٣٠-١٣١.

(٢) ابن حيان، **المقتبس**، مكي، ج٢، ص١١٠.

والحق أن الثورات ليست أمراً جديداً تشهده الأندلس بيد أن التحول الخطير فيها خاصة بعد عهد الأمير عبدالرحمن الأوسط هو تحولها إلى ثورات ذات صبغة عرقية، والأخطر اتصال بعض الثائرين والمدن الأندلسية بدول الشمال النصرانية ضد الدولة الأموية، ورغم أن الأمراء الأمويين لم يقفوا مكتوفي الأيدي حيال ذلك وحاربوا هذا الأمر بشدة، وحققوا انتصارات كما حصل مع الأمير محمد بن عبدالرحمن ضد ثورة أهل طليطلة واتصالهم بملك جليقية[1]، وكذلك اتصال عمر بن حفصون بأحد ملوك النصارى في الشمال، إلا أن الذي ساعد هذه الثورات على ديمومتها هو ارتكازها على قاعدة كبيرة من الشرائح الاجتماعية المؤيدة لها خصوصاً من شريحة المولدين، لذا ربما أجبر الأمير عبدالله بن محمد والتي وصلت تلك الثورات في عهده إلى ذروتها[2]؛ إلى انتهاج سياسة لا مركزية مع الثوار، أي أنه ترك للثوار حرية حكم مناطقهم على أن يدفعوا بعض المال لخزانة قرطبة مقابل الاعتراف بحكمهم، لذا عُرف في عهده ديوان دعي بديوان القطع[3]، لعله يخمد من نيران الثائرين ويكسب ولاءهم لدولته.

ويبدو أن هذا الأمير توسع في هذه السياسة حتى مع عماله الخاضعين له، ويظهر ذلك جلياً في إحدى رسائله لأحد عماله: «أما بعد، فلو كان نظرك فيما خصصناك به واهتبالُك به على حسب مواترتك بالكتب واشتغالك بذلك عن فهم أمرك، ولكُنت من أحسن رجالنا

---

(١) ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص٩٤؛ عبدالمجيد نعنعي، **الإسلام في طليطلة**، (لبنان: دار النهضة العربية، د.ت)، ص٤٠.

(٢) فمثلاً؛ وصلت ثورة ابن حفصون إلى مسيرة يوم واحد من قرطبة، ابن عذاري، **البيان**، ج٢،ص١٣٨.
David james ,**Ahistory of Early Al-andalus**,(London,new York:routledge,2012),132p.

(٣) ابن الأبار، محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي، **الحلة السيراء**، اعتنى به علي إبراهيم محمود، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م)، ص١٣٤؛ أحمد بدر، **تاريخ الأندلس**، ج١، ص٢٥١، سالم الخلف، **نظم الحكم**، ج١، ص٣٨٣.

عناء، وأتمهم نظراً، وأفضلهم حزماً. فأقلِل من الكتب فيما لا وجه له ولا نفع فيه، واصرف همتك وفكرتك وعنايتك إلى ما يبدو فيه اكتفاؤك، ويظهر فيه غِناؤك، إن شاء الله»[١].

ومع ذلك لم تنفع هذه السياسة المتسامحة من قبل حكومة قرطبة مع الثوار إذ ما فتئ بعضهم أن خلع طاعة الأمير وقطع عنه المال، بل إن الثائر ابن حفصون شكل تهديداً حقيقياً لقرطبة نفسها، مستفيداً من ضعف قدرات الأمير وسوء أحوال مملكته، حتى بات مطمئناً من عدم قدرة الأمير على مواجهته، وربما كان بمقدور ثورة ابن حفصون أن تنجح خصوصاً أنها شهدت تأييداً كبيراً من المولدين وبعض الشرائح الاجتماعية الأخرى كأهل الذمة وبعض البربر، لكن تكمن مشكلة ابن حفصون أنه لم يكن رجل ثورة ومبادئ بقدر ما هو رجل عصابة وقاطع طريق، فهو لم يحاول الاستفادة من ضعف الدولة الأموية ويركز جهوده على إسقاطها، بل كان همه السلب والنهب والانتقام وتحويل الصراع إلى عرقي بدلاً من أن يكون صراعاً سياسيّاً، ثم جاءت نكسته الكبرى حينما ارتد عن الإسلام وتحول إلى النصرانية محاولاً كسب مزيد من الثقة والتأييد من النصارى[٢]، وهذا العمل أفقده مصداقيته لدى مؤيديه، لذا فقد تخلى عنه الكثير منهم.

ويبدو أن حكومة قرطبة حينما عجزت عن إخماد الثورات بسياسة اللين والمرونة مع الثوار اتجهت إلى سياسة العنف والإقصاء، بل حاولت استئصالهم من جذورهم، ومن الممكن القول إنه حصل هناك تطهير عرقي لبعض الشرائح الاجتماعية في بعض المناطق كما حصل في إشبيلية التي قتل فيها حوالي عشرين ألف من المولدين على يد العرب بمساعدة وتأييد من حكومة قرطبة، وهذا عدد مهول، وفي ذلك قال الشاعر العربي متفاخراً بذلك:

---

(١) ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص١٥٤ .

(٢) ابن حيان، **المقتبس**، مكي، ج٣، ص٢٢٨.

أبـــدنا بالـــسيوف بنـــي العبيـــد فراحـــوا هامـــدين عـــلى الـــصعيد
قتلنـــا مـــنهم عـــشرين ألفـــاً فقلّلنـــا الكثـــير مـــن العديـــد[(١)]

وبات المولدون قلة في تلك المنطقة وتفرد العرب فيها، وفي ذلك قال ابن حيان: «أبادت مولدي إشبيلية، وقد كانوا أغلظ أهلها شوكة، وأوسعهم نعمة، وأعزهم جانباً، وأحضرهم عدة، يعتدون في اثني عشر رئيساً، لكل رئيس عقدة يعقدها، وعدة يعتد بها، وطائفة يلجأ إلى جنابها، فكانت قاصمتهم الكبرى»[(٢)]. ورغم هذه السياسة العنيفة مع الثوار إلا أن حكومة قرطبة باتت عاجزة عن القضاء عليهم قضاءً مبرماً.

إن طول زمن الفتن والثورات وشدة العداء والقتال والذي أنتج مذابح كبيرة ومؤلمة، كان كفيل بتغيير بعض التركيبة السكانية لبعض المدن والمناطق الأندلسية، وإضعاف بعض الشرائح الاجتماعية كالمولدين تحديداً رأس الحربة في تلك الثورات خلال تلك الحقبة، إضافة إلى هرم زعيمهم عمر بن حفصون[(٣)]، كل تلك الأمور هيأت للأندلس بيئة مناسبة لتشكيل عهد جديد مهيأ للنهوض؛ خصوصاً أن قرطبة كانت أقل المتضررين من تلك الثورات على الأقل من الناحية البشرية، مما جعلها أكثر ترابطاً من الناحية الاجتماعية، فكل هذه الظروف مهدت الطريق إلى النهوض بالأندلس؛ إذا ما اعتلى رأس الهرم شخصية ذات قدرات عالية من الحنكة السياسية والإدارية تستطيع استغلال هذه الظروف في إعادة تشكيل الأندلس سياسياً وعسكرياً، وهذا ما نجح فيه حفيد الأمير عبدالله، الأمير عبدالرحمن (الناصر) بن

---

(١) ابن حيان، **المقتبس**، مكي، ج٣، ص١٦٢.

(٢) ابن حيان، **المقتبس**، مكي، ج٣، ص١٦١.

(٣) ظل ابن حفصون يعاني في أواخر حياته من علة لازمته حتى توفي وقد بلغ اثنتين وسبعين سنة، وذلك عام ٣٠٥هـ/ ٩١٧م في مدينة ببشتر Barbastri. ابن حيان، **المقتبس**، شالميتا، ج٥، ص١٣٨.

محمد (٣٠٠-٣٥٠هـ/ ٩١٢-٩٦١م) الذي تميز بخصال سياسية وعسكرية وإدارية جعلته يضع اللبنات المناسبة على أرض خصبة وممهدة للنهوض بالأندلس لتعيش أزهى مراحل حكمها الإسلامي، ولا بد في مثل هذه الظروف أن يكون للجانب الاجتماعي وتحولاته من أثر على الحياة السياسية في الأندلس في تلك الحقبة خصوصاً، فهذا المجتمع تحول من كونه مجتمعاً تغلب عليه العنصرية والصبغة العسكرية إلى مجتمع متماسك يميل إلى المدنية وشيء من الطبقية، وهذا ما سنفصل فيه في الفصل القادم.

* * *



الفصل الأول

مسببات التحولات الاجتماعية في قرطبة خلال عصر الخلافة

الفصل الأول
مسببات التحولات الاجتماعية في قرطبة خلال عصر الخلافة

تبين في فصل التمهيد السابق أن الأندلس مرت بعدة تحولات اجتماعية منذ أن استقر المسلمون في شبه الجزيرة الإيبيرية، هذه التحولات ألقت بظلالها على الحياة السياسية فيها، بل كادت في بعض المرات أن تُسقِط حكومة قرطبة بشكل نهائي.

إن مجتمعاً حيوياً كالمجتمع الأندلسي يجعل من الضروري أن تتعاطى حكومات قرطبة المتعاقبة مع التحولات المستمرة التي يعيشها ذلك المجتمع سواء في نمط عيشه أو تفكيره أوثقافته المتجددة والمتغيرة؛ ولعل مثل تلك التحولات الاجتماعية الواضحة والتي شهدها القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي تحديداً أثرت على الحياة السياسية في الأندلس وفي تعاطي السكان مع القضايا السياسية المختلفة، لاسيما قضية جوهرية كالخلافة خاصة أنها باتت رمزاً للوحدة الأندلسية التي تنضوي تحتها جميع الأطياف السياسية والاجتماعية المختلفة في الأندلس. وما إن تمس تلك المسألة الحساسة حتى تهتز أركان الحياة الأندلسية بشكل عام، والمعروف أن إسقاط الخلافة الأموية لم يكن بغزو خارجي أو انقلاب عسكري إنما جاء بقرار من أعيان قرطبة، والذي يبدو أنه وجد قبولاً اجتماعياً؛ وهنا تكمن أهمية بحث مثل تلك التحولات الاجتماعية وتتبعها ورصد ما ألقته بظلالها على الأوضاع السياسية لا سيما قضية الخلافة.

وفي هذا الفصل سنحاول البحث عن مسببات تلك التحولات الاجتماعية، وسنعقبها في فصول لاحقة بتحليل مظاهر تلك التحولات ثم النتائج المترتبة عليها.

وبادئ ذي بدء يمكن القول إن هناك عدة مسببات -سواء سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية- أثر فيها بشكل أو بآخر العامل الديني؛ أدت في النهاية إلى التحولات الاجتماعية التي مرت بها قرطبة تحديداً خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي؛ مما كان له عميق الأثر في بدايات القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي على الأوضاع العامة في قرطبة بشكل خاص، والأندلس بشكل عام.

أولاً: المسبب السياسي:

لعل من أبرز أحداث القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي هو الاستقرار السياسي التي شهدته الأندلس-في معظم فتراته- وهو بخلاف الأوضاع السياسية التي سبقته بسنوات قليلة أو السنوات اللاحقة له من حيث الاضطرابات السياسية وسوء الأوضاع الأمنية والنزاعات والفتن التي عصفت بالأندلس.

وقبل الاسترسال في تبيان أثر هذا العامل وما ألحقه من تأثيرات اجتماعية أثرت بدورها على الأوضاع السياسية وعلى الحياة العامة بالأندلس. ينبغي أن نتوقف قليلاً عند رُبان هذا الاستقرار والمؤثر فيه ألا وهو حاكم الأندلس لنصف هذا القرن؛ عبدالرحمن بن محمد المعروف بالناصر، خصوصاً إذا ما عرفنا الأوضاع السياسية السيئة التي مرت بها الأندلس قبيل تولي هذا الحاكم، ثم التحول الكبير الذي طرأ عليها بعد توليه أمر الحكم في قرطبة.

وعليه نقول؛ إنه حينما تولى عبدالرحمن (الثالث) بن محمد كانت الأندلس قد أنهكتها الصراعات والخلافات والفتن، وكان أمام هذا الأمير الشاب مهمة صعبة لإعادة بناء الأندلس مرة أخرى، وهي مهمة تتطلب جهداً مضاعفاً ربما يحتاج لسنوات عديدة حتى يتمكن من إنجازها، وربما كان من أسباب نجاح عبدالرحمن (الثالث) إضافة إلى قدراته الشخصية والإدارية والسياسية هو طول مدة حكمه التي استمرت خمسين عاماً، والتي ساعدته على تنفيذ سياساته ومخططاته. ويظهر أن الأمير الشاب عبدالرحمن كان على اطلاع جيد بما يدور في مملكة جده قبل توليه الأمر، ربما لأنه كان يُهيأ لتولي العرش بعد جده[(١)]،

(١) سجن الأمير عبدالله ابنه محمد -والد عبدالرحمن- بعد وشاية بأنه يتآمر مع خصمه ابن حفصون، ثم قتل محمد في سجنه واختلف فيمن وراء ذلك، فقرب الأمير عبدالله حفيده عبدالرحمن بعد ذلك منه وجعله كاتب سره ونائبه، وكان يقعده في بعض الأيام والأعياد على كرسي الحكم لتسليم الجند عليه. ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص١٥٠؛ أحمد بدر، **تاريخ الأندلس**، ج٢، ص٣.

فكان على دراية بمكامن الخلل في بعض سياسات جده حاكم الأندلس الأمير عبدالله، وقد انتقد ذلك صراحة في عدة مواقف منها على سبيل المثال ذكره عدم بسط يده في الإنفاق واهتمامه بصغائر الأمور[(١)].

ويظهر أن الأمير الجديد للأندلس قد رسم لنفسه خطة لإعادة تشكيل الأندلس مرة أخرى، وإعادتها إلى أحضان قرطبة، وهذا يتضح من خلال سياساته المتزنة منذ بداية توليه الحكم، فقد حاول تأمين حدوده البحرية والبرية قبل الشروع في مشروعه لإعادة توحيد البلاد في دولة مركزية عاصمتها قرطبة؛ فتذكر بعض المصادر أن الأمير عبدالرحمن (الثالث) في عام ٣٠١هـ/ ٩١٣م ركز على سواحل البحر وأَمَّنَها وشحنها بالمراكب والأسلحة والرجال وأمر بتمشيط عسكري لسواحل البحر من الجزيرة الخضراء Algeciras[(٢)] إلى حد تدمير[(٣)]، هذا بالنسبة لحدوده البحرية، أما البرية فحاول توجيه ضربات عسكرية استباقية دفاعية ضد الممالك النصرانية هدفها إشغال الجبهة هناك عن الأوضاع في مملكته، بدليل أنه لم يخرج لقتال تلك الممالك بنفسه إلا بعد ثمان سنوات من توليه الحكم عام٣٠٨هـ / ٩٢٠م[(٤)] أي بعد أن استقرت له الأمور بشكل مطمئن في قرطبة.

---

(١) ابن حيان، **المقتبس**، مكي، ج٣، ص٩٠-٩١.

(٢) الجزيرة الخضراء Algeciras: تقع جنوب الأندلس عند مضيق جبل طارق، وتسمى كذلك بجزيرة أم حكيم نسبة إلى جارية طارق بن زياد كان قد تخلفها بتلك الجزيرة ومعها نفر من جنده حينما عبر إلى الأندلس. تكثر فيها البساتين لذا سميت بالخضراء. ابن عبدالحكم، عبدالرحمن بن عبدالله، **فتوح مصر والمغرب**، تحقيق علي محمد عمر، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م)، الحميري، **الروض**، ص٢٢٣.

(٣) ابن حيان، **المقتبس**، شالميتا، ج٥، ص٨٧-٨٨.

(٤) ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص١٧٥؛ محمد عبدالله عنان، **دولة الإسلام في الأندلس**، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م)، ج٢، ص٣٩٨.

أيضاً أظهر الأمير الجديد للأندلس سياسة حزم وسطوة في بعض الأحيان ظهرت واضحة في تعامله مع أبرز المناوئين لحكومة قرطبة وهم أبناء حفصون؛ فقد مَثل بجثة سليمان بن عمر بن حفصون ونبش قبر عمر وابنه وأشهد الفقهاء أنهما دفنا على النصرانية[١].كذلك اتبع هذا الأمير الجديد سياسة المباغتة في بعض المواطن كما فعل للاطمئنان على أوضاع ببشتر Bobastro[٢]. كما اتبع سياسة النفس الطويل في حصار بعض الخصوم؛ مثلما فعل مع طليطلة إذ قام ببناء مدينة بجوار طليطلة وإمدادها بجنده بشكل مستمر[٣].

ويبدو أن الحاكم الجديد للأندلس حاول أن يطلع رعيته بشكل مستمر على سياساته ونجاحاته المستمرة ليكونوا على دراية بما يحدث في مملكته، فاستغل منابر المساجد في هذا الأمر بإعلان ذلك في الخطب، ويبدو أنها سياسة استمرت بعده، وخصص بعض الخطباء لهذه المهمة، ويظهر ذلك من كلام الفقيه محمد بن عبدالله الجنبي (ت٣٩٥هـ/ ١٠٠٦م) [٤]، حينما قال: «ما وليت لبني أمية إلا قراءة كتب الفتوح..»[٥]. وحاول الخليفة الناصر أن يظهر من

---

(١) ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص ١٩٢؛ ص١٩٦؛ أحمد بدر، **تاريخ الأندلس**، ج٢، ص١٠.

(٢) ببشتر Bobastro: حصن منيع بينه وبين قرطبة ثمانون ميلاً وهو على صخرة صماء منقطعة لها بابان وأعلى الصخرة سهلة مربعة ذات مياه كثيرة. ولهذا الحصن قرى كثيرة وحصون خطيرة وما حوله كثير من المياه والأشجار والثمار والكروم وغيره.الحميري، **الروض**، ص٧٩؛ ابن حيان، **المقتبس**، شالميتا، ج٥،ص٢٥٠.

(٣) ابن حيان، **المقتبس**، شالميتا، ج٥، ص٢٨٧.

(٤) أبو محمد؛ محمد بن عبدالله بن عبدالرحمن بن أسد الجنبي، طليطلي، سكن قرطبة. من أهل الفقه والرواية والأدب، قال عنه عياض: «كان ضابطاً متفنناً للرواية، حسن الحديث، فصيح اللسان، حاضر الجواب..». توفي في آخر سنة ٣٩٥هـ/١٠٠٦م. عياض، أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي، **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة مذهب الإمام مالك،** تحقيق أحمد بكير محمود (بيروت: دار مكتبة الحياة ودار مكتبة الفكر، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م)، ج٤، ص٦٨٧-٦٨٨.

(٥) عياض، **ترتيب**، ج٤، ص٦٨٧-٦٨٨.

خلال تلك الخطب بعضاً من سياساته التي انتهجها سواء ميله إلى الإيثار؛ مثل ما جاء في كلامـه في إحدى خطاباته: «وعُـدنا عليه مـن العفو والتطمين[١] وأخذنا فيه بالفضل المبين، الذي جعلنا الله أهله وغلب على مذهبنا إيثاره..»[٢]، أو الحزم في بعض الأحيان ويتضح ذلك من خطابه لأحد عمالـه في إحدى غزواته بقوله: «وليكن حشدك حشراً لا حشداً»[٣].

إن المتتبع لسياسة عبدالرحمن الناصر الإدارية يلحظ أنه يقوم بتغيرات مستمرة في حكومته سواء في المناصب أو الرجال، فلا يكاد الرجل يستمر في منصبه حتى يتم تبديله سواء بعملية تدوير أو إقالة[٤]، ويبدو أن الخليفة الناصر حاول تهميش رؤساء القبائل العربية خصوصاً

---

(١) جاءت في نسخة ابن حيان تحقيق شالميتا (التضمين)، وثبتها محمد عنان في كتابه (التطمين) وهي أصح في السياق فثبتناها كما جاءت عند عنان. ابن حيان، **المقتبس**، شالميتا، ج٥، ص٢٣١؛ محمد عنان، **دولة الإسلام**، ج٢، ص٣٨٨.

(٢) ابن حيان، **المقتبس**، شالميتا، ج٥، ص٢٣١؛ محمد عنان، **دولة الإسلام**، ج٢، ص٣٨٨.

(٣) ابن حيان، **المقتبس**، شالميتا، ج٥، ص٤٣٣.

(٤) مثلاً في مسألة تدوير المناصب؛ عين جهور بن عبيد الله بن أبي عبدة على كورة إشبيلية في عام ٣١٨هـ/ ٩٣٠م، ثم عزله عنها في عام ٣٢١هـ/ ٩٣٣م وعينه على كورة شذونة ثم أعاده في عام ٣٢٣هـ/ ٩٣٥م إلى إشبيلية ثم عُزِل عنها في السنة التالية، كذلك كان الأمر مع دلهاث بن محمد حينما عزله عن كورة قرمونة في عام ٣٢١هـ/ ٩٣٣م وعينه على كورة تدمير مع سعيد بن عبدالرؤوف. أما تغيير المسؤولين في حكومته فمثلاً في عام ٣١٧هـ/ ٩٢٩م عزل عبدالملك بن جهور عن الوزارة وفي العام التالي أعاده إليها، وعين محمد بن عبداللهبن حدير على مدينة طليطلة وأعمالها في عام٣٢١هـ/ ٩٣٣م وفي العام التالي عزله عنها. كذلك في عام ٣٢٣هـ/ ٩٣٥م أعاد محمد بن عباس بن أبي عبدة لتولي كورة إلبيرة بعد عام من عزله، وفي السنة التالية عزله عنها مرة أخرى. انظر: ابن حيان، **المقتبس**، شالميتا، ج٥، ص٢٥٢، ص٣١٤، ص٣٣٠، ص٣٣١، ص٣٥٤.

بعد معركة الخندق[1] والاعتماد بشكل أساسي على مواليه لاسيما من الصقالبة، وسار على نهجه ابنه الخليفة الحكم (المستنصر بالله).

إن إنجازات الخليفة عبدالرحمن (الناصر) السياسية والإدارية كثيرة[2]، وليس مجال بحثنا تتبعها ورصدها إنما يهمنا منها ما أثرته في الجانب الاجتماعي تحديداً، بيد أنه من المفيد أن نشير-هنا- إلى نقطة مهمة؛ وهي أن هناك ظروفاً سياسية واجتماعية ساعدت عبدالرحمن (الناصر) في مقدرته على تنفيذ مشروعاته، وتحقيق أهدافه، وهي بدورها تنقسم إلى شقين داخلي وخارجي، فمثلاً؛ إذا أخذنا الظروف الداخلية فيبدو أن العواصف والفتن التي ألمت بالأندلس قد أهلكت الكثيرين وباتوا يتطلعون إلى الأمن والوحدة، يؤكد ذلك استسلام بعض المدن والحصون والدخول في الصلح والطاعة واتباع حكومة قرطبة[3]، أضف إلى أن الثائرين الذين يشكلون خطراً حقيقياً على حكومة قرطبة قد ضعفت قوتهم، فزعيم الثائرين

---

(١) معركة الخندق: وقعت في عام ٣٢٧هـ/ ٩٣٩م قرب مدينة شنت مانكش Simancas بين جيش الخليفة الناصر ضد مملكة ليون وبعض حلفائها من الممالك النصرانية، وانتهت المعركة بهزيمة ساحقة للخليفة الناصر كاد أن يقتل فيها، ويظهر أن من أسباب هزيمة الناصر هو عدم التجانس بين جيشه واختلاف قدراته فهو أمر أن يحشر حشراً وأن يشارك فيه جميع أطياف المجتمع، وفي ذلك قال الرازي: «بالغ في حشد أهل الأندلس وتخطاهم إلى أهل ولايته من أهل الحضر منهم وقبائل البربر البادية». إضافة إلى عدم جدية وفتور بعض رؤساء العشائر العربية في المعركة، لذا نال بعضهم غضب الناصر بعد المعركة وأمر بصلبهم. انظر: ابن حيان، **المقتبس**، شالميتا، ج٥، ص٤٣٢؛ محمد عنان، **دولة الإسلام**، ج٢، ص٤١٤.

(٢) للمزيد انظر: ابن حيان، **المقتبس**، شالميتا، ج٥، ص٢٠ومابعدها؛ ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص١٦٣.

(٣) على سبيل المثال؛ كورة إلبيرة، بجانة البحريين، ماردة، وحصون بسطة، تاجلة، مربيط، البراجلة، الأسناد، وادي آش، الحامة. ابن حيان، **المقتبس**، شالميتا، ج٥، ص٦٦؛ ص١٨١.

في إشبيلية وقرمونة إبراهيم بن حجاج (ت٢٨٨هـ/ ٩٠١م)[١] توفي قبل تولي عبدالرحمن الناصر بحوالي اثني عشر عاماً وانقسم الأمر بين أبنائه ثم اختلفوا بعد ذلك حتى طلبوا عون الأمير عبدالرحمن الناصر نفسه[٢]. وعميد الثائرين عمر بن حفصون الذي أرهق الدولة قد هرم وضعفت قوته وتوفي عام٣٠٦هـ/ ٩١٧م[٣]، بعد سنوات قليلة من تولي الناصر مقاليد الحكم، أما الظروف الخارجية؛ فأوضاع الممالك النصرانية غير مستقرة، وأشغلتهم الحروب الأهلية[٤].

---

(١) إبراهيم بن حجاج بن عمير اللخمي، جندي بلدي، قتل أبوه في كركر -تقع بالقرب من طليطلة- فثار في إشبيلية عندما ضعف حكم الأمويين وانتشرت الفتن فيها. قال عنه ابن حيان: «كان جواداً ممدَّحاً مقصوداً مضيفاً يرتاح للثناء». ابن حيان، **المقتبس**، مكي، ج٣، ص٤٩؛ ابن عذاري، **البيان**، ج٢،ص١٢٩.

(٢) خلف إبراهيم بن حجاج في حكم إشبيلية ابنه عبدالرحمن وخلفه في حكم قرمونة ولده محمد، ولما توفي عبدالرحمن في محرم سنة ٣٠١هـ/ ٩١٤م، تطلع أخوه محمد إلى أن يحكم إشبيلية من بعده، ولكن أهل إشبيلية اجتمعوا حول زعيم قوي آخر من آل حجاج اسمه أحمد بن مسلمة. فسار محمد إلى قرطبة طلباً للعون، وقدم طاعته لعبدالرحمن فتقبلها وأوفد معه الجند بقيادة الحاجب بدر، فحاصر إشبيلية ثم استولى عليها في جمادى الأولى ٣٠١هـ/ ٩١٣م وهدم أسوارها، وندب لها عبدالرحمن والياً من قبله وأنهى بذلك ثورة العرب والمولدين في إشبيلية. للمزيد؛ ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص١٢٥؛ محمد عنان، **تاريخ الإسلام**؛ ج٢، ص٣٧٧.

(٣) ابن عبد ربه، **العقد**، ج٥، ص٢٢٥؛ بينما ذكر ابن حيان نقلاً عن الرازي أن وفاته كانت ٣٠٥هـ/ ٩١٦م. ابن حيان، **المقتبس**، شالميتا، ج٥، ص١٣٨.

(٤) ذكرت بعض المصادر أنه في عام٣١٣هـ/ ٩٢٥م توفي ملك جليقية فرويلة بن أردون وتولي أخوه أذفونش بن أردون فتنازع مع أخيه صاحب ليون شانجه بن أردون -وكان أسن منه- وكانت بينهم حرب، ساعد أذفونش صهره صاحب بنبلونة شانجة بن غرسية وكثر القتل بينهم، وأجمعوا على خلع شانجة بن أردون واخراجه عن مدينة ليون، وجمع كلمتهم على الملك أذفونش بن أردون. ابن حيان، **المقتبس**، شالميتا، ج٥، ص٣٤٤-٣٤٥.

بيد أنه من الضروري الوقوف عند خطوة جريئة قام بها عبدالرحمن الناصر في هذا الجانب السياسي ألا وهي إعلان الخلافة في الأندلس عام ٣١٦هـ/ ٩٢٨م وهي خطوة لها انعكاساتها السياسية والاجتماعية، بل من الممكن القول إنها تعتبر نقطة تحول في تاريخ الأندلس، لذا لا بد من التوقف عندها رصداً وتحليلاً.

ومن حسن الحظ أن المصادر تحتفظ بنص خطاب إعلان عبدالرحمن الناصر للخلافة وهذا نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد، فإنا أحق من استوفى حقه، وأجدر من استكمل حظه، ولبس من كرامة الله ما ألبسه، للذي فضلنا الله به، وأظهر أثرتنا فيه، ورفع سلطاننا إليه، ويسر على أيدينا إدراكه، وسهل بدولتنا مرامه، وللذي أشاد في الآفاق من ذكرنا، وعلو أمرنا، وأعلن من رجاء العالمين بنا، وأعاد من انحرافهم إلينا، واستبشارهم بدولتنا. والحمد لله ولي النعمة والإنعام بما أنعم به، وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه! وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين، وخروج الكتب عنا وورودها علينا بذلك، إذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له، ودخيل فيه، ومتسم بما لا يستحقه. وعلمنا أن التمادي على ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعناه، واسم ثابت أسقطناه. فأمر الخطيب بموضعك أن يقول به، وأجر مخاطباتك لنا عليه، إن شاء الله. والله المستعان..كتب يوم الخميس لليلتين خلتا من ذي الحجة سنة ٣١٦هـ»[١].

والسؤال المُلح-هنا- لِمَ اتخذ الخليفة عبدالرحمن الناصر هذا القرار بعد ستة عشر عاماً من حكمه ؟ ولِمَ لَمْ يكن قبل ذلك التاريخ ؟! يبدو أن الظروف التاريخية مُهيأة أكثر من أي وقت مضى لاتخاذ مثل هذا اللقب ذا الدلالات الدينية والسياسية، فالمجتمع الأندلسي بات أكثر تماسكاً وولاءً للأرض والحكومة القرطبية عن سابق عهده، والصراعات القبلية والعرقية

(١) ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص١٩٨-١٩٩.

تقلصت بشكل واضح وجلي، إضافة للنجاحات السياسية والإدارية التي حققها الناصر في تلك المرحلة هذا من جهة، من جهة أخرى شهد القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي تمدد شيعي واضح في خريطة العالم الإسلامي فالعبيديون[1] يحكمون أجزاء من الغرب الإسلامي وأعلنوا خلافتهم في القيروان، والقرامطة[2] يحتلون البحرين والأجزاء الشرقية من جزيرة

---

(١) اختلف المؤرخون في نسب العبيديين، فبعضهم يقول إنهم ينتسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ومن ثم سموا بالإسماعيلية، وبعضهم ينكر نسبهم إلى إسماعيل، ويقول إنهم يرجعون في نسبهم إلى رجل فارسي هو عبدالله بن ميمون القداح الأهوازي، لذلك يسمونهم بالعبيديين. سيطروا على مصر عام ٣٥٨هـ/ ٩٦٨م ، وانتهت دولتهم على يد صلاح الدين الأيوبي عام ٥٦٧هـ/ ١١٧١م. ابن الأثير، **الكامل**، ج٣، ص٤٤٦؛ ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، **وفيات الأعيان وأنباء وأبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، (بيروت: دار صادر، د.ت)، ج٢، ص٥٧؛ حسن إبراهيم حسن، **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**، (بيروت –القاهرة: دار الجيل، مكتبة النهضة المصرية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م)، ج٣، ص١٥١. وللمزيد عن تلك الدولة انظر: المقريزي؛ تقي الدين أحمد بن علي، **اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**، تحقيق جمال الدين الشّيال، (القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٩٧٣م)؛ابن تغري، أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٧٢م)؛ علي حسني الخربوطلي، **أبوعبدالله الشيعي مؤسس الدولة الفاطمية**، (د.م: المطبعة الفنية الحديثة، ١٩٧٢م)؛ أيمن فؤاد سيد، **الدولة الفاطمية في مصر تفسير جديد**، (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٠م) .

(٢) ينسبون إلى حمدان بن الأشعث الملقب بقرمط؛ أول ظهورهم في الكوفة، ومؤسس الحركة في البحرين هو أبو سعيد الجنابي، وهي حركة باطنية، من أبشع أعمالها الاعتداء على الكعبة المشرفة عام ٣١٧هـ/ ٩٢٩م. سقطت دولتهم عام٤٦٢هـ/ ١٠٦٩م. ثابت سنان وآخرون، **أخبار القرامطة في الأحساء والشام واليمن**، تحقيق سهيل زكار، (دمشق: دار حسان، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)، ص٦ومابعدها؛ ابن الأثير، **الكامل**، ج٦ ص٣٩٦.

العـــرب، وبنو الأخيضر[١] يتحكمون في قلب وسط الجزيرة العربية، وبنو حمــــــدان[٢] في أجزاء من الشام، هــذا إضافــة لضعف الخلافة العباسية السنية في العــراق وتحكم بنو بويه[٣] الشيعة فيها، لــذا كان عـــلى عاتق الأندلس وهي الدولـــــة السنية المـــــالكية؛ حمل لواء الدفـــاع عن أهـــل السنة ودرء خـــــطر الشيعة عـــن بلدهم، ومن الممكن أن نستشف هــذا الخـــطر والهاجس الأندلسي من عدة حوادث وقصائد قيلت على ألسنة

---

(١) ينتسب بنو الأخيضر إلى محمد الأخيضر بن يوسف بن إبراهيم بن موسى الجون بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، حكموا اليمامة في حدود عام ٢٥٣هـ/ ٨٦٧م ولم تدم إمارتهم طويلاً إذ سقطت على يد القرامطة. ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، **جمهرة أنساب العرب**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م)، ص٤٦؛ابن خلدون، **تاريخ**، ج١، ص١٤٩٨-١٤٩٩؛ وللمزيد حول تلك الإمارة انظر: عبداللطيف نزار الحديثي "إمارة بني الأخيضر في اليمامة"، **مجلة كلية الآداب جامعة بغداد**، بغداد، المجلد الثاني، ١٩٧٦م؛ عبدالله بن يوسف الشبل، "الدولة الأخيضرية"، **مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية**، الرياض، جامعة الأمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد السادس، ١٣٩٦هـ.

(٢) ينتسبون إلى حمدان بن حمدون، يرجع نسبه إلى قبيلة تغلبالعربية، سيطروا على الموصل وحلب، في حدود عام ٣١٧هـ حتى ٣٩٤هـ/ ٩٢٩-١٠٠٣م.ابن خلدون، **تاريخ**، ج٢، ص١٦٠٦؛حسن إبراهيم، **تاريخ الإسلام**، ج٣، ص١١٦؛كارل بروكلمان، **تاريخ الشعوب الإسلامية**، ترجمة نبيه أمين ومنير البعلبكي، (بيروت: دار العلم للملايين، ٢٠٠٥م)، ص٢٤٠.

(٣) أسرة تعود نشأتها إلى إقليم الديلم على السواحل الجنوبية لبحر قزوين، برز منهم ثلاثة، علي والحسن وأحمد أولاد أبو شجاع بويه بن فناخسرو، كجنود تحت أحد قادة الأمراء في الديلم، تم تعين أكبرهم علي على مقاطعة الكرج، ثم تمكنوا بعد ذلك من السيطرة على أصبهان والري وهمذان، طلب الخليفة العباسي المستكفي (٣٣٣-٣٣٤هـ/ ٩٤٤-٩٤٦م) مساعدة أحمد بن بويه من تخليصه من الأتراك والمسير إلى بغداد ولقبه بمعز الدولة ولقب أخاه علياً عماد الدولة، وتمكنوا من السيطرة على بغداد وتأسيس إمارة وراثية في قلب الخلافة العباسية بمساندةجيش معظمه من الديلم والترك. ابن الأثير، **الكامل**، ج٧، ص٨٧؛ حسن إبراهيم، **تاريخ الإسلام**، ج٣، ص١١٦؛ فاروق عمر فوزي، **الخلافة العباسية**، (عَمان:دار الشروق، ١٩٩٨م)، ص٨٧.

وقصائد قيلت على ألسنة حكام وشعراء تندد بالخطر الشيعي وما يرتكبونه من أفعال في المشرق الإسلامي وتحديداً في الأماكن المقدسة؛ مثل تنديد الناصر بما ارتكبه القرامطة بمكة عام٣١٧هـ/ ٩٢٩م في خطاب له قال فيه: «وذلك مما شد أمير المؤمنين عزماً، وشعل قلبه غيظاً وغماً، حديث الحادث الجلل والخطب المعضل النازل في بيت الله الحرام وما صار إليه من الإغفال له والإضاعة لزواره، حتى غشيهم أهل الكفر في محل الأمن، فقتلوهم أبرح قتل بفنائه، وهتك البيت الحرام واستُلب ما فيه، وحدث فيه ما لم يُعرف في الأولين، ولم يزل في الآخرين، وهو الأمر الفادح الكارث، الذي لا يحلّ لأمير المؤمنين ترك الغضب منه، والسعي في الانتصار له، والقيام في الذب عنه، والتقرب إلى الله بحماية البيت العتيق وتعظيمه، وتهوين من استهان به، والله على الانتصار منهم معين إن شاء الله»[١]. وتؤكد بعض المصادر الأندلسية أن الناصر لا تخلو كتبه إلى أمراء المغرب من ذكر طلبه لسلطان المشرق واسترجاع ملك آبائه وذكر «تظاهـر الروايات له وإجماع الأثر على أنه المرتجع له»[٢]. كذلك إصداره أمره عام٣٤٤هـ/ ٩٥٥م بلعن ملوك الشيعة بجميع منابر الأندلس[٣].

أما ما قيل في الشعر بهذا الخصوص فهناك العديد من القصائد مثل قول الشاعر للحكم المستنصر بالله :

وهـذا لمـن في الشرق والغـرب مُـؤذن ... كما أنّ خطـف البرق يُـؤذن بالرَّعـدِ

ولم يبـق إلا أن يحـل بمكـة ... فيطـرد عنهـا المستحقين لِلطَّـردِ[٤]

---

(١) ابن حيان، **المقتبس**، شالميتا، ج٥، ص٣١١.

(٢) ابن حيان، **المقتبس**، شالميتا، ج٥، ص٣٠٥.

(٣) ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص٢٢٠.

(٤) ابن حيان؛ خلف بن حيان القرطبي، **المقتبس في أخبار بلد الأندلس**، شرحه واعتنى به الدكتور صلاح الدين الهواري، ط١، (بيروت، صيدا: المكتبة العصرية ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م)، ص١٦.

وقال آخر في الحكم المستنصر أيضا:

إن الإمـــام إذا مـــا صـــال قـــام لـــه صرف الحـوادث مـن خـوفٍ عـلى قـدمِ

قـــد قـــدر الله أن تحـــوي كتائبـــه ملـك العـراق وملـك الـشام والحـرمِ

كـأن بـــه وارداً مـــاء الفـــرات ضُـــحى والمـــاء قـــد مزجتـــه خيلـــه بـــدمِ[١]

وقال الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر:

منـــعَ العيـــن أن تـــذوقَ المنامـــا حبهـــا أن تـــرى الـــصفا والمقامـــا

لي ديـــون بالـــشرقِ عنـــد أنـــاسٍ قـــد أحلـــوا بالمـــشعرينِ الحرامـــا

عـــن قريـــبٍ تـــرى خيـــول هـــشامٍ يبلـــغُ النيـــلَ خطوهـــا والـــشاما[٢]

وعليه؛ تكون الظروف التاريخية ساعدت أو دفعت عبدالرحمن على اتخاذ هذا اللقب دون حرج ديني أو اجتماعي بل ربما كان مطلب وضرورة، يتضح ذلك من نص خطاب الخلافة، ومن التحولات السياسية التي عصفت بالعالم الإسلامي بشكل عام، وبالأندلس بشكل خاص كما ذكرنا.

ويهمنا من إعلان الخلافة انعكاساتها على الأوضاع الاجتماعية ومن الممكن القول إن هذا التحول السياسي في نظام الحكم الأموي من الإمارة إلى الخلافة جعل الخليفة في مقام رفيع لا يستطيع عامة الناس الاقتراب منه، تؤكد ذلك الإجراءات التي اتبعها الناصر حيال ذلك، إذ جعل هناك موظف خاص من البيوتات التي تحيط بالخليفة[٣] مهمته النظر في مطالب الناس

---

(١) ابن حيان، **المقتبس**، هواري، ص١٢٨.

(٢) المقري، **نفح**، ج١، ص٤٠٦.

(٣) من بيت بني حُدير؛ واسمه محمد بن حُدير عينه الناصر عام٣٤٤هـ/ ٩٥٥م أثر تعديلات وزارية أجراها كان من ضمنها: تعين الوزير جهور بن أبي عبدة مسؤولاً عن النظر في كتب جميع أهل الخدمة، والوزير عيسى بن فطيس مسؤولاً عن النظر في كتب أهل الثغور والسواحل والأطراف، والوزير الكاتب عبدالرحمن الزجالي مسؤولاً عن النظر في تنفيذ كل ما يخرج من العهود والتوقيعات، وينفذ الأمر أو الرأي وغير ذلك. ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص٢٢٠.

الناس وحوائجهم[١]، وأُفرِدت لبعض الطبقات خططٌ خاصة مهمتها الاهتمام بشؤونها[٢]، وتجدر الإشارة إلا أن الخليفة الناصر اعتمد في حكومته وإدارة أقاليمه على بعض بيوتات معينة عُرف ولاؤها للبيت الأموي[٣]- وإن كان الأمراء الأمويون في الغالب يعتمدون على تلك البيوتات- إلا أن الجديد في الأمر أنه بعد إعلان الخلافة تحول نظام الحكم من صبغته السياسية الخالصة إلى صبغة ذات دلالات دينية، وبات في مقام أعلى سياسياً واجتماعياً وحوله تلك البيوتات المتنفذة بأمره.

وعليه يمكن القول إنه تكرست الطبقية في المجتمع الأندلسي بشكل جلي، إذ باتت هذه الطبقة (البيوتات) التي تدور في فلك الخلافة تتميز بالثراء والغنى[٤].

والطبقات الأخرى من بيوتات وبطون وفئات اجتماعية مختلفة تدور في أفلاك متفاوتة بعيدة عن الخلافة.

---

(١) ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص٤٦.

(٢) مثال على ذلك خطة الشرطة الوسطى والتي استحدثت في عهد الخليفة الناصر، وأول من تقلدها سعيد بن سعيد بن حُدير، وكانت تهتم بشؤون طبقة التجار والأعيان، وكان لصاحبها زي خاص يخلع عليه ليعرفه الناس، ابن حيان، **المقتبس**، شالميتا، ج٥، ص٢٥٢؛ ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص٢٠٢، للمزيد انظر: محمد عبدالوهاب خلاف، **تاريخ القضاء في الأندلس من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي**، ط١، (مصر: المؤسسة العربية الحديثة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م)، ص٤٧٨؛ سالم الخلف؛ **نظم الحكم**، ج٢، ص٨٦٨ و ما بعدها.

(٣) حول تلك البيوتات انظر: أدناه؛ ص١١٤.

(٤) لعل خير شاهد على ذلك هدية الوزير عبدالملك بن شهيد للخليفة الناصر، ولضخامة صنوفها اختلف المؤرخون في بعض تفاصيلها، وللاستدلال على عظمة الهدية قال المقري عنها: «هي هدية عظيمة الشأن، اشتهر ذكرها إلى الآن». المقري، **نفح**، ج١، ص٣٥٦-٣٥٧.

كذلك قام الخليفة عبدالرحمن الناصر بعدة إجراءات أخرى لإظهار عظمة الخلافة؛ مثل بنائه مدينة مستقلة عن قرطبة أطلق عليها اسم الزهراء (AlZahra)[(١)] بالغ في تزينها والإنفاق عليها حتى لامه القاضي منذر بن سعيد البلوطي (ت٣٥٥هـ/ ٩٦٦م)[(٢)] في إسرافه في أمر هذه المدينة[(٣)]، ويبدو أن الناصر كان يقصد من مثل تلك المظاهر والفخامة إعطاء حكمه هيبة وعظمة، وكذلك تخليداً لهذه الخلافة بدليل قصيدة تنسب له يقول فيها:

همـــم الملـــوك إذا أرادوا ذكرهـــا   مـــن بعـــدهم فبألـــسن البنيـــان

أومـــا تـــرى الهـــرمين قـــد بقيـــا   وكـــم ملـــك محـــاه حـــوادث الأزمـــان

إن البنـــاء إذا تعـــاظم شـــأنها   ضـــحى يـــدل عـــلى عظـــيم الـــشأن[(٤)]

---

(١) الزهراء Al Zahra: بناها عبد الرحمن الناصر على بعد حوالي خمسة أميال إلى الشمال الغربي من قرطبة عام ٣٢٥هـ/ ٩٣٦م، واستمر البناء في عهد الخليفة الحكم المستنصر بالله، وتم الانتهاء منه سنة ٣٦٥هـ/ ٩٧٦م. لم تعمر المدينة طويلاً إذ نالها الخراب بعد سقوط الخلافة بقرطبة، ومع ذلك بقيت بعض آثارها إلى اليوم. الحميري، **الروض**، ص٢٩٥؛ المقري، **نفح**، ج١، ص٥٦٧، السيد سالم، **تاريخ المسلمين**، ص٤٠٧-٤١١؛ وانظر: أدناه لبقايا صور حديثة لتلك المدينة من تصوير الباحث؛ص٢٢١.

(٢) أبو الحكم؛ منذر بن سعيد البلوطي، منسوب إلى موضع قريب من قرطبة، يسمى فحص البلوط، كما يقال له الكزني نسبه إلى فخذ من البربر اسمه كزنة، ولي قضاء الجماعة بقرطبة في عهد عبدالرحمن (الناصر). كان عالماً فقيهاً، أديباً بليغاً، خطيباً على المنابر، كان يميل إلى القول بالظاهر، ومن مصنفاته كتاب "الإنباه على استنباط الأحكام من كتاب الله"، وكتاب "الإبانة عن حقائق أصول الديانة". ابن الفرضي، **تاريخ**، ج٢، ص١٢٧؛ الحميدي، **جذوة**، ص٣٣٩؛ الفتح بن خاقان **مطمح**، ص١١٢؛ الضبي؛ **بغية**، ص٤٣١.

(٣) الفتح، **المطمح**، ص١١٦؛ المقري، **نفح**، ج١، ص٥٧٠.

(٤) المقري، **نفح**، ج١، ص٥٧٥.

ويدلل على هذه السياسة التي انتهجها الناصر أنه قسم الجباية من أجل النفقة إلى ثلاثة أثلاث : ثلث لنفقة الجيش وثلث للبناء والمنشآت العامة، وثلث إدخره للطوارئ(١).

وعلى منوال الأمويين سار العامريون في بناء مدينة عظيمة تنافس الزهراء وأسموها الزاهرة (Al Zahrh)(٢)، ولعل مثل هذه الأعمال تكرس مفهوم الطبقية. ويمكن ملاحظة هذا الأمر كذلك في التنظيمات الرسمية في مجالس الخلافة ففيها يتم إنزال الناس حسب طبقاتهم وقربهم من الخلافة، ووفق مراتبهم الوظيفية، وتتم عادة تلك المراسم بإظهار كثير من الفخامة والمهابة، وفي ذلك لمّح الشاعر يوسف الرمادي (ت٤٠٣هـ/ ١٠١٢م)(٣)، بذكره في بعض غزله لموكب استقبال ابني حمدون(٤)من قبل الخليفة المستنصر فقال:

---

(١) ابن عذاري، **البيان،** ج٢، ص٢٣١؛ ابن الكردبوس؛ عبدالملك بن التوزري، **الاكتفاء في أخبار الخلفاء،** تحقيق صالح عبدالله الغامدي، (المدينة: الجامعة الإسلامية، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م)، ج١، ص١٢٠٨؛ محمد عنان، **تاريخ الإسلام،** ج٢. ص٤٤٧.

(٢) الزاهرة Al Zahrh: تقع شرقي قرطبة، بدأ البناء فيها عام ٣٦٨هـ / ٩٧٨م على نهر الوادي الكبيربأمر من الحاجب محمد بن أبي عامر، والذي توسع في اختطاطها، وبالغ في رفع أسوارها، وانتقل إليها سنة ٣٧٠هـ/ ٩٨٠م، ونزلها بخاصته وعامته، وشحنها بأسلحته وأمواله. ابن عذاري، **البيان،** ج٢، ص٤١٠؛ الحميري، **الروض،** ص٢٨٣_٢٨٤؛ المقري، **نفح،** ج١، ص٥٧٨، السيد سالم، **تاريخ المسلمين،** ص٣٣٢، فون شاك، **الفن العربي في إسبانيا وصقلية،** ترجمة الطاهر مكي، (مصر: دار المعارف، د.ت)، ص٤٧-٤٩.

(٣) أبوعمر؛ يوسف بن هارون الكندي الرمادي، أصله من رمادة، وولد بقرطبة، كثير الشعر، حتى قيل، فتح الشعر بكندة وختم بكندة. توفي فيها سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م. الحميدي، **جذوة،** ص٣٥٨، ياقوت؛ شهاب الدين بن عبدالله الحموي، **معجم الأدباء،** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م)، ج٥، ص٦٥٠.

(٤) هما جعفر ويحيى أبناء علي بن حمدون، من زعماء زناتة، كانا يقيمان في عدوة المغرب. ابن عذاري، **البيان،** ج٢، ص٢٧٨.

ولقد عجبت لفعلة المستنصر إذ أكثف الجيش اللّهام لجعفر
ولو أن من أهواه يُبرز وجهه قامت لواحظه مقام العسكر[١]

والملاحظ في ترتيبات تلك المراسم أن الوزراء قُدِموا في تلك المجالس على القضاة وأصحاب الخطط الدينية الأخرى[٢].

ويمكن القول إن الفجوة اتسعت بين الخليفة وبين بعض الطبقات الاجتماعية، وربما فطن محمد بن أبي عامر لهذا الأمر في بداية بروزه السياسي حينما كان وكيلاً لولي عهد الخليفة الحكم المستنصر فتقرب للناس وسهل وصولهم إليه، وفتح داره لهم بشكل كبير، وفي ذلك يفصل ابن عذاري بقوله: «احتاج الناس إليه وغشوا بابه، فأنساهم من سلف من أصحاب السلطان سعة إسعاف، وكرم لقاء، وسهولة حجاب، وحُسن أخلاق، فعرض جاهُه، وعُمر بابه واتسع في بناء داره بالرصافة وكانت مائدته موضوعة لمن ينتاب داره»[٣].

إن عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر يعتبر تحولاً كبيراً في الحياة الأندلسية إذ باتت الأندلس أكثر استقراراً من الناحية السياسية والاقتصادية وحتى الاجتماعية، إذ اختفت الصراعات القبلية والعرقية بشكل واضح، وبرز شعور إقليمي أندلسي -إن صح التعبير- وبرزت الشخصية الأندلسية بشكل جلي، ساعد على ذلك أيضاً استمرار عهد الرخاء الأندلسي بتولي الخلافة الحكم (المستنصر بالله) خلفاً للناصر إذ تعتبر شخصية الحكم -إضافة إلى قدراته السياسية والإدارية- تمتلك أبعاداً ثقافية جعلت الأندلس تعيش أزهى عصورها، وشهدت فترة خلافته التي امتدت لستة عشر عاماً نشاطاً علمياً كبيراً، وكان لهذا النشاط العلمي انعكاساته على الحياة الاجتماعية في الأندلس[٤].

---

(١) ابن حيان، **المقتبس**، هواري، ص٣٩.

(٢) ابن حيان، **المقتبس**، هواري، ص١٥٥.

(٣) ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص٢٥٨.

(٤) انظر: تفاصيل ذلك أدناه؛ ص٩٣.

وبعد وفاة الخليفة الحكم، وتولي العامريين للسلطة فعلياً في الأندلس، أصبح هذا الحدث يعتبر نقطة تحول أخرى في الحياة الأندلسية؛ إذ لم تكن التغيرات التي أحدثها العامريون تشمل النظام السياسي وحده، بل تجاوزت ذلك لتشمل شتى المجالات، الاقتصادية والعسكرية وحتى الاجتماعية(١)، وكان لهذه التغيرات أثر بعيد على ذلك النظام لا سيما في الشأن الاجتماعي، إذ إن النظام السياسي العامري أربك التركيبة الاجتماعية لقرطبة -تحديداً- بدخول عناصر عرقية جديدة من بربر وصقالبة وسودان وغيرهم -إبان هذا النظام- ويبدو أن الزعيم العامري محمد بن أبي عامر قصد من ذلك الأمر لخدمة مشروعه؛ إذ رأى في الأسر العربية العريقة المتنفذة في قرطبة عائقاً يقف في سبيل مشاريعه، فرأى أن يعتمد على قوى خارجية يستعين بها على مواجهة خصومه وأعدائه في الداخل، فوجد في بربر المغرب-بشكل أكثر- خير من يعينه على مشاريعه إذ استجلب منهم أعداداً كبيرة، وكون بهم جيشاً تحت لوائه(٢)، ويبدو أن أبناءه ساروا من بعده على نفس سياسته؛ يؤكد ذلك الأمير الزيري عبدالله في مذكراته، حيث ذكر استجلاب العامريين رؤساء البربر وحماتها وأنجادها ممن بلغهم فروسيته وشدته(٣).

هذه الموجات الجديدة والكثيفة من العناصر البربرية الداخلة للأندلس بمساعدة وطلب من العامريين؛ أزعجت وأغضبت بعض طبقات السكان الأصليين، ومن الممكن القول إن

---

(١) حول تلك التغيرات انظر: فوزي بن عناد القبوري العتيبي، **فقهاء الأندلس والمشروع العامري٣٦٧-٣٩٩هـ/ ٩٧٨-١٠٠٩م**، (الرياض: دار كنوز إشبيليا، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م)، ص٤٩-١١٦.

(٢) ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص٢٧٩؛ عبدالجليل عبد الرضا الراشد، (دور البربر في سقوط الدولة الأموية في الأندلس)، **مجلة المؤرخ العربي**، بغداد، المجلد الثالث، العدد الثالث، ١٩٧٥م، ص٨٣.

(٣) ابن زيري، عبدالله بن بلقين، **التبيان، مذكرات الأمير عبدالله**، تحقيق ليفي بروفنسال، (مصر: دار المعارف، د.ت)، ص١٦.

مثل هذه الأعمال أحدثت شرخاً عميقاً في العلاقة بين الأندلسيين من جهة والسلطة الحاكمة ومن يدور في فلكها خاصة تلك العناصر الطارئة من جهة أخرى، إضافة إلى أنها غذت التعصب الإقليمي الأندلسي-إن صح التعبير - بدليل أنه صار هدف القرطبيين إبعاد تلك العناصر الطارئة عن مدينتهم كهدف رئيس، وحتى بعد أن أسقطوا العامريين وأنهوا حكمهم، استمر القرطبيون في حربهم ضد تلك العناصر الطارئة بغض النظر عمّن يحكم قرطبة حتى لو خالفهم من الناحية العقدية (الأيديولوجية)، المهم أن يعلن عداءه لتلك العناصر، ولعل خير مثال على ذلك أنهم لم يمانعوا في تولي شخص علوي النسب هو علي بن حمود (٤٠٧هـ/ ١٠١٦م)[١] ؛ وذلك لأنه أظهر كتاباً على لسان الخليفة هشام (المؤيد بالله) يطلب منه إنقاذه من أسر البرابر وصاحبهم المستعين، وجعل جائزة ذلك ولاية العهد من بعده[٢]. وفعلاً تم لعلي بن حمود مراده، واستطاع أن يحكم قرطبة ويتولى الخلافة، وأظهر كرهاً للبربر وعنفاً في معاملتهم[٣]، لكن ابن حمود غيّر السياسة تلك وبدأ في محاباة البربر مما اضطر القرطبيين لإظهار العداء ومقاتلته وإسقاط حكمه، وظل ينتقل الحكم من العلويين إلى الأمويين حتى قرر القرطبيون في النهاية إنهاء رسم الخلافة، وتولي الأمر واحد منهم بغض النظر عن نسبه وقبيلته، فكان اختيارهم لرئاسة ذلك المجلس لرجلٍ من الموالي هو أبو الحزم

(١) هو علي بن حمود من أولاد الحسن بن علي تولى الخلافة في قرطبة عام٤٠٧هـ/ ١٠١٦م وكان سنه أربع وخمسون عاماً. ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص١١٩-١٢٠. وللمزيد حول هذه الأسرة وحكمها للأندلس انظر: لويس سيكو دي لوثينا، **الحموديون سادة مالقة والجزيرة الخضراء**، ترجمة عدنان محمد آل طعمة، (دمشق: دار سعد الدين، ١٩٩٢م)، ص١٨ وما بعدها.

(٢) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص١١٦.

(٣) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص١٢١.

جهور بن محمد عام ٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م[1].

وعليه فمن الممكن القول إن القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي شهد العديد من المظاهر السياسية المختلفة كإعلان الخلافة الأموية في بدايات هذا القرن وتحت عباءة الخلافة ظهرت ظاهرة الحجابة العامرية التي ظلت تدور في فلك الخلافة الأموية بعد منتصف القرن نفسه، بينما شهد العقد الأول من القرن الذي تلاه ظاهرة الخلافة العلوية قبل أن يستقر الرأي على حكم الجماعة في نهاية المطاف وإلغاء الخلافة الأموية.

إن مثل تلك الظواهر والتقلبات السياسية المتعاقبة تؤثر تأثيراً كبيراً في الجوانب الاجتماعية تحديداً من حيث الاستقرار الاجتماعي والنفسي والمالي للأسر الأندلسية وفي المزاج العام الأندلسي الذي بدأ يميل للثورة مرة أخرى بعد قرن كامل ساد في معظمه الاستقرار والرخاء.

ثانياً: المسبب الاجتماعي:

مرت الأندلس منذ منتصف القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي بثورات وفتن كانت نتائجها وخيمة على الأندلس لما أنتجته من مذابح عديدة ومؤلمة، وهذا بدوره ألقى بظلاله على الأوضاع الاجتماعية فيها، إذ أثر ذلك على التركيبة السكانية لبعض المدن والمناطق الأندلسية، إضافة إلى إضعاف بعض الشرائح الاجتماعية كالمولدين مثلاً، وهذا -ربما- ما جعل تلك الشرائح الاجتماعية الثائرة تميل إلى الدعة بعد طول الفتن من دون نتائج على الأرض.

في المقابل خرجت قرطبة من تلك الصراعات أكثر تماسكاً على الأقل من الناحية الاجتماعية، وبرزت شخصيتها الأندلسية أكثر من أي وقت مضى خصوصاً بعدما اعتلى قمة

---

(١) أبو الحزم؛ جهور بن محمد بن جهور، من بيت وزارة، قال ابن حيان عن اختياره لتدبير شؤون قرطبة: «فأعطوا منه قوس السياسة باريها، وولوا من الجماعة أمينها المأمون عليها». توفي سنة ٤٣٥هـ/ ١٠٤٣م. الحميدي، **جذوة**، ص١٨٦؛ ابن بسام، علي الشنتريني، **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، تحقيق إحسان عباس، ط١، (لبنان: دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٠م)، ق١، ج٢، ص٤٦١-٤٦٣.

رأس هرم السلطة فيها الخليفة عبدالرحمن الناصر، ولعل هذه الظروف من الأسباب المهمة التي ساعدت الناصر في إعادة تشكيل الأندلس سياسياً تحت سلطته، وباتت البلاد تنعم في عهده بالاستقرار والرخاء.

إن هذا الاستقرار التي شهدته قرطبة خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي جعل منها مدينة جاذبة للسكان، سواء من داخل الأندلس أو من خارجها، وهذا بدوره أدى إلى تضخم سكاني واضح فيها خصوصاً في طبقة العامة[1]، وارتبط الكثير منهم بمكان رزقه وسكنه، وبات ولاؤه للمكان أكثر من القبيلة والعرق، وهذا في المقابل أدى إلى اضمحلال واضح للعصبية القبلية والعرقية خلال هذا القرن، ومن الممكن أن نستشف ذلك من أسماء كثير من أصحاب التراجم الأندلسية التي تنسب إلى مكان استقرارها وصنعتها أكثر من نسبها لقبيلتها أو لجنسها[2]. ولعل من أسباب ذلك ما يعود أيضاً إلى عملية التزاوج -مع العناصر الأجنبية- المستمرة بين المسلمين والسكان الأصليين خلال الحقب الماضية، ومن يقرأ صفات الخلفاء الأمويين في المصادر الأندلسية يجد نتاج تلك المصاهرات ظاهراً في

---

(١) من الممكن أن ندلل على ذلك بالقول إنه إبان الثورة على العامريين كان معظم جيش المهدي من العامة وقد استطاعوا إسقاط العامريين بسهولة والدخول في أكثر من نزال مع البربر ومن عاونهم من نصارى الشمال، وكذلك يمكن الاستدلال على التضخم السكاني الكبير التي شهدته قرطبة من خلال الأرقام المخيفة التي تذكرها المصادر لعمليات القتل والتصفية التي حدثت في قرطبة بعد سقوط العامريين؛ إذ تؤكد بعض المصادر أن عدد قتلى قرطبة نيف على الثلاثين ألفاً حينما دخل المستعين والبربر بمساعدة النصارى إلى قرطبة، وهذا يؤكد كذلك على أن النسبة السكانية كانت مرتفعة في قرطبة وقتئذ. ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٨٣. وللمزيد انظر: أدناه؛ ص١١٧.

(٢) انظر: مثلاً؛ تراجم أرقام؛ (١١)، (١٤)، (٢٤)، (٣٥)، (٣٨)، (٣٩)، (٥٣)، (٥٧)، (٦٠)، (٦١)، (٧٢)عند الحميدي، **جذوة**.

وصف ملامحهم الشخصية[١]، ويؤكد ابن حزم هذا الأمر بقوله: «وأما جماعة خلفاء بني مروان-رحمهم الله-ولا سيما ولد الناصر منهم، فكلهم مجبولون على تفضيل الشقرة، لا يختلف في ذلك منهم مختلف، وقد رأيناهم ورأينا من رآهم من لدن دولة الناصر إلى الآن فما منهم إلا أشقر، نزاعاً إلى أمهاتهم، حتى قد صار ذلك فيهم خلقةً..»[٢].

أضف إلى أن الأندلس شهدت زمن عبدالرحمن (الناصر) والحكم (المستنصر بالله) ومحمد بن أبي عامر (المنصور) وابنه عبدالملك (المظفر) تفوقاً سياسياً وعسكرياً في صراعها مع الممالك النصرانية في الشمال، وكان لهذا التفوق وقعه على الشأن الاجتماعي؛ فعدد السبايا كثر بسبب الانتصارات المتتالية[٣]، ولا ريب أن تلك العناصر تؤثر بطريقة أو أخرى على ثقافة المجتمع واهتماماته حتى باتت مطلب الكثير من الأندلسيين بدليل أنهم لم يكونوا راضين بالسبي الذي جلبه المظفر عبدالملك وقارنوه بما كان يجلبه والده المنصور بن أبي عامر من السبي؛ لذا صرخوا قائلين: «مات الجلاب.. مات الجلاب» يقصدون المنصور، وهذا ما أغضب المظفر -رغم ما عرف عنه من حِلْم- من هذا الوصف لوالده؛ لذا زجرهم ونهاهم عنه[٤].

---

(١) مثلاً الخليفة عبدالرحمن (الناصر) كان أبيض، ربعة، أشهل، والخليفة الحكم كان أبيض مشرب بالحمرة، وهشام ابنه كان أبيض أشهل، تميل لحيته إلى الحمرة، ومحمد (المهدي) بن هشام أبيض، أشقر، أشهل، وعبدالرحمن (المستظهر بالله) بن هشام أبيض، أشقر. ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص١٥٦؛ ص٢٣٣؛ ص٢٥٣؛ ج٣؛ ص٥٠؛ص١٣٥-١٣٦.

(٢) ابن حزم، **طوق الحمامة في الألفة والألاف**، **رسائل ابن حزم**، ج١، ص١٣٠-١٣١.

(٣) فمثلاً؛ وصل عدد السبي في إحدى الغزوات إلى أكثر من ثلاثمائة من النساء والذراري، وألف سبية زمن الناصر، بينما وصل زمن العامريين السبي-في إحدى المرات- أكثر من خمسة آلاف.ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص٢١٧؛ج٣، ص٨.

(٤) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص١٣.

وعليه يمكن القول إنه كان هناك تآكل في العصبية القبلية والعرقية وبروز عصبية جديدة هي العصبية الأندلسية التي باتت واضحة قبيل نهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، ولعل الذي ساعد على تكريسها والتعصب لها هو توجه العامريين في سياساتهم التي سعوا من خلالها لخدمة مشروعهم-كما أشرنا- فأكثروا من استقدام عناصر طارئة من بربر وصقالبة وسودان، وربما فطن زعيم العامريين محمد بن أبي عامر لخطورة هذا الأمر إذا لم يكن له ضابط، لذا كان حذراً في عملية استقطابه لتلك العناصر خصوصاً مع القبائل البربرية، إذ حاول تفادي عبور رؤساء تلك القبائل من الذين يملكون شهرة ومكانة وسط قومهم[١]، ربما خشي المنصور من منافسة هؤلاء الزعماء له في الأندلس أو التفاف الناس حولهم وتشكيل كيانات داخل الدولة مما يصعب عليه بعد ذلك الخلاص منهم، لذا تفادى دخول الأمير زاوي بن زيري الصنهاجي[٢] إلى الأندلس. لكن تلك السياسية الحذرة لم يتقيد بها خلفه عبدالملك (المظفر) رغم ما عرف عنه من حرصه الشديد باتباع سياسات والده، ومع ذلك سمح لزيري بدخول الأندلس ومنحه الوزارة وعلق ابن حيان على هذا الأمر بقوله: «وطلب السمعة باستخدام مثله فأدخله بمن معه من إخوته..»[٣]. وقد بانت مطامعه بعد

---

(١) ابن بسام، **الذخيرة**، ق٤، ج٧، ص٥٩.

(٢) أبومثنى؛ زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي، قال عنه ابن الخطيب: «كان ليث الحروب، وفل الوقائع، ورجل القبيل قاطبة دهاءً وحزماً وحصافة..». كانت له أدوار كبيرة في الأحداث التي أعقبت سقوط العامريين، ثمقرر ترك الأندلس والخروج منها إلى المغرب عام ٤٢٠هـ/ ١٠٢٨م. ابن زيري، **التبيان**، ص١٦؛ ابن الخطيب، **أعمال**، ج٢، ص٢٢٨ومابعدها؛ الإيلاني؛صالح بن عبدالحليم، **مفاخر البربر**، تحقيق عبدالقادر بوباية، (الرباط: دار قراقر، ٢٠٠٨م)، ص١٩٧.

(٣) ابن بسام، **الذخيرة**، ق٤، ج٧، ص٥٩.

ذلك حينما استحقر الوزارة وكان مطمعه الإمارة[١]. بل كان أحد أطراف النزاع في قرطبة- بعد سقوط العامريين- وحوله التفت قبائل البربر[٢].

وعليه فقد باتت تلك العناصر الطارئة تشكل طبقة عسكرية غير منسجمة مع الأندلسيين الذين باتوا أكثر مدنية وتحضراً من هؤلاء الطارئين، خاصة بعد أن هجر الكثير من الأندلسيين حياة العسكرية بعدما سمح لهم النظام العامري بذلك، فقد أعفاهم من الانخراط في الجيش بشكل إجباري، فتفرغ الأندلسيون لحياتهم المدنية وتعصبوا لها بدليل أنهم رفضوا اندماج تلك العناصر الطارئة في مجتمعهم، واعتبروهم عناصر غريبة ومهددة لوجودهم؛ أدى هذا الأمر في النهاية إلى نشوب حروب سافرة وفتن مقيتة بينهم حتى سمى الأندلسيون تلك الفتن باسم ذات مدلول طبقي (الفتنة البربرية)[٣] نسبه لهؤلاء الغرباء عنهم.

ثالثاً: المسبب العسكري:

شهد القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي في فترات مختلفة عدة إجراءات عسكرية سواء زمن الناصر وابنه الحكم أو زمن العامريين، وكان لتلك الإجراءات وقعها على الشأن الاجتماعي، فهؤلاء الخلفاء والحكام استعانوا بعناصر أجنبية في الجيش بدرجاتٍ متفاوتة، واستحدثوا أنظمة جديدة في القطاع العسكري أثرت بشكل مباشر في التركيبة الاجتماعية الأندلسية.

ولنأخذ الخطوات العملية لتلك الإجراءات بداية من هذا القرن؛ فعبدالرحمن(الناصر) كان حذراً في مسألة الاستعانة بالعناصر الأجنبية كالبربر والصقالبة في جيشه، وكان يهتم في نوعية تلك الاستعانة لا بحجمها، وقد حرص في مشاركتهم في الشأن العسكري على عدم اختلاط تلك العناصر الطارئة مع جيشه الأندلسي خاصة تلك العناصر القادمة من المغرب،

---

(١) ابن سماك، محمد بن أبي العلاء محمد بن سماك العاملي، **الزهرات المنثورة في نكت الأخبار المأثورة**، تحقيق محمود علي مكي، ط١، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م)، ص١٢٦_١٢٧.

(٢) للمزيد انظر: أدناه، ص١٩٤.

(٣) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٧٦.

إذ وضع لهم اسم خاص بهم وهو (الطنجيين)، كذلك حاول جلب ما تقتضيه الحاجة لجيشه منهم مستبعداً رؤساءهم وأشياخهم[١].

أما خلفه الخليفة الحكم (المستنصر بالله) ففي بداية حكمه لم يكن يحبذ الاستعانة ببربر المغرب تحديداً؛ إلا أن هذه السياسة تغيرت في أواخر فترة حكمه، ويبدو أن سبب ذلك يرجع إلى خشية الحكم (المستنصر بالله) من تأثير تلك العناصر على ثقافة وتقاليد المجتمع الأندلسي، خاصة أنه عُرف عن هذا الخليفة نزعة عربية؛ فقد ذكر بعض المؤرخين أنه كان مهتماً بعلم الأنساب، حريصاً على المحافظة على أنساب العرب وإلحاق من درس نسبه أو جهله بقبيلته[٢]، ولعل ما يدعم هذا الرأي ذكر ابن حيان أن الحكم بلغ في مجافاته للبربر أنه كان ينهى غلمانه ومواليه وأجناده من التشبه بالبربر في زيهم وملابسهم ومراكبهم؛ وحينما شاهد الحكم أثناء موكب له بالزهراء أحد غلمانه يستخدم لفرسه سرجاً مغربي الصنعة؛ وبخ حاجبه جعفر الصقلبي[٣] لغفلته عن هذا الأمر، وأمر بمعاقبة الغلام، وإحراق السرج بدار الجند بمشاهدة من حضر[٤].

ويبدو أن تراجع الخليفة الحكم (المستنصر بالله) عن تلك السياسة بعد ذلك؛ يرجع لتداعيات سياسية وعسكرية؛ كصراعه مع العبيديين الشيعة الإسماعيلية في المغرب، ومحاولته

---

(١) ابن حيان، **المقتبس**، هواري، ص١٤٨؛ محمد عبدالوهاب خلاف "رؤية جديدة لأسباب سقوط الخلافة الأموية في الأندلس"، **المجلة العربية للعلوم الإنسانية**، الكويت، جامعة الكويت، العدد ٦، ١٩٨٢م، ص٣٢.

(٢) ابن الأبار، **الحلة**، ص١١٧.

(٣) جعفر بن عثمان بن عبد الرحمن الصقلبي؛ حاجب الخليفة الحكم، وسيف دولته، عينه الخليفة الحكم حاجباً له في اليوم الثاني من خلافته في الرابع من رمضان سنة ٣٥٠هـ/ ٩٦١م . كان جعفر الصقلبي يتمتع بمكانة مميزة؛ إذ ذكر ابن حيان أنه كانت له دار جليلة القدر بالقرب من قصر الخليفة الحكم، في المصاف الغربي لمدينة الزهراء، وأنه نقل إليها الفتى فائق الصقلبي تنويهاً لمكانته وتشريفاً له، عندما اعتلت منزلته لديه. كذلك كان لجعفر الصقلبي عبيد يتخير منهم للخدمة الرسمية لدى الخليفة، انظر: للإشارات المقتضبة والمبعثرة عنه عند ابن حيان، **المقتبس**، هواري، ص٤٨، ص٣٥؛ ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص٢٣٤؛ المقري، **نفح**، ، ج٢، ص١٨-١٩.

(٤) ابن حيان، **المقتبس**، هواري، ص١٤٨؛ خلاف، **رؤية جديدة**، ص٣٢.

كسب ود بربر المغرب وجذبهم إليه بطريقة سلمية من جهة، وإثارة الفرقة بينهم من جهة أخرى، خصوصاً بعد مقتل بعض قادته هناك[١]، وخسائره الكبيرة في صراعه مع المغرب؛ لذا ربما رأى الحكم أنه لا طائل من عداوته تلك، ففكر في استمالة البربر إليه، ونسيان الحروب والعدوات السابقة معهم، فألحقهم بجنده وأجزل لهم العطاء. ويبدو أنهم حازوا على رضا الخليفة الحكم وأعجب بما يمتلكونه من مهارات وفنون لذا قال عنهم حينما شاهدهم في أحد المرات أثناء توزيع الأعطيات؛ لمن حوله: «انظر إلى انطباع هؤلاء القوم على خيولهم فكأنهم الذين عناهم الشاعر بقوله:

فكأنما وُلِدتْ قياماً تحتهم وكأنّهم وُلِدوا على صَهواتها[٢]

وذهب الخليفة الحكم لأبعد من ذلك في مسألة الاستعانة بالعناصر البربرية حينما استعان ببني برزال[٣] البربر في جيشه رغم كونهم خوارج إباضية[٤]، والمعروف أن الحكم كان

---

(١) انظر: ابن أبي زرع، علي الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، (الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة، ١٩٧٢م)، ص٩١؛ الناصري؛ شهاب الدين أحمد بن خالد، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، اعتنى به محمد عثمان، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٨م)، ص١٥٨.

(٢) ابن حيان، **المقتبس**، هواري، ص١٩٣؛ خلاف، **رؤية جديدة**، ص٣٣.

(٣) بنو برزال: ينتمون إلى قبيلة زناتة من بني يفرن البربرية، ويعتنقون المذهب الإباضي، كانوا يسكنون في الزاب الأسفل من إفريقية، ويتصفون بالشجاعة والشدة في الحروب، لذا حينما وصفوا للخليفة الحكم المستنصر بالله أرسل بمكاتبتهم للدخول ضمن جنده، ثم ضاعف محمد بن أبي عامر أعدادهم في جيشه، وشجعهم على الهجرة إلى الأندلس واستعملهم في الأعمال والولايات المهمة. وبعد سقوط الخلافة الأموية في الأندلس، أقاموا لهم إمارة في قرمونة. ابن حزم، **جمهرة**، ص٤٩٨؛ ابن بسام، **الذخيرة**، ق٢، ج١، ص٢١؛ الإيلاني، **مفاخر**، ص١٤٥؛ ابن خلدون، **تاريخ**، ج٢، ص٢٧٣٢، وللمزيد حول بني برزال؛ انظر: ، حمدي عبدالمنعم محمد حسين، **دراسات في التاريخ الأندلسي "دولة بني برزال في قرمونة" ٤٠٤-٤٥٩هـ/ ١٠١٣-١٠٦٧م**)، (الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٩٠م).

(٤) ابن حزم، **جمهرة**، ص٤٩٨، وذكر ابن حيان و ابن خلدون أنهم نكارية من فرق الإباضية؛ ابن حيان، **المقتبس**، هواري، ص١٥٠؛ ابن خلدون، **تاريخ**، ج٢، ص٢٧٣٢.

متمسكاً بمذهب الإمام مالك[١]، ويظهر أن الخليفة الحكم كان يريد تشكيل قوة عسكرية تكون تحت إمرة ابنه وولي عهده هشام إذا ما وافته المنية دون أن يبلغ ولي عهده سناً تمكنه من إدارة شؤون البلاد بنفسه، ولقد أثبت بنو برزال أهميتهم العسكرية بدليل أن بعض القوى السياسية -بعد وفاة الخليفة الحكم- تنافست للفوز بهم وجعلهم من خاصتهم[٢]. ويبدو أن هذه الفرقة العسكرية بقي تأثيرها في محيطها العسكري؛ أي أنها لم تؤثر من ناحية معتقدها على الوسط الاجتماعي الأندلسي إذ لم نشهد لهم أي نشاط ملحوظ في هذا الجانب.

وبعد وفاة الخليفة الحكم وتولي العامريين السلطة حصلت نقلة نوعية في القطاع العسكري أثرت بدورها بشكل جلي في الواقع الاجتماعي الأندلسي، فالحاجب محمد بن أبي عامر حاول إحداث تغيرات جذرية في البنية الأساسية للجيش الأندلسي؛ فاستكثر من بربر المغرب[٣]، وسمح بمشاركة عناصر نصرانية[٤]، ويبدو أنه كان يرمي من وراء ذلك إلى إزالة العصبية الجنسية في جيشه[٥]، ولعل ما يؤكد ذلك أيضاً قيامه بتفريق جند القبيلة العربية الواحدة بعد أن كانوا من قبل ينتظمون في صف واحد[٦]، وكان النظام المعمول له في الجيش

---

(١) مثلاً رسالته لأحد قضاته يحذره فيها بعدم الإفتاء بغير مذهب الإمام مالك: «بلغني أن قوماً يفتون بغير مذهب مالك بن أنس، وأنهم يرخصون في الطلاق... وكل من زاغ عن مذهب مالك بن أنس، فإنه ممن رين على قلبه، وزين له سوء عمله..».انظر: ابن سهل، **ديوان**، ص٧٢٣؛الونشريسي، أحمد بن يحيى، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء أفريقية والأندلس والمغرب**، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، ط١٣ (تونس: دار الغرب الإسلامي، ٢٠١٣م)، ج١١، ص٣٧٦.

(٢) للمزيد انظر: فوزي العتيبي، **فقهاء الأندلس**، ص٤٠ وما بعدها.

(٣) ابن زيري، **التبيان**، ص١٦.

(٤) ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص٢٩٥.

(٥) السيد سالم، **تاريخ المسلمين**، ص٣٦٧.

(٦) ابن خلدون، **تاريخ**، ج١، ص١٥٤٠؛سحر عبدالمجيد مناور المجالي، **تطور الجيش العربي في الأندلس ١٣٨-٤٢٢هـ/ ٧٥٦-١٠٣١م** (عمان:المكتبة الوطنية، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م)، ص٩١.

الأندلسي -قبل ذلك- أن الفرق العسكرية تنضوي تحت لواء زعيم من زعماء القبائل، وتضم تلك الفرقة أبناء وموالي كل قبيلة، وفي ذلك قال بعض المؤرخين: «وكان عرب الأندلس يتميزون بالقبائل والعمائر والبطون والأفخاذ، إلى أن قطع ذلك المنصور بن أبي عامر الداهية الذي ملك الأندلس، وقصد بذلك تشتيتهم وقطع التحامهم وتعصّبهم في الاعتزاء، وقدم القواد على الأجناد، فيكون في جند القائد الواحد فرق من كل قبيل..»(١). ويرى بيير غيشار أن هدف المنصور من هذا الإجراء هو تحطيم الإطار القبلي العشائري التقليدي للجندي العربي الأندلسي(٢).

ويبدو أن تلك السياسة قد أغضبت بعض القبائل العربية إذ رأوا فيها تهميشاً لمكانتهم بالاعتماد على عناصر أخرى؛ خصوصاً البربر الطارئين من المغرب، وفي ذلك قالت بعض المصادر أن المنصور: « أذل قبائل الأندلس بإجازة البربر، وأخمل بهم أولئك الأعلام الأكابر، فإنه قاومهم بأضدادهم، واستكثر من أعدادهم حتى تغلبوا على الجمهور وسلبوا منهم الظهور..»(٣). وذكر ابن خلدون أنه بتأخير ابن أبي عامر لرجال العرب وإسقاطهم عن مراتبهم تم له ما أراد من الاستقلال بالملك والاستبداد بالأمر(٤). ويبدو أن هذا الأمر أحدث شرخاً في العلاقة ما بين الجيش المستحدث كمؤسسة عسكرية تدور في فلك السلطة العامرية وبين أهل الأندلس لاسيما أهل قرطبة، وحول هذا الأمر قال السيد سالم: «وظلت هذه

---

(١) المقري، **نفح**، ج١، ص٢٩٣.

(٢) بيير غيشار، **التاريخ الاجتماعي لإسبانيا المسلمة من الفتح إلى نهاية حكم الموحدين (من بداية القرن الثامن إلى بداية القرن الثالث عشر، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس**، سلمى الجيوسي (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٨م) ج٢، ص٩٧٧.

(٣) ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص٢٧٤.

(٤) ابن خلدون، **تاريخ**، ج١، ص١٥٤٠؛ السيد سالم، **تاريخ المسلمين**، ص٣٣١.

الأحقاد كامنة في حياته -يقصد المنصور- وحياة ابنه المظفر ولكنها ظهرت بعد ذلك ظهوراً مدمراً في عهد ابنه عبد الرحمن شنجول، فكانت سبباً في اشتعال نار الفتنة بين أهل قرطبة والبربر وهي الفتنة التي أفضت إلى سقوط الخلافة الأموية، وانفراط عقدها»[١].

ويظهر أن المنصور محمد بن أبي عامر فطن لهذا الأمر، لذا حاول طبع هؤلاء البربر الجدد في جيشه بالطابع الأندلسي تمهيداً لإدماجهم في المجتمع الأندلسي، وعدم فرض ثقافتهم على الأندلسيين بل على العكس من ذلك، خصوصاً بعد هجراتهم المتتابعة إلى الأندلس؛ وفي ذلك ذكرت بعض المصادر أنه: «مازالوا يتلاحقون، وفرسانهم يتواترون يجيء الرجل منهم بلباس الخلق على الأعجف، فيُبدل له بلباس الخز الطرازيّ وغيره..»، وهذا الأمر بخلاف ما فعله ابن المنصور، عبدالرحمن (شنجول) حينما فرض على رجاله الأندلسيين أن يستبدلوا قلانسهم الطويلة المرقشة الملونة بالعمائم البربرية[٢]، ففعلوا مكرهين خوفاً من العقوبة التي وعدهم بها (شنجول) لمن لا يتقيد بهذا الأمر[٣]، وقد وصفت تلك المصادر منظر هؤلاء وازدراء الناس لهم ؛ مما جعلهم في أقبح صورة وأصبحوا في الناس فضيحة[٤].

على أية حال؛ فإن السياسة العسكرية التي اتبعها المنصور محمد بن أبي عامر في سلطته، جعلته يفتح المجال للمشاركة في الجهاد الأندلسي ضد الممالك النصرانية في الشمال، فانهال عليه عدد غير قليل من المجاهدين لاسيما من بربر المغرب، والذي يبدو أن بعضهم كسب ثقة المنصور فضمهم تحت لوائه، إذ ذكر ابن الأثير وفادة بني زيري سنة ٣٧٣هـ/ ٩٨٤م على ابن

---

(١) السيد سالم، **تاريخ المسلمين**، ص٣٦٨.

(٢) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٤٨.

(٣) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٤٨.

(٤) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٤٨.

أبي عامر وطلبهم المشاركة في الجهاد تحت إمرته، فسر بهم ابن أبي عامر ومدهم بالخيل والسلاح والأموال وبعث معهم دليلاً، فحققوا انتصارات كبيرة على العدو في الشمال[(١)].

وبعد وفاة المنصور بن أبي عامر سار ابنه عبد الملك (المظفر) على نهجه في استقبال البربر من العدوة واستخدامهم في جيشه، فقدم عليه من صنهاجة زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي وعدد من أفراد عشيرته، فاستقبلهم عبد الملك باحتفاء وأغدق عليهم من العطايا الشيء الكثير[(٢)].

ولم يقتصر تشجيع العامريين على إدخال البربر في الجيش الأندلسي؛ بل اتجهوا - أيضاً - إلى تطعيم الجيش بعناصر صقلبية، خصوصاً بعدما نجح ابن أبي عـــامر في بداية أمره في تجريد جوذر[(٣)]، وفائق[(٤)] مـــن خدمـــات أكثر من خمسمائة من الصقالبة ونجح في ضمهم

---

(١) ابن الأثير، **الكامل**، ج٧، ص٤١٣.

(٢) ابن بسام، **الذخيرة**، ق٤، ج٧، ص٥٩؛ السيد سالم، **تاريخ المسلمين**، ص٣٣٧.

(٣) جوذر الحكمي:فتى صقلبي خصي، صاحب الصاغة-أي متولي شئون الصياغة المتعلقة بصنع المجوهرات- والبيازة-وهو الذي يعهد إليه مهمة تربية وتدريب الصقور التي يستخدمها الخليفة في الصيد- ويعتبر جوذر من خواص الخليفة الحكم، وإليه مع صاحبه فائق يرجع أمر الغلمان الفحول خارج القصر، قُبض عليه وقتل بعد مشاركته في محاولة الانقلاب على ابن أبي عامر وقتل الخليفة هشام (المؤيد بالله).ابن الأبار، **الحلة**، ص١٥٨-١٥٩؛ ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص٢٥٩؛ كليليا سارنللي، **مجاهد العامري قائد الأسطول العربي في غرب البحر المتوسط في القرن الخامس الهجري**، ط١، (مصر: لجنة البيان العربي، ١٩٦١م)، ص١٧.

(٤) يعرف بالنظامي، صاحب البرد-أي متولي شئون البريد في القصر- والطراز في دولة الحكم المستنصر بالله، وهو من الفتيان الخصيان - أيضاً - وله يرجع أمر الغلمان الفحول خارج القصر، انتهى بهم المطاف بعد نكبة ابن أبي عامر للصقالبة إلى الجزائر الشرقية حيث مات هناك. ابن عذاري، **البيان**، ج٢،ص٢٦٣، كليليا سارنللي، **مجاهد العامري**، ص١٧.

إلى جانبه[١]، وقد استكثر المنصور بعد ذلك من هؤلاء الصقالبة، واعتمد عليهم وجعلهم فتياناً له، واتخذ فريقاً من هؤلاء الفتيان الصقالبة عرفوا بالخلفاء[٢]. وذكر بعض المؤرخين أن المنصور ابن أبي عامر هلك عن سبعة خلفاء[٣] من فتيانه الأكابر[٤]، وكان شأنهم في تلك الدولة كبيراً وهو ينوء بثقل كلفتهم الباهظة، فلما تولى ولده عبد الملك بعده الأمر، بلغ بهم ستة وعشرين خليفة فضاعف مؤونتهم أضعافاً كثيرة[٥].

ولعل من أبرز الإجراءات التي اتخذها العامريون في القطاع العسكري وكان لها تأثير عميق في الشأن الاجتماعي هي ما قام به المنصور محمد بن أبي عامر حينما نزع إقطاع الجند وعوضهم بدلاً عنه برواتب شهرية، ثم أعفى الرعية عن الغزو الإجباري، ليتفرغوا لإعمار أرضهم على أن يعطوه كل عام ما يقيم به الأجناد[٦]. وبذلك وفر المنصور دخلاً ثابتاً للجند،

---

(١) ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ٢٦٣؛ بينما ذكر ابن خلدون أن عدد الصقالبة يزيد عن الثمانمائة ؛، ابن خلدون، **تاريخ**، ج١، ص١٥٤٠.

(٢) ابن الخطيب، **أعمال**، ج٢، ص١٠٣؛ السيد سالم، **تاريخ المسلمين**، ص٣٣١.

(٣) يرى أحمد بدر أن سبب تسميتهم بالخلفاء، يرجع لأنهم كانوا جماعات يرأس كلاً منها واحد يدعى خليفة.أحمد بدر، **تاريخ الأندلس**، ج٢، ص٢٣٨.

(٤) ابن الخطيب، **أعمال**، ج٢، ص١٠٣.

(٥) يسرد ابن الخطيب قائمة طويلة من الفتيان الذين تولوا مناصب مهمة في النظام العامري كواضح الفتى قائد الثغر الأعلى، وزهير الفتى، وبشير، ونظيف ونجا، وشعله، ومظفر، وخيزران، ونصر، ونصير وغيرهم، ابن الخطيب، **أعمال**، ج٢، ص١٠٣-١٠٤.

(٦) الطرطوشي؛ محمد الوليد الفهري، **سراج الملوك**، تحقيق نعمان الصالح، (الرياض: العاذرية للنشر والتوزيع ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م)، ص٣٤٨؛ ابن رضوان المالقي، أبو القاسم، **الشهب اللامعة في السياسة النافعة**، تحقيق علي بن سامي النشار، ط١، (القاهرة: دار السلام، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م)، ص٣٣٤؛ عز الدين عمر موسى، **النشاط الاقتصادي في المغرب في القرن السادس**، (لبنان: دار الغرب، ١٤٢٤هـ)، ص١٤١.

مع توفير جو مناسب للمهتمين بالأراضي للعناية بأراضيهم وتفرغهم لذلك، على أن يدفعوا رسوماً معينة تصب في خزينة الدولة. وكان النظام المعمول به في الأندلس خلال العصر الأموي-قبل ذلك-يقوم على إقطاع الجند الأراضي[1]، ويبدو أن تلك السياسة التي تقوم على الإقطاع العسكري لم يرض عنها بعض أعيان الأندلس -فيما بعد- واعتبروها من أسباب ضعف الجند والعمارة على السواء؛ إذ ذكرت بعض المصادر تذمر هؤلاء من تلك السياسة وأنهم قالوا إن كان لهم الظهور والغلبة على عدوهم حينما كانت الأرض مقطعة في أيدي الأجناد، فكانوا يستغلونها، ويرفقون بالفلاحين، فكانت الأرض عامرة، والأموال وافرة وحينما غير تلك السياسة المنصور بن أبي عامر في أواخر حياته «فرد عطايا الجند مشاهرة على النطع[2]، وقدم على الأرض جباة يجبونها، فأكلوا الرعايا واجتاحوا أموالهم، واستضعفوهم، فتهاربت الرعايا وضعفوا عن العمارة، فقلَّت الجبايات المرتفعة إلى السلطان، وضعفت الأجناد..»[3].

ويبدو أن اعتراضهم فيه شيء من الوجاهة، إذ حول هذا النظام ارتباط الفرد -سواء الجندي أو غيره- بالأرض لا سيما وأنهم في منطقة ثغرية، إلى الارتباط بالنظام السياسي القائم لا بالأرض بشكل مباشر. وهذا ما كان له أثر عميق بعد ذلك حينما سقط النظام العامري ولم يُملأ الفراغ السياسي الذي أحدثه غياب ذلك النظام.

---

(١) الطرطوشي، **سراج**، ص٣٤٨؛ المالقي، **الشهب**، ص٣٣٤.

(٢) النّطع: بساط من الجلد، والنِطع اللقمة يؤكل نصفها، والمقصود هنا أي مقاسمتهم أرزاقهم. ابن منظور، **لسان**، ط٣، (بيروت: دار صادر، ٢٠٠٤م)، ج١٤، ص٢٨٧.؛ أحمد محمد الفيومي، **المصباح المنير**، ج٢، (بيروت: المكتبة العلمية، د.ت) ص٦١١؛ إبراهيم مصطفى وأحمد الزيات وحامد عبدالقادر ومحمد النجار، **المعجم الوسيط**، (استانبول: دار الدعوة، ١٩٨٩م)، ج٢، ص٩٣٠.والطرطوشي، **سراج**، ص٣٤٨؛ هامش رقم (٤).

(٣) الطرطوشي، **سراج**، ص٣٤٨..

رابعاً: المسبب الاقتصادي:

شهدت الأندلس خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي استقراراً سياسياً وأمنياً أثر بدوره على الوضع الاقتصادي للبلاد، فنعمت الأندلس بوضع اقتصادي مميز خلال هذا القرن. ولعل طبيعة الأندلس الجغرافية ساعدت على ذلك باحتواء باطنها على مواد خام متنوعة سواء معدنية أو نباتية أو حتى حيوانية، وقد أطنب المؤرخون القدماء في وصف ذلك فقال البكري عن الأندلس أنها: «صينية في جواهر معادنها»[(١)]، وقال المقري: «وأعلم أن بأرض الأندلس من الخصب ما لا يوجد مجموعة غالباً في غيرها»[(٢)]. إذاً؛ أرض الأندلس مهيأة للنهوض متى ما توفرت الأجواء والظروف المناسبة لذلك، ولعل الأمور خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي باتت مهيأة لتكوين منظومة سياسية وعسكرية قوية عاشت الأندلس خلالها استقراراً واضحاً انعكس بشكل مباشر على أوضاعها الاقتصادية.

ولعل الفضل في ذلك يرجع إلى حكمة وبُعد نظر الخليفة عبدالرحمن الناصر بما أحدثه من تغيّرات في دولته ساهمت في تخطي الكثير من الصعاب التي كانت تواجه الأندلس خصوصاً في أزماتها الاقتصادية التي كانت تعاني منها بين الفينة والأخرى، وخير شاهد على التغيّر الكبير الذي طرأ على حال البلاد هو كيفية التعامل مع تلك الأزمات في فترتين مختلفتين فمثلاً؛ حصل عام ٣٠٣هـ/ ٩١٦م أزمة اقتصادية شديدة في قرطبة يصفها ابن حيان بقوله: «اشتد القحط بغلاء السعر، وعظم البلاء وكثر الجلاء وعم الوباء وانتهى قفيز القمح اثني عشر دينار درهم فضة، ومات الناس جوعاً، وفشا فيهم التباغض والتقاطع بين ذوي الأرحام فضلاً عن الأباعد وعم الجوع الأندلس كلها، ودام نحو سنة فأهلك خلقاً من أهله»[(٣)]. وبعد حوالي عشرين

---

(١) المقري، **نفح**، ج١، ص١٢٦.

(٢) المقري، **نفح**، ج١، ص١٩٧.

(٣) ابن حيان، **المقتبس**، شالميتا، ج٥، ص١٢٤.

عاماً حصلت أزمة أخرى بالأندلس، بيد أن الأمر كان مختلفاً في مدى تأثيرها على الناس، إذ بقوا في أحسن حال ولم تؤثر فيهم تلك الأزمة، وقد ذكر ابن حيان تفاصيل ذلك في أحداث عام٣٢٤هـ/ ٩٣٩م فقال: «فيها أمحل العام بالأندلس المحل العام الذي لم يعهد فيها بمثله فأقام الناس مع ذلك بحال صالحة لم تنفق أسعارهم.. ولا تبدلت لهم حال بشدة الإمحال، بل بقيت النعم وسطهم وافرة، واستمرت البركات بينهم ظاهرة، ووردت إليهم الخيرات من كل الجهات مُتوالية فاشتمل عليهم الرخاء..»[(١)].

ويتضح من خلال ذلك أن هناك تغيراً جذرياً طرأ بين الحالتين حتى باتت الأندلس لا تتأثر كثيراً بسنوات القحط والجدب التي تمر بها، ويعود ذلك للتطورات التي أحدثها الخليفة الناصر في حكومته فاستطاع خلال تلك المدة إيجاد منظومة سياسية محكمة تدور في فلكها منظومات إدارية وعسكرية جعلت العمل أكثر تنظيماً واستعداداً لأي طارئ قد يصيب البلاد، ويكفينا الإشارة من بين تلك التنظيمات إلى ما عمله من تقسيم للجباية على ثلاثة أثلاث : ثلث للجند وثلث للبناء وثلث مدخر (للطوارئ)، وقيامه في عام ٣١٦هـ/ ٩٢٨م باتخاذ دار للسكة داخل مدينة قرطبة[(٢)].

لقد شهدت الأندلس خلال مدة الناصر قفزة اقتصادية ، وخير دليل على ذلك أن الجباية وصلت في عهده من الكور والقُرى خمسة ملايين وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار[(٣)]، ومن المستخلص من الأسواق سبع مائة ألف دينار وخمسة وستين ألف دينار[(٤)].بينما كانت في ذروة

---

(١) ابن حيان، **المقتبس**، شالميتا، ج٥، ص٣٨٤.

(٢) ابن حيان، **المقتبس**، شالميتا، ج٥، ص٢٤٣.

(٣) في رواية عند ابن حوقل يذكر انه في عام ٣٤٠هـ/ ٩٥١م وصلت الجباية حوالي عشرين مليون دينار. ويبدو أنه رقم مبالغ فيه، وربما قصد منه ابن حوقل إغراء الخليفة الشيعي العبيدي لغزو الأندلس. ابن حوقل، **صورة**، ص١٠٧.

(٤) ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص٢٣١-٢٣٢.

عهد الأمير عبدالرحمن الأوسط لم تتجاوز مليون دينار درهم[١]. ويرى عبدالسلام الجعماطي أن عصري عبدالرحمن الناصر والحكم المستنصر قد مثلا فترة سانحة لانتعاش الاقتصاد الأندلسي بوجه عام، وتسخيروسائل النقل والمواصلات وتطويرها، كترتيب أوقات تربية الدواب ونتاجها، وتحسين سلالاتها وجودة أعلافها، فضلاً عن انتعاش صناعة المعدات وآلات الملاحة الفلكية وبناء السفن[٢].

والحق أن المجال الاقتصادي خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي شهد نهضة واضحة في معظم مجالاته سواء الزراعية أو التجارية أو الصناعية؛ فمثلاً؛ الزراعة نمت بشكل واضح في ظل أجواء الأمن التي تمتعت بها الأندلس في تلك الحقبة، ساعد على ذلك أيضاً تمتع الأرض الأندلسية بالخصوبة، مما كان له أثر واضح في تنوع الأنشطة الزراعية، كذلك اهتمام الأندلسيين بوضع تقويم للزراعة سمي التقويم القرطبي[٣]. ويكفي للدلالة على تطور القطاع الزراعي الأندلسي؛ هي كمية الكتب التي ألفت في الفلاحة والزراعة بشكل عام، والتي أشار إلى بعض منها ابن العوام في كتابه الفلاحة حينما استعرض بعض الأسماء الأندلسية التي استقصى منها معلوماته في تأليف كتابه[٤].

---

(١) ابن حيان، **المقتبس**، مكي، ج٢، ص٢٩٢.

(٢) عبدالسلام الجعماطي، **النقل والمواصلات بالأندلس خلال عصري الخلافة والطوائف (٣١٦-٤٨٣هـ)**، (الرباط، بيروت: دار الأمان، دار ابن حزم، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م)، ص١٧٧-١٧٨.

(٣) ألف عريب بن سعيد القرطبي كتاب أسماه (الأنواء) نشره دوزي باسم التقويم القرطبي. انظر: ابن عبدالملك محمد بن محمد الأنصاري المراكشي، **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، السفر الخامس، تحقيق إحسان عباس، (بيروت: دار الثقافة، ١٩٦٥م). ص١٤١-١٤٢؛ المقري، **نفح**، ج٢، ص٣٠٢، هامش١، حسن إبراهيم، **تاريخ الإسلام**، ج٣، ص٣٢٩.

(٤) انظر: ابن العوام، يحيى بن محمد الإشبيلي، **الفلاحة**، (مدريد: د.ن، ١٨٠٢م)، ص١، ص٩.

ووصل النشاط الزراعي ذروته زمن العامريين، إذ اهتموا بشكل واضح بالشأن الزراعي؛ فمثلاً كان المنصور يزرع كل سنة مليون مُدٍّ من الشعير فصيلاً لدوابه الخاصة به[١]، وربما يرجع زيادة الإنتاج الزراعي في تلك الحقبة لسياسة التي اتخذها العامريون حينما أعفوا أصحاب المزارع من الأعمال الحربية ليتفرغوا لزراعة أراضيهم[٢]. ولعل المزارع الأندلسي بقي يتمتع بوضع اقتصادي جيد حتى بعد سقوط العامريين يدل على ذلك أن أحد الأمراء الأمويين خلال الفتنة التي عصفت بقرطبة كان يستجدي الفلاحين[٣].

أما في المجال التجاري؛ فيؤكد بعض المؤرخين أن تجار قرطبة مياسير وأحوالهم واسعة[٤]، ويبدو أن هذا المجال لقي عناية من قبل حكام الأندلس، بدليل أنه في عام ٣٦١هـ/ ٩٧٢م -والذي يبدو أنه شهد حركة تجارية واسعة في قرطبة- أمر الحكم (المستنصر بالله) بنقل دار البرد التي بغربي قصر قرطبة وفي صدر سوقها العظمى إلى أطراف قرطبة[٥]، وإقامة حوانيت للبزازين (بائعو الأقمشة) بدار البرد المُخلاة، لينفسح سوقهم، وتستوسع صناعتهم، إذ شكوا

---

(١) ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص٢٩٨.

(٢) الطرطوشي، **سراج**، ص٣٤٨؛ فوزي العتيبي، **فقهاء الأندلس**، ص٥٨-٥٩.

(٣) ابن سعيد، علي بن موسى بن سعيد، **المغرب في حلى المغرب**، اعتنى به خليل المنصور، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م)ج١، ص٥٥، محمد عبدالوهاب خلاف، **قرطبة الإسلامية في القرن الخامس الهجري- الحادي عشر الميلادي الحياة الاقتصادية والاجتماعية**، (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤)، ص٢٢٨.

(٤) الحميري، **الروض**، ص٤٥٦؛ ول وايريل ديورانت، **قصة الحضارة**، ترجمة محمد بدران، (بيروت، تونس: دار الجيل، جامعة الدول العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، د.ت)، ج٢، م٤، ص٢٩٥.

(٥) ابن حيان، **المقتبس**، هواري، ص٤٨؛ وانظر: إلى صورة لسوق قديم في قرطبة من تصوير الباحث أدناه؛ ص٢١٨.

ضيقها. وفي نفس العام أمر الحكم (المستنصر بالله) صاحب الشرطة والسوق بتوسيع المحجة العظمى بسوق قرطبة لضيقها وازدحامها بالناس، وأمر كذلك بهدم الحوانيت المسببة لهذا الضيق، حتى يفسح الطريق ولا يضيق بالواردين والصادرين[(١)].

كذلك اهتم العامريون بالتجارة والتجار وحرصوا على راحتهم حتى لمن هم من خارج الأندلس؛ إذ تشير بعض المصادر إلى أن تاجراً يمنياً قصد الأندلس للتجارة، وهناك فقد أمواله حينما تركها في صرة بجانب النهر ونزل إلى النهر، فمر طائر وأخذ تلك الصرة، فاغتم هذا التاجر حتى علم المنصور بذلك واهتم لأمره وبعث حرسه للبحث عن مال ذلك التاجر حتى أرجعه له، فلم يتمالك هذا التاجر حتى صاح: «والله لأبثن في الأقطار عظيم ملكك، ولأنبئن أنك تملك طير أعمالك كما تملك إنسها، فلا تعتصم منك ولا تمتنع»[(٢)]. كذلك تشير إحدى الروايات إلى أن تاجراً مغربياً اشتكى للمنصور من مظلمة له لم ينظر فيها القضاء؛ بسبب أن خصمه من كبار رجال الدولة؛ فأمر المنصور بشكل سريع بتشكيل محكمة للنظر في قضية هذا التاجر، فلما ثبت إدانة ذلك الموظف صرفه المنصور عن عمله[(٣)]. هذه المعاملة الجيدة للتجار القادمين من خارج الأندلس جعلت من حركة التجارة الخارجية في ازدياد زمن العامريين حتى شهدت فترة عبدالملك (المظفر) نشاط الحركة التجارية بوجود تجار من مصر والعراق ومناطق أخرى[(٤)].

---

(١) ابن حيان، **المقتبس**، هواري، ص٥١.

(٢) انظر: المقري، **نفح**، ج١، ص٤١٢-٤١٣.

(٣) ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص٣١٠-٣١١؛ دوزي، **المسلمون**، ج٢، ص١٥٤.

(٤) ابن بسام، **الذخيرة**، ق٤، ج٧، ص٦٢؛ محمد محمد مصطفى النجار، **المنصور بن أبي عامر**، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الأزهر، ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م، ص١٤١؛ أوليفيا ريمي كونستيل، **التجار المسلمون في تجارة الأندلس الدولية -الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس**، سلمى الجيوسي، (بيروت: دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٨م)، ج٢، ص١٠٧٢.

ومما تجدر الإشارة إليه أن حكام قرطبة خلال هذه الحقبة استخدموا سياسة لينة مع التجار رغم حاجة الدولة في بعض الفترات إلى دعمهم المادي، بيد أنها لم تلجأ إلى مصادرة أموالهم أو مقاسمتهم إياها وضمها لبيت المال، ولعل خير شاهد على ذلك ما ذكره ابن حيان بأن الخليفة عبدالرحمن (الناصر) ألمح لبعض كبار تجار قرطبة برغبته أن يدعم الدولة ببعض المال، وذكر له-تعريضاً- أنه بإمكانه مقاسمة عماله في تجارتهم وجعلها في بيت المال كما فعل الخليفة عمر بن الخطاب حسب قول عبدالرحمن (الناصر) [(١)]، بحجة حق الدولة في مصادرة جزء من أموال التجار باسم المصلحة العامة[(٢)]. وقد وهم أحد الباحثين بأن الناصر استخدم سلطته في مصادرة المال من خلال هذه الحادثة، وقال إن الناصر لم يتردد عن «مقاسمة عماله في تجاراتهم فجعلها في بيت المال»[(٣)]، ونلحظ أنه استقطع مقولة عمر بن الخطاب التي جاءت في سياق حديث الناصر وأثبتها على أنها من فعل الناصر![(٤)] وهذا وهم وتحريف لسياق

---

(١) ذكر ابن عذاري تفاصيل القصة عن المؤرخ المعروف ابن حيان فقال: «كان محمد بن سعيد المعروف بابن السَّليم قد احتجن أموالاً كثيرة بتصرُّفه في كبار الولايات في المدة الطويلة؛ فعلم ذلك منه الناصر؛ فعرَّض له مراراً في أن يساهم فيه عن طيب نفس منه، وهو ملكه، ولو شاء لأخذه منه، ولكن أبى ذلك كرم طبعه. فقال في مجلسه يوماً: ما بال رجال من خاصتنا توسعوا في دنيانا، فطفقوا يحتجون الأموال، ويضيعون تعمدنا، وهم يرون غليظ مؤونتنا في الإنفاق على شؤوننا التي بقدرتنا عليها صلاح أحوالهم ورفاهية عيشهم. ويعلمون أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قسطاس الموازين، قاسم عماله أرباحهم في تجاراتهم؛ فجعلها في بيت المال، وهو من هو، وهم من هم، والأسوة في فعله!. فسكت ابن السليم عنه وغالطه في تعرضه كأنه يعني غيره» . ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص٢٢٦.

(٢) أحمد الطاهري، **عامة قرطبةفي عصر الخلافة**، (الرباط: منشورات عكاظ، د.ت)، ص١٢٨.

(٣) أحمد الطاهري، **عامة قرطبة** ، ص١٢٨.

(٤) انظر: أحمد الطاهري، **عامة قرطبة** ، ، ص١٢٨.

الحادثة[١]، خصوصاً أن تكملة القصة تثبت عكس ذلك تماماً، فالناصر لم يقدم على استصفاء مال التاجر بالمصادرة، بل إنه حاول تطييب خاطره بعدما خشي ذلك التاجر سطوة الناصر، ولقد عد ابن حيان هذه الحادثة من مناقب الناصر[٢].

وقد سار المنصور على نفس السياسة بعدم استصفاء أموال ولاته وكبار موظفيه أو مقاسمتهم المال بعد عزلهم أو تتبع مصادرها رغم أموالهم الطائلة التي حازوها من مناصبهم الوظيفية[٣]. وهذا ربما ساعد على بروز عائلات ذوات دخل مادي كبير كبني خطاب[٤] في مرسية Murcia[٥]، وبني جهور[٦] في قرطبة، ويبدو أن العامريين استفادوا من بعض تلك

(١) ثبّت في كتابي فقهاء الأندلس والمشروع العامري مسألة مصادرة الناصر أموال بعض كبار رجاله اعتماداً على ما ذكره أحمد الطاهري في هذه الحادثة دون تمحيص جيد للمعلومة من مصدرها ابن عذاري، وهذا خطأ أقر به، ولعلي استدركته هنا وسأستدركه في طبعات لاحقة من كتابي آنف الذكر إن شاء الله.

(٢) انظر: لتفاصيل الحادثة عند؛ ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص٢٢٦.

(٣) ابن بسام، **الذخيرة**، ق١، ج١، ص١٥٩.

(٤) بنو خطاب: أسرة من الموالي، ينتسبون إلى جدهم الأول عبدالجبار بن خطاب، وهم من أعرق بيوتات مرسية، يرجح دوزي أن أصلهم من القوط، من مدينة تدمير. دوزي، **المسلمون**، ج٢، ص١٢٣؛ وللمزيد حول هذه الأسرة وتاريخها انظر: سحر السيد عبدالعزيز سالم، **بنو خطاب بن عبدالجبار التدميري أسرة من المولدين بمرسية في العصر الإسلامي**، (مصر: مؤسسة شباب االجامعة، ١٩٨٩)، ص٢٣ وما بعدها.

(٥) مرسية Murcia: قاعدة تدمير، بناها الأمير عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦-٢٣٨هـ/ ٨٢٢-٨٥٢م) واتخذت دار العمال وقرار القواد، ومرسية على نهر كبير، ولها جامع جليل، وبها حمامات وأسواق عامرة. الحميري، **الروض**، ص٥٣٨-٥٣٩.

(٦) بنو جهور: جدهم بخت بن أبي عبدة من الفرس، وكان مولى لعبد الملك بن مروان. دخل أحد أفراد تلك الأسرة إلى الأندلس ويدعى يوسف بن بخت، قبل وصول عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس، وقد بات أحد كبار الموالي بقرطبة. وكان أبرز أفرادها في الحقبة العامرية جهور بن محمد بن جهور، وكان له مكانة كبيرة في قرطبة لذا تم اختياره حاكماً على قرطبة بعد سقوط الخلافة الأموية بالأندلس. ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص١٨٥-١٨٧.

العائلات الثرية في تمويل بعض غزواتهم وتخفيف العبء المالي المترتب على تلك الحملات العسكرية[١]. كما قام المنصور بقطع الرواتب التي تدفعها الدولة للأمراء الأمويين[٢]، ربما تخفيفاً لأعباء ميزانية الدولة وتوفير ذلك المال لما هو أهم للصالح العام.

أما المجال الصناعي؛ فقد شهدت الأندلس نشاطاً صناعياً بارزاً، يمكن ملاحظته بتضخم طبقة الصنّاع في قرطبة تحديداً، ولعل مشاركتهم في إسقاط حكومة العامريين لدليل على تضخم هذه الطبقة، وثقلهم الاجتماعي في المحيط القرطبي[٣]. ولعل من أسباب ذلك ما يعود إلى النهضة العمرانية التي شهدتها الأندلس خلال تلك الحقبة، ويرجع ذلك للاهتمام الكبير من قبل حكام قرطبة بهذا المجال وإعطاؤه أولوية بالنسبة إليهم حتى قيل إن الخليفة الناصر انهمك ببناء مدينة الزهراء حتى عطل صلاة الجمعة بالمسجد الجامع لثلاث جمع متتالية[٤]. ولعل من مظاهر ذلك بناء مدن ملكية كالزهراء والزاهرة[٥]، وبناء العديد من المنشآت والخدمات العامة[٦]

(١) ابن الأبار، **الحلة**، ص٣٣٠؛ انظر: أدناه؛ ص١٩٠.

(٢) أبوطالب المرواني؛ عبدالجبار بن عبدالله القرطبي، **قطعة من كتاب عيون الإمامة ونواظر السياسة**، تحقيق بشار عواد معروف وصلاح محمد جرار، (تونس:دار الغرب الإسلامي، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م) ص٣٦.

(٣) انظر: ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٦١.

(٤) المقري، **نفح**، ج١، ص٥٧٠.

(٥) لتبيان مدى تطور عملية الصناعة في تلك الحقبة؛ أنه تم الانتهاء من بناء مدينة الزاهرة خلال عامين. ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص٢٧٦.

(٦) مثلاً؛ في عام ٣٥٦هـ/ ٩٦٧م أجرى ماء عذب إلى سقايات الجامع والميضأتين اللتين بجانبه شرقية وغربية، وقد جلب الماء من عين بجبل قرطبة، وقد صمم لجريانه بطريقة هندسية بحيث خرق له الأرض «وأجراه في قناة من حجر مُتقنة البناء، محكمة الهندسة أودع جوفها أنابيب الرصاص لتحفظه من كل دنس». ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص٢٣٨.

كالمساجد[(١)] والحمامات[(٢)] والقناطر[(٣)] والمُنى[(٤)] خلال فترة وجيزة[(٥)]، كل ذلك شواهد تؤكد على الحركة العمرانية الواضحة التي شهدتها الأندلس بشكل عام، وقرطبة بشكل خاص خلال تلك المرحلة.

إن تنظيم الدولة للعملية الاقتصادية في الأسواق والمجالات التجارية ساعد على نشوء نشاط صناعي وتجاري منظم، ولعل ما يؤكد على ذلك وجود أسماء لأحياء وأبواب ترمز لأنشطة اقتصادية وحرفية؛ كسوق الحدادين والعطارين والخشابين ونحو ذلك[(٦)].

ويبدو أن الاهتمام الواضح بقطاع الصناعة زمن العامريين كان له أهداف سياسية أيضاً بدليل اهتمام المنصور ببناء السفن والمراكب الحربية، إذ أنشأ أسطولاً كبيراً في الموضع المعروف

---

(١) كان عدد المساجد زمن عبدالرحمن الداخل ٤٩١مسجداً، بينما بلغت المساجد في عهد المنصور ألفاً وستمائة مسجد.المقري، **نفح**، ج١، ص٥٤٠.

(٢) وصلت الحمامات في عهد المنصور إلى تسعمائة.المقري، **نفح**، ج١، ص٥٤٠؛ محمد النجار، **المنصور**، ص٩٨.
Chejne,Anwarg. **Muslim spain its History And Culture** ,(Minneapolis:The university of Minnista Prees.1974),p135.

(٣) مثلاً تم بنا قنطرة على نهر قرطبة ابتداء العمل بها ٣٨٧هـ/ ٩٩٨م وانتهى ٣٨٩هـ / ١٠٠٠م وتكلفة المشروع مائة وأربعين ألف دينار، وبناء قنطرة على نهر إستجة وهو نهر شنيل. ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص٢٨٨.

(٤) مثل منية الناعورة، ومنية العامرية، ومنية السرور، ومنية الزبير. المقري، **نفخ**، ج١، ص٥٨٤.

(٥) مثلاً؛ تذكر بعض المصادر أن جامع مدينة الزهراء اشتغل في بنائه من حذاق الفعلة كل يوم ألف عامل، منهم ثلاثمائة بناء، ومائتا نجار، وخمسمائة من الأجراء وسائر الصنائع، واستغرق بناؤه وإتقانه ثمان وأربعون يوماً فقط.المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد، **أزهار الرياض في أخبار عياض،** تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الإيباري، عبدالحفيظ شلبي، (المغرب: المعهد الخليفي للأبحاث المغربية، مطبعة الفضالة، د.ت)، ج٢، ص٢٦٥؛ المقري، **نفح**، ج١، ص٥٦٤.

(٦) انظر: أدناه لمواقع تلك الأحياء على خريطة قرطبة؛ ص٢١٥.

بقصر أبي دانس Alcacer de sal من ساحل غرب الأندلس، وجهزه برجاله البحريين وصنوف المشاة والأسلحة[١]، كما زاد في صناعة الترس، والذي عرف بترس العامري[٢] حيث يصنع في كل عام اثنا عشر ألف ترس عامري، بينما كان يصنع في عهد الخليفة السابق المستنصر عشرة آلاف ترس في السنة، أما النبال فكان يصنع منها عشرون ألفاً في الشهر[٣]. واستفاد من صناعة المنسوجات الكتانية في الأندلس التي ازدهرت في تلك المرحلة؛ إذ كانت هذه المنسوجات تتألف من الأكسية والثياب الفاخرة المختلفة الأشكال، كالقباب[٤] والهوادج[٥] والأخبية[٦]، وذكر ابن الخطيب أنه كان يصنع من الأخبية في عهد المنصور بن أبي عامر ما يتجاوز ثلاثة آلاف خباء كعدة للجند في كل عام[٧]، وكانت الأخبية تستخدم لتلبية

---

(١) ابن عذاري، **البيان**، ج٢ص٢٩٥؛ جهاد غالب مصطفى الزغول، **الحرف والصناعات في الأندلس منذ الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة ٩٢-٨٩٧هـ/ ٧١١-١٤٩٢م**، (إربد: مركز الأفق، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م)، ص١٩٩.

(٢) الترس نوع من السلاح، ويظهرأنه صنع في عهد المنصور بن أبي عامر.انظر: مادة الترس؛ ابن منظور، **لسان**، ج١، ص٢٢١.

(٣) مجهول، **ذكر بلاد الأندلس**، تحقيق لويس مولينا، (مدريد: المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، ١٩٨٣م)، ج١، ص١٧٢؛ سحر المجالي، **تطور الجيش**، ص١٦٦.

(٤) القباب: جمع قُبة، وهي بيت صغير مستدير وهو من بيوت العرب. الزبيدي، محمد بن محمد بن عبدالرزاق الحسيني، **تاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيق عبدالستار فراج، (الكويت: وزارة الارشاد والأنباء، ١٩٦٥م)، ج٣، ص٥١١.

(٥) الهوادج: مركب لنساء الأعراب. الفراهيدي، الخليل بن أحمد، **كتاب العين**، تحقيق مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، (بيروت: دار ومكتبة الهلال، د.ت)، ج٣، ص٣٨٦.

(٦) الخباء: بيت من وبر أو شعر أو صوف. انظر: الفراهيدي، **العين**، ج٤، ص٣١٥.

(٧) ابن الخطيب، **أعمال**، ج٢، ص١٠١.

حاجة الجند في حلهم وترحالهم، ومما يؤكد ذلك أن الحاجب المنصور بن أبي عامر حمل معه في إحدى صوائفه أربعمائة واثنين وعشرين خباء، ومائة وسبعة وسبعين خباء من الأخبية المعروفة بالفرود[(١)].

ورغم المصروفات الواضحة في القطاع العسكري في الحقبة العامرية إلا أن المدخولات الاقتصادية الجيدة التي تعود نتيجة تلك الأعمال العسكرية نفسها[(٢)]، جعل الميزانية العامة للدولة في وضع جيد؛ إذ بلغت الجباية آخر عهد المنصور أربعة ملايين دينار؛ هذا غير رسوم المواريث ومال السّبي والمغانم ومصادرات الدولة[(٣)].

ولعل هذه المداخيل المتنوعة ساعدت على استمرار حالة الترف والثراء التي شهدتها الأندلس خلال تلك الحقبة. بيد أنه معضلة تلك السياسة العسكرية أنه ما إن يختل توازن القوى في قرطبة، أو تقل مكاسب تلك الغزوات الاقتصادية حتى يعود ذلك وبالاً على الدولة. وربما ظهرت مؤشرات هذا الأمر في عهد الحاجب المظفر عبدالملك، إذ بدأت مكاسب تلك الغزوات تقل عن سابق عهدها.

خامساً: المسبب الثقافي:

شهدت الأوضاع الثقافية في الأندلس عدة مؤثرات داخلية وخارجية ساهمت بشكل واضح في تشكيل ثقافة أندلسية خاصة بها، برزت بشكل واضح وجلي خلال حقبة الخلافة. ولعل من المفيد العودة قليلاً إلى الوراء للحديث عن بداية تكوين تلك الثقافة والتحولات التي مرت بها وأثرت فيها وعلى الحياة الأندلسية بشكل عام.

---

(١) ابن الخطيب، **أعمال**، ج٢، ص١٠١؛ جهاد غالب، **الحرف والصناعات**، ص١١٠.

(٢) حول هذا الجانب انظر: فوزي العتيبي، **فقهاء الأندلس**، ص٩٥.

(٣) ابن الخطيب، **أعمال**، ج٢، ص٩٨.

فالأندلس اصطبغت في بداية تكوينها الثقافي بصبغة شامية، وذلك لاعتبارات سياسية واجتماعية إذ ارتبطت بدولة الخلافة الأموية في دمشق سياسياً، وهذا ساعد على استمرار انتقال العرب من بلاد الشام إلى الأندلس[١]، ولا أدل على ذلك من طالعة بِلج بن بشر القشيري عام ١٢٥هـ/ ٧٤٣م، والتي كان بها أعداد كبيرة من الشاميين[٢]، وبما أن المذهب المنتشر –وقتئذ- بالشام هو المذهب الأوزاعي ربما أثر بدوره على تشكيل هوية الأندلس الدينية في بداية تكوينها الثقافي بهذا المذهب[٣].

ويبدو أن لتولي الأمير عبدالرحمن (الداخل) بن معاوية زمام الأمور في الأندلس وهو الشامي الهوى[٤]، ومحاولته تشكيل الأندلس سياسياً وثقافياً على نمط الشام، دوراً في تعزيز مذهب الأوزاعي في الأندلس حتى بات هو المذهب الرسمي للدولة، وعليه تدور

---

(١) خليل إبراهيم الكبيسي، **دور الفقهاء في الحياة السياسية والاجتماعية بالأندلس في عصري الإمارة والخلافة**، (لبنان: دار البشائر الإسلامية، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م)، ص٣٠.

(٢) ابن الخطيب، **الإحاطة**، ج١، ص١٩.

(٣) حول مذهب الأوزاعي في تلك المرحلة انظر: خالد عبدالكريم البكر، "الأوزاعية في الأندلس فيما بين عصر الولاة وعصر الإمارة الأموية (القرن ٢-٣هـ/ ٨-٩م) دراسة تاريخية"، **مجلة الجمعية التاريخية السعودية**، الرياض، العدد الرابع والعشرون، السنة الثانية عشرة، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م، ص٤٣.

(٤) عبر الأمير عبدالرحمن بن معاوية عن هذه المشاعر من خلال قصائد جميلة منها:

أيها الراكب الميمم أرضي	أقر من بعض السلام لبعضي
إنّ جسمي كما علمت بأرضٍ	وفؤادي ومالكيه بأرض
قُدّر البينُ بيننا فافترقنا	وطوى البينُ عن جفوني غمُضي
قد قضى الله بالفراق علينا	فعسى باجتماعنا سوف يقضي

الحميدي، **جذوة**، ص٢٣-٢٤؛ ووردت هذه الأبيات كذلك عند المقري باختلاف طفيف؛ المقري، **نفح**، ج٣، ص٣٨.

الفتوى، إذ تذكر بعض المصادر أن صعصعة بن سلام الشامي الأندلسي (ت١٨٠هـ/ ٧٩٦م)[١]، هو أول من أدخل الأندلس في مذهب الأوزاعي[٢]، «وكانت الفتيا دائرة عليه بالأندلس أيام الأمير عبدالرحمن بن معاوية وصدراً من أيام هشام بن عبدالرحمن...»[٣]، كما أن من العوامل المحتملة التي ساعدت على انتشار مذهب الأوزاعي الطبيعة الاجتماعية التي عاشها المسلمون الأوائل في الأندلس، والتي كانت تتمحور حول الحرب والجهاد، وهذا ربما يتناسب مع طبيعة المذهب الأوزاعي الذي يهتم خاصة بالتشريعات الحربية وأحكام الجهاد[٤].

وربما مع تغير هذه الطبيعة الاجتماعية وتطورها مع الزمن، كان من الضروري إحلال مذهب بديل للمذهب الأوزاعي يتماشى مع تلك الطبيعة، فكان المذهب المالكي، مذهب الإمام مالك(ت١٧٩هـ/ ٧٩٦م) الذي ربما يتناسب مع ذلك التغير والتطور؛ إذا أضفنا له العوامل السياسية التي ساعدت على انتشاره حتى بات المذهب الرسمي للدولة الأموية في

---

(١) أبو عبدالله، صعصعة بن سلام، من أهل دمشق، سكن الأندلس، من أصحاب الأوزاعي، قدم مصر وروى عن الأوزاعي، اختلف في سنة وفاته، فذكر ابن الفرضي وابن حزم أن وفاته كانت عام ١٨٠هـ/ ٧٩٦م، بينما ذكر الحميدي أن وفاته كانت سنة ١٩٢هـ/ ٨٠٨ م. ابن الفرضي، **تاريخ**، ج١، ص١٨٩؛ الحميدي، **الجذوة**، ص٢٣٦؛ ابن عساكر؛ علي بن الحسن بن هبة الله، **تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها**، تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٥)، ج٢٤، ص ٧٨.

(٢) الحميدي، **جذوة**، ص٢٣٦.

(٣) ابن الفرضي، **تاريخ**، ج١، ص١٨٩.

(٤) الكبيسي، **دور الفقهاء**، ص٣٠.

الأندلس قبيل نهاية القرن الثاني للهجرة / الثامن الميلادي[١].

كذلك شكلت الرحلة الأندلسية إلى الديار المقدسة في الحجاز أهميتها في الميل إلى مذهب الإمام مالك والتأثر به، وفي التكوين الثقافي الأندلسي بشكل عام، وتكمن أهمية الرحلات الأندلسية التي توجهت إلى الحجاز بوجود مجموعة من طلاب العلم المميزين الذين خرجوا من قرطبة[٢]، على رأسها زياد بن عبدالرحمن المعروف بشبطون (ت٢٠٤هـ/ ٨١٩)[٣] ويحيى بن مضر القيسي (ت١٩٠هـ/ ٨٠٥م)[٤] وغيرهما[٥]. ويعتبر هؤلاء هم المؤسسون الحقيقيون لمذهب المالكية في الأندلس.

---

(١) ربما لتوتر العلاقة بين الإمام مالك بن أنس والعباسيين، إضافة إلى إعجاب الإمام مالك بالأمير الأموي هشام (الرضا) بن عبدالرحمن بعدما نُقل إليه سيرته الحسنة في رعيته في الأندلس، إذ قال الإمام مالك: «نسأل الله تعالى أن يزين حرمنا بملككم». ويبدو أن عبارات الثناء هذه وصلت إلى الأمير هشام، الذي لم يخف كذلك إعجابه بالإمام مالك وتقريبه لفقهاء المالكية. ومع ذلك تؤكد بعض المصادر أن المذهب المالكي لم يصبح مذهباً رسمياً للدولة إلا في عهد الأمير الحكم (الربضي) بن هشام إذ انتقلت الفتوى من رأي الأوزاعي وأهل الشام بشكل كامل إلى الفتوى برأي الإمام مالك وأهل المدينة في عهده. ابن حيان، **المقتبس**، مكي، ج٢، ص٢٠١؛ المقري، **نفح**، ج٣، ص٢٣٠؛ الكبيسي، **دور الفقهاء**، ص٤٥ -٤٦.

(٢) ابن حيان، **المقتبس**، مكي، ج٢، ص٢٠١.

(٣) أبو عبدالله، زياد بن عبدالرحمن بن زياد اللخمي، فقيه أهل الأندلس على مذهب الإمام مالك بن أنس، ذكر الحميدي أنه أول من أدخل في الأندلس فقه مالك بن أنس، اختلف في سنة وفاته، قيل سنة ٢٠٣هـ/ ٨١٧م، وقيل سنة ١٩٩هـ/ ٨١٣م، بينما ذكر ابن حزم أن وفاته كانت سنة ٢٠٤هـ/ ٨١٨م. الحميدي، **جذوة**، ص٢١٢.

(٤) يحيى بن مضر القيسي، أندلسي، رحل وسمع مالك بن أنس، وسفيان الثوري، توفي سنة ١٩٠هـ/ ٨٠٤م. الحميدي، **جذوة**، ص٣٦٧.

(٥) ابن حيان، **المقتبس**، مكي، ج٢، ص٢٠١، المقري، **نفح**، ج٢، ص٢٣٠.

كذلك كان لتلك الرحلات أهميتها الثقافية؛ إذ يعتبر موسم الحج ملتقىً علمياً كبيراً حيث يجتمع فيه العديد من العلماء وطلاب العلم من شتى بقاع الأرض، فلا ريب أن يكون رافداً مهماً من روافد المعرفة، استقى منه الكثير من طلاب العلم، ومنهم طلاب وعلماء من الأندلس، وهذا بدوره أثر على الحياة الدينية والعلمية في الأندلس التي غالباً ما تتأثر بالأجواء العلمية الحجازية، وما يتخللها من تغيرات وتطورات، ينعكس ذلك بدوره على الأجواء الثقافية في الأندلس بشكل عام.

ويمكن القول إن الأندلس ارتبطت علمياً في بداية تكوينها بالحجاز، وتأثرت بعلمائه وعلومه، وهو نتيجة طبيعية لأن الحجاز في تلك المرحلة تعتبر الرافد الأهم للعلم والثقافة بشكل عام في العالم الإسلامي، لذا تأثرت الثقافة الأندلسية في تلك المرحلة بالثقافة الحجازية، على أن التأثير لم ينحصر على الجانب الديني وحسب؛ بل انسحب على العديد من المجالات الثقافية الأخرى كالفكر والفنون وما إلى ذلك، إذ اشتهر في الأندلس خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين تحديداً؛ الغناء، وقد كان أغلب المغنيات من الحجاز وخاصة من المدينة، حتى اُفتتح لهن دارٌ سُميت بدار المدنيات[١] لتدريبهن على الموسيقى وما يتعلق بها، وقد اشتهر كثيرٌ منهن : كفضل المدنية، التي قال عنها المقري: «أنها كانت حاذقة الغناء، كاملة الخصال، وأصلها لإحدى بنات هارون الرشيد، ونشأت وتعلمت ببغداد، ودرجت من هناك إلى المدينة المشرفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، فازدادت ثَمَّ طبقتُها في الغناء، واشتريت من هناك للأمير عبدالرحمن صاحب الأندلس مع صاحبتها علم المدنية..» [٢].

(١) المقري، نفح، ج٣، ص١٤٠.

(٢) المقري، نفح، ج٣، ص١٤٠.

ويبدو أن الغناء المدني كان على درجة عالية من الإتقان والتميز؛ يؤكد ذلك حرص الأندلسيين المهتمين بالغناء على إرسال الجواري لتعلم الصنعة في المدينة، أو بجلب مغنيات مدنيات متقنات للصنعة، ففي هذا الصدد تذكر بعض المصادر أن جارية تسمى قلم كانت أندلسية الأصل رومية من سبي البشكنس، حملت صبية إلى المشرق، ثم أرسلت إلى المدينة وتعلمت هنالك الغناء فحذقته[(١)]. وذكر ابن حيان أنه استقدم من المدينة ثلاث قينات محسنات هن مختالة ومخارق ومعللة لتعليم نساء القصر الغناء[(٢)].

وعليه يظهر أن الغناء المدني قد وجد قبولاً في الأندلس، لذا عده خالد البكر من أهم ملامح التأثير الاجتماعي للجزيرة العربية في الأندلس[(٣)]. رغم أن الغناء في الأندلس طرأت عليه تغيرات كثيرة من المؤثرات النصرانية[(٤)]، إلا أن الغناء المدني استمر محتفظاً بمكانته المميزة في الأندلس لمراحل لاحقة لا سيما خلال القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي[(٥)]، ويظهر ذلك في شواهد من أبرزها ما عبر عنه المعتضد بالله (٤٣٣-٤٦١هـ/ ١٠٤١-١٠٦٨م) باستمتاعه بالغناء المدني، في نظم له، جاء فيه:

أتتـــك أم الحـــسن تـــشدو بـــصوت حـــسن
تُمـــد في ألحانهـــا مـــد الغـــاء المـــدني[(٦)]

---

(١) المقري، **نفح**، ج٣، ص١٤٠.

(٢) ابن حيان، **المقتبس**، مكي، ج٢، ص٣٣١.

(٣) خالد بن عبدالكريم البكر، **الرحلة الأندلسية إلى الجزيرة العربية من القرن الثاني حتى القرن السادس الهجري**، ط١، (الرياض: مكتبة الملك فهد، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م)، ص٣١٧.

(٤) لعل من أسباب ذلك السياسة العسكرية العامرية وما أنتجته من كثرة الجواري.

(٥) خالد البكر، **الرحلة الأندلسية**، ص٣١٩.

(٦) المقري، **نفح**، ج٤، ص٢٤٢؛ خالد البكر، **الرحلة الأندلسية**، ص٣١٩.

كما أن الوزراء وأرباب الطبقات العليا من المجتمع، ظلوا مهتمين بالغناء الحجازي في تلك الحقبة[(١)].

أيضا شمل التأثير الحجازي اللباس والمظهر الشخصي، فالأندلسيون كانت لهم طريقة زي مختلفة عن بقية المناطق الإسلامية الأخرى، وقد عبر عن ذلك المقري في كتابه نفح الطيب[(٢)]، بيد أنه مع احتكاك الأندلسيين المستمر بأهل الحجاز ربما دفع ذلك بعضهم للإعجاب بطريقة لبس الزي الحجازي، فحاولوا تقليدهم في ذلك، ويظهر ذلك مثلاً في طريقة لبس القاضي محمد بن بشير المعافري (ت١٩٨هـ/ ٨١٣م)[(٣)] حينما قَدِم من الحجاز، إذ ارتدى ملابس الخز، واختار اللون المعصفر لملابسه، وانتعل حذاءً صرّاراً، ودهن شعر رأسه، وفرق جمته، واكتحل ووضع الحناء في يديه، وكان يخرج بهذا الشكل على الناس وفي مجالس القضاء[(٤)].

وهذا كله ما اعتاد عليه الأندلسيون في لباسهم وشكلهم الخارجي، ويظهر أن ابن بشير تأثر بما شاهده وسمعه في المدينة؛ يؤكد ذلك أنه حينما عوتب على هذا الأمر استدل بما سمعه من الإمام مالك بن أنسبأن القاسم بن محمد (ت١٠١هـ/ ٧١٩م)[(٥)] كان يلبس الخز، ومحمد

---

(١) الفتح بن خاقان، **قلائد العقيان في محاسن الأعيان**، (تونس: المكتبة العتيقة، د.ت)، ص١٩٩؛ خالد البكر، **الرحلة الأندلسية**، ٣١٩.

(٢) حيث يفصل في طريقة زي أهل الأندلس. انظر: المقري، **نفح**، ج١، ص٢٢٢.

(٣) محمد بن بشير بن شراحيل المعافري، أصله من جند باجة من عرب مصر، رحل إلى المشرق والتقى بالإمام مالك بن أنس، تولى قضاء قرطبة مرتين، قال عنه الخشني: «من عيون قضاة الأندلس ومن وجوه أهل القضاء بها، كان شديد الشكيمة، ماضي العزيمة، مؤثراً الصدق، صليباً في الحق». الخشني، **قضاة**، ص٤٧؛ المقري، **نفح**، ج٢، ص١٤٣.

(٤) المقري، **نفح**، ج٢، ص١٤٤؛ خالد البكر، **الرحلة الأندلسية**، ص٣٠٨.

(٥) أبو محمد؛ القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، من سادات التابعين، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة، روى عن جماعة من الصحابة، وجماعة من التابعين. توفي وقد تجاوز السبعين من عمره. ابن سعد، محمد الزهري، **الطبقات الكبير**، تحقيق علي محمد عمر، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م)، ج٧، ص١٨٦؛ ابن خلكان، **وفيات**، ج٤، ص٥٩-٦٠.

ابن المنكدر (ت١٣٠هـ/ ٧٤٨م)[١] شيخ القراء في المدينة، كانت له لّمة[٢]، وهشام بن عروة (ت١٤٦هـ/ ٧٦٣م)[٣] فقيه المدينة، كان يلبس المعصفر. ومع ذلك يبدو أن هذه العادات لم تنتشر في الأندلس بشكل واسع، ربما لمحاربة بعض الفقهاء لها[٤]، أو لأنها اختصت بها فئات اجتماعية معينة بعيدة عن أهل القضاء والوقار[٥]، ولعل أكبر دليل على عدم الاقتداء بالقاضي ابن بشير مقولة الفقيه يحيى بن يحيى الليثي حينما حاول بعضهم أن يبادر الفقيه يحيى إلى لبس العمامة لمحاكاة أهل المشرق في هذا الأمر فرد قائلاً: «قد لبس محمد بن بشير الخز فما تبعه الناس فيه، وكان ابن بشير أهلاً أن يُقتدى به، فلعلي لو لبست العمامة لتركني الناس ولم يتبعوني كما تركوا ابن بشير»[٦].

بيد أن المغني زرياب نجح في أن يؤثر في العادات الأندلسية، بل أحدث فيها نقلة نوعية سواء في عادات اللباس أو المأكل عند الأندلسيين وذلك في حدود منتصف القرن الثالث

---

(١) أبوعبدالله؛ محمد بن المنكدر بن عبدالله بن الهدير التيمي القرشي، من أهل المدينة، من المحدثين، وكان من سادات القراء. توفي سنة ١٣٠هـ/ ٧٤٨م. ابن سعد، **الطبقات**، ج٧، ص٤٤٠؛ ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، **تهذيب التهذيب**، اعتناء إبراهيم الزيبق، عادل مرشد، (بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م)، ج٣، ص٧٠٩.

(٢) لمة: بكسر اللام، الشعر إذا جاوز شحمة الأذنين كأنه سمي بذلك لأنه شام المنكبين وقاربهما. ابن زكريا، **معجم**، ج٥، ص١٩٨.

(٣) أبو المنذر؛ هشام بن عروة بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي، من أهل المدينة وأحد التابعين، ومن رواة الحديث، توفي في بغداد عام ١٤٦ه/ ٧٦٣م. ابن خلكان، **وفيات**، ج٦، ص٨٠.

(٤) انظر: المقري، **نفح**، ج٢، ص١٤٤.

(٥) تذكر بعض المصادر الأندلسية أن رجلاً غريباً على قرطبة دخل يريد القاضي ابن بشير ولما أشير عليه وهو على لباسه هذا قال الرجل: «إنّي رجل غريب، وأراكم تستهزئون بي، وأنا أسألكم عن القاضي وأنتم تدلوني على زامر..». الخشني، **قضاة**، ص٥٢؛ المقري، **نفح**، ج٢، ص١٤٤.

(٦) الخشني، **قضاة**، ص٥٦-٥٧؛ المقري، **نفح**، ج٢، ص١٤٥.

الهجري/ الثامن الميلادي، وربما استفاد زرياب من الحالة السياسية الجيدة التي تعيشها الأندلس، والدعم الكبير الذي لقيه من أميرها عبدالرحمن (الأوسط) بن الحكم في هذا الأمر[١]، ويرى خالد البكر أنه من الصعوبة بمكان النظر إلى النجاح الذي حققه زرياب في هذا المضمار بمعزل عن المحاولات الأولى التي سبقته، ومهدت له الطريق لتنفيذ مشروعه[٢].

إن الثقافة الاندلسية نهلت بشكل أساسي من الثقافة الحجازية في بداية تكوينها، لذا رأينا كيف سادَ المذهب المالكي كنتيجة من نتائج ذلك الارتباط العلمي والثقافي بالحجاز. لكن ما إن بدأت بغداد تزاحم الحجاز في مكانتها العلمية والثقافية، حتى بدأت الأندلس توجه أنظارها إلى ذلك القطر لتنهل من علومه ومعارفه[٣]، وهذا يظهر في اهتمام الأمراء والخلفاء والحكام الأندلسيين في استقطاب العلماء[٤] وشراء الكتب من ذلك القطر[٥]، لذا بدأت تتشكل في الأندلس معارف جديدة أثرت على الحياة الثقافية فيها خاصة الدينية والفكرية منها، فبدأت تنتشر بشكل واضح المذاهب الدينية المختلفة لا سيما زمن الخليفة الحكم (المستنصر بالله) والذي شهدت سنوات حكمه نشاطاً ثقافياً واضحاً، بدليل أن هذا الخليفة

---

(١) انظر: أعلاه، ص٣٤.

(٢) خالد البكر، **الرحلة الأندلسية**، ص٣١٢.

(٣) حول هذا الموضوع انظر: عبدالغفور روزي، «التحول من مدرسة المدينة إلى مدرسة بغداد وأثره على المسار العلمي في الأندلس»، **دراسات في تاريخ الجزيرة العربية**، الرياض، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الكتاب الخامس، ج١، ص٢٩٥.

(٤) كاستقبالهم للعالم أبي علي القالي البغدادي، وصاعد البغدادي وغيرهما. انظر: الحميدي، **جذوة**، ص٢٣٢؛ المقري، **نفح**، ج١، ص٣٨٦.

(٥) كاهتمام الخليفة الحكم المستنصر بالكتب وإرساله في طلبها؛ وفي هذا الصدد ذكر المقري أن الحكم اشترى كتاب الأغاني من مؤلفه أبي فرج الأصفهاني بألف دينار من الذهب قبل أن يخرجه في العراق.المقري، **نفح**، ج١، ص٣٨٦.

عُرف عنه شغفه بالعلم، وتشجيعه للكتابة والتأليف[١] واستقطابه للعلماء ومجالستهم[٢]، وهذا بدوره أدى إلى انتشار الكثير من العلوم والمعارف سواء الدينية أو العلمية أو حتى الفلسفية. يؤكد ذلك ما ذكره صاعد الأندلسي: «فكثر تحرك الناس في زمانه إلى قراءة كتب الأوائل وتعلم مذاهبهم»[٣]. وربما أن هذا الانفتاح الثقافي -إن صح التعبير- جعل الخليفة الحكم أكثر حذراً وحرصاً على عدم انفلات ميزان الأمور الدينية والفكرية تحديداً في دولته، لذا وضع الوحدة المذهبية من أولى أولوياته، وترك ما دون ذلك يموج في أجواء من الحرية الفكرية والثقافية.

إن سياسة الحكم الثقافية كانت تستهدف النهوض بالأندلس بشكل عام دون تخصيص طبقة على حساب الأخرى؛ لذا حرص على تعليم حتى الطبقات الفقيرة وذلك باتخاذه مؤدبين يعلمون أولاد الضعفاء المساكين والفقراء، خاصة تعليم القرآن الكريم؛ لذا أمر بتعميم التعلم حول المسجد الجامع وبكل ربض من أرباض قرطبة، وأجرى عليهم المرتبات، وعهد إليهم في الاجتهاد والنصح ابتغاء وجه الله العظيم، وعدد هذه المكاتب سبعة وعشرون مكتباً؛ منها ثلاثة تحيط بالمسجد الجامع، وباقيها في كل ربض من أرباض المدينة، وفي ذلك يقول أحد الشعراء :

---

(١) ذكر ابن حزم أنه أخبره خازن العلوم والكتب زمن الأمويين أن عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة، وفي كل فهرسة خمسون ورقة، ليس فيها إلا ذكر الدواوين لاغير.المقري، **نفح**، ج١، ص٣٨٥.

(٢) الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن، **طبقات النحويين واللغويين**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، (مصر: دار المعارف، د.ت)، ص١٧؛ للمزيد انظر: عبدالرحمن علي الحجي، **الكتب والمكتبات في الأندلس**، (أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي، ٢٠٠٧م)، ص١٠٨ وما بعدها.

(٣) صاعد بن أحمد بن صاعد الأندلسي، ، **طبقات الأمم**، نشره لويس شيخو اليسوعي، (بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٩١٢م) ص٦٦.

وساحة المسجد الأعلى مكللة مكاتباً لليتامي من نواحيها
ولو مكنت سور القرآن من كلم نادتك بالخير تاليها وواعيها[(١)]

واستمر العامريون بتشجيع العلم وأهله؛ فعرف عن المنصور بن أبي عامر حبه للعلم والعلماء واجتماعه معهم في مجلس معروف في الأسبوع[(٢)]؛ يتجمع فيه أهل العلوم للكلام فيه بحضرته[(٣)]. حتى إن ابنه وخليفته على السلطة عبدالملك (المظفر) حرص على إبقاء طبقة العلماء والفقهاء في مجالسه وشملهم برعايته واهتمامه، رغم أنه لم تكن له اهتمامات والده العلمية والفكرية بل قال عنه ابن بسام: «صِفر من الأدب والتعاليم»[(٤)].

ولعل العامريين ركزوا اهتماماتهم الثقافية فيما يخدم مشروعهم بالدرجة الأولى[(٥)] لذا أعطوا الشعر والشعراء أهمية وعناية -ويبدو أن ذلك لأسباب سياسية- إذا عرفنا أهمية الشعراء في تلك المرحلة سواء في ذكر المآثر أو تسجيل الأحداث وتخليد الأمجاد؛ لذا أنشأ ابن أبي عامر لهم ديواناً ضم به أسماء مادحيه ومخلدي أعماله[(٦)]، وكان ابن أبي عامر يحرص على مرافقة الشعراء له في حملاته، وقد وثق شعر وقصص هؤلاء الشعراء مع المنصور بعض

---

(١) ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص٢٤٠-٢٤١؛ أحمد بدر، **تاريخ الأندلس**، ج٢، ص١٦٣-١٦٤.

(٢) المراكشي، **المعجب**، ص٣٧؛ وللمزيد حول هذا الموضوع؛ انظر: حمدي أحمد حسانين، **مجالس المنصور ابن أبي عامر الأدبية**، ط١، (مصر: مكتبة رشيد ٢٠٠٦م)، ص٤٥ ومابعدها.

(٣) الحميدي، **الجذوة**، ص٨٣_٨٤.

(٤) ابن بسام، **الذخيرة**، ق٤، ج٧، ص٥٨.

(٥) كان المشروع العامري يهدف إلى نقل الخلافة من بني أمية إلى بني عامر، وقام العامريون بعدة إجراءات سياسية وعسكرية واقتصادية وغيرها في سبيل ذلك، للمزيد حول المشروع العامري، انظر: فوزي العتيبي، **فقهاء الأندلس**، ص٥١ وما بعدها.

(٦) الحميدي، **جذوة**، ص١١٣؛ يوسف أحمد بني ياسين، «الاستبداد والمعارضة المنصور بن أبي عامر (٣٦٦-٣٩٢هـ/ ٩٧٦-١٠٠١م) نموذجاً»، **المجلة الأردنية للتاريخ والآثار**، المجلد الأول، العدد ١، ٢٠٠٧م، ص٢٩.

أحداث معاركه[١]. كذلك اهتم العامريون بالكتب والتأليف فقد حث المنصور الكتّاب على التأليف وقدم لهم العطايا[٢]، وقد ذكر أبوطالب المرواني أن الفقيه ابن حزم ألّف كتاباً عن قُصاد محمد بن أبي عامر من شعراء أهل المشرق[٣]، وقد اهتم المنصور بعلم التاريخ لتسجيل مآثر العامريين وتأصيلها في نفوس الناس، وقد شهدت فترة حكمه صدور العديد من الكتب التي ترجمت لسيرته[٤].

---

(١) فمثلاً ذكرت بعض المصادر مناسبة قصيدة كتبها الشاعر صاعد بن الحسن اللغوي أثناء إحدى غزوات المنصور بن أبي عامر إذ أهدى صاعد إلى المنصور إيّلاً وكتب معه هذه الأبيات:

يا حِرز كلّ مخوف، وأمان كل مشرّدٍ ومُعزّ كل مُذلل

عبد جذبت بضبعه ورفعت من مقداره أهدي إليك بإيل

سميته غرسية وبعثته في حبلهِ ليتاحَ فيه تفاؤلي

فمن العجائب أن أُسر غرسية بن شانجة SanchoGrace صاحب قشتالة، فيذلك اليوم بعينه الذي بعث فيه صاعد الإيل وسماه غرسية متفائلاً بأسره، وكان أسرغرسية في ربيع الآخر سنة ٣٨٥هـ / ٩٩٥م.ابن بسام، **الذخيرة**، ق٤، ج٧، ص٢٨؛ المراكشي، **المعجب**، ص٣٦-٣٧.

(٢) للمزيد حول جهود المنصور من الناحية العلمية انظر: محمد عبدالحميد عيسى، **تاريخ التعليم في الأندلس**، (مصر: دار الفكر العربي، ١٩٨٢م)، ص١٤٥-١٥١؛ فوزي العتيبي، **فقهاء الأندلس**، ص١١١.

(٣) المرواني، **عيون**، ص١٥٩.

(٤) ذكرت بعض المصادر العديد من الكتب التي أُلفت عن سيرة المنصور ونظامه؛ منها كتاب "المآثر العامرية" لحسين عاصم الذي كان في سير المنصور بن أبي عامر وغزواته وأوقاتها، و كتاب "الحمام" لزيادة الله بن علي(٤١٥هـ/ ١٠٢٥م) الأديب والشاعر. وألف عبدالرحمن بن محمد الرعيني المعروف بابن المشاط (ت٣٩٧هـ/ ١٠٠٧م) كتاباً سماه الباهر للمنصور بن أبي عامر، وكذلك ألف عبد الرحمن بن محمد اللغوي (ت٤٢٣هـ/ ١٠٣٢م) كتاباً عن العامريين. الحميدي، **الجذوة**، ص١٩٠؛ ابن بشكوال، خلف بن عبدالملك، **الصلة في تاريخ علماء الأندلس**، اعتنى به صلاح الدين الهواري (لبنان: المكتبة العصرية ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م)، ص٢٥٤؛ص٢٧١؛ الضبي، أحمد بن يحيي بن عميرة، **بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس**، اعتنى به صلاح الدين الهواري (لبنان: المكتبة العصرية ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م)، ص٢٤٥.

بيد أن النشاط الثقافي زمن العامريين أصابه شيء من الخمول في بعض فروعه بسبب سياسة المنصور التي اعتمدت على ترك الجدل والخلاف والتشّعُّب[(١)]، لذا قيدت الفلسفة وأحرقت العديد من كتبها[(٢)]، وأصاب بعض المذاهب الدينية شيء من الفتور وضُيق على أصحابها فمثلاً، تتبع أصحاب ابن مسرة (ت٣١٩هـ/ ٩٣١م)[(٣)] بشكل كبير زمن العامريين[(٤)]، وربما كان ذلك لأسباب سياسية بالدرجة الأولى؛ إذ أراد المنصور بهذا العمل المحافظة على الوحدة المذهبية للبلاد، وهذا ما جعل دوزي يبرر للمنصور إحراقه لكتب الفلاسفة وتشدده مع بعضهم الآخر بقوله: « أحب المنصور النهضة الفكرية وشجعها، وعلى الرغم من أن هناك ظروفاً سياسية خاصة أجبرته على التشدد مع الفلاسفة إلا أنه كان لا يتوانى عن حمايتهم مادام ذلك لا يحرك غضب الفقهاء»[(٥)]. كما أراد المنصور من عمله هذا ألا تؤثر تلك العلوم على عقائد الناس من جهة، ومن جهة أخرى التقرب لطبقة الفقهاء المالكية خاصة والمحافظين عموماً لكرههم لتلك العلوم، وهذه السياسة العامرية جعلت قبضة

---

(١) ابن الخطيب، **الإحاطة**، ج٢، ص١٠٤.

(٢) المقري، **نفح**، ج١، ص٢٢١.

(٣) ابن مسرة، محمد بن عبدالله بن نجيح، من أهل قرطبة، متصوف وفيلسوف، صاحب مذهب، له طريقته في الزهد والعبادة، وله طريقة في البلاغة، وتدقيق في غوامض إشارات الصوفية، وتواليف المعاني، وكان له تلاميذ عدة استمروا على مذهبه بعد وفاته، توفي سنة ٣١٩هـ/ ٩٣١م. انظر: ترجمته، ابن الفرضي، **تاريخ**، ج٢، ص٤١؛ الحميدي، **جذوة**، ص٦٩؛ الضبي، **بغية**، ص٨٥، وعن مذهبه انظر: محمود علي مكي، **التشيع في الأندلس منذ الفتح حتى نهاية الدولة الأموية**، ط١، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م)، ص٢١؛ إحسان عباس، **تاريخ الأدب الأندلسي عصر السيادة**، ط١، (لبنان: دار الثقافة، ١٩٦٠م)، ص٥٤.

(٤) النباهي، **تاريخ**، ص٧٨.

(٥) دوزي، **المسلمون**، ج٢، ص١٤٩.

الفقهاء المالكية في عهد المنصور تشتد على مقاليد الحياة الدينية والعلمية وحتى السياسية[١].

وفي السياق نفسه يذهب سعد البشري إلى أن المنصور «رأى من مصلحته السياسية وهو المحنك أن يعمل على استرضاء الفقهاء الذين كانوا ينظرون للفلسفة والتنجيم نظرة تتسم بالكراهية والمقت الشديد فاراد بحركته تلك كسب ود الفقهاء والقضاء على كل ما من شأنه الخروج عليه وتعكير صفو الجو السياسي ضده»[٢].

ومما سبق؛ يتبين أن تعامل السلطات الحاكمة مع الثقافة اختلف من سلطة لأخرى، فأبدت البعض منها مرونة واضحة في التعامل مع الثقافة ودعمها في أحيان، بينما أبدت أخرى تقييد لها في أحيانٍ أُخر حسب المتطلبات السياسية بالدرجة الأولى، بيد أن تيار الثقافة وصل زمن الحكم (المستنصر بالله) إلى درجات متقدمة لم تمنعه-بعد ذلك- القيود التي حاول فرضها عليه النظام العامري وتوجيهه حسب مصالحهم، من وضع بصماته المؤثرة في المجتمع الأندلسي، ولعل مظاهره باتت واضحة منها بروز ثقافة التسامح الديني وحرية الاعتقاد في تلك الحقبة، ولعل من أسباب ذلك أيضاً ما يرجع للاختلاط الكبير بالجواري النصرانيات والزواج منهن والتي شهدت حقبة العامرية فيه ذروتها، بل إن ثقافة التسامح ذهبت إلى أبعد من ذلك، ولعل خير شاهد على ذلك ما ذكره ابن سهل في نوازله حول غلام نصراني أسلم ثم عاد إلى النصرانية فكان جواب قاضي قرطبة: «الغلام..في قده مراهق ولا أظنه بلغ، فأرى أن

---

(١) إفارست ليفي بروفنسال، **الحضارة العرب في الأندلس**، ترجمة ذوقان قرقوط، (بيروت: دار مكتبة الحياة، د.ت)، ص١٥١؛حسين يوسف دويدار، **المجتمع الأندلسي في العصر الأموي ١٣٨ _٤٢٢هـ/ ٧٥٥_١٠٣٠م**، (مصر: مطبعة الحسين الإسلامية ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م)، ص١٤٧؛ فوزي العتيبي، **فقهاء الأندلس**، ص١١٣.

(٢) سعد عبدالله صالح البشري، **الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس** (٣١٦_٤٢٢هـ/ ٩٢٨_ ١٠٣٠م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨٢م، ص٨٣.

يحمل عليه الوعيد، فإن رجع إلى الإسلام فبتوفيق الله.. وإن أصر حبسته أياماً لعله يراجع أمر الله، فإن أصر تركته في سخط الله عز وجل، فليس بأول من أغواه الشيطان..» [١].

سادساً: المسبب الديني:

للدين دور مؤثر في إحداث تغيرات اجتماعية أو العكس؛ وكل ذلك حسب ما تتناسب معه تلك التغيرات من موافقتها لمفهوم الدين أو مخالفته، وحسب تمسك الناس بتطبيق دينهم من عدمه.

لقد شهدت قرطبة في حقبة الخلافة عدة مظاهر سلبية طفت على السطح القرطبي على الرغم من الحياة الدينية والعلمية الوقورة والجادة خلال تلك الحقبة، إلا أنه كانت هناك بعض المظاهر السلبية كشيوع مجالس اللهو وشرب الخمور. ويظهر أن الدولة حاولت جاهدة في منع هذا الأمر؛ بدليل أن الخليفة الحكم المستنصر بالله قام بالتشدد في هذه المسألة، إذ تذكر بعض المصادر أنه «شدد في إبطال الخمر في مملكته تشديداً عظيماً»[٢]، حتى إنه فكر في استئصال شجرة العنب من بلاده؛ لأنه يُصنع منها الخمر، لكنه عدل عن ذلك حينما علم أنها تصنع من غيرها[٣]. وهذا ربما يدلل على شيوع شرب الخمر وتعدد طرق إنتاجه[٤].

---

(١) ابن سهل، عيسى بن سهل بن عبدالله الجياني، **الأحكام الكبرى**، تحقيق يحيى مراد، (القاهرة: دار الحديث، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م)، ص٦٨٢.

(٢) المقري، **نفح**، ج١، ص٣٦٩.

(٣) الحميدي، **جذوة**، ص٢٧.

(٤) يؤكد ذلك أيضاً ما ذكره الفقيه عيسى بن أحمد الأندلسي وهو يتحدث عن حرمة الخمر وأنواعه حيث قال: «والنبيذ ما خالطه الماء وهو يصنع من التمر والزبيب والتين والعسل وغيرها، ويصنع من جميع الحبوب كالقمح والشعير والقطاني وغيرها من الحبوب وذلك كله نبيذ وجميعه مسكر وكل مسكر حرام والخمر يصنع من العنب خاصة وهي مسكرة وكل مسكر حرام نياً كان أو مطبوخاً..». عيسى بن أحمد الأندلسي، **عيون الأخبار**، مخطوط (ميكروفيلم) الرياض، جامعة الملك سعود، مكتبة الأمير سلمان، رقم (١١٦٢)، ص١٢٤.

وحتى والبلاد تمر بظروف سياسية واجتماعية سيئة لم يمنعهم ذلك من إقامة مثل تلك المجالس، فمثلاً تذكر بعض المصادر أنه مع المجاعة التي اجتاحت قرطبة إبّان الفتنة التي أعقبت سقوط النظام العامري كان شرب الخمر ظاهراً[1].

وربما يدلل على تفشي هذه الظاهرة أيضاً ورود بعض الاستفسارات على بعض الفقهاء بتساهل البعض في مسائل تتعلق بالخمر، فمثلاً سأل سائل الفقيه ابن حزم عن إمام يجيز الوضوء بالنبيذ؟ وأنه يرى الجرعة من الخمر ليست حراماً، وأن النقطة أو النقطتين منه لا تنجس الثياب أو الجسد.. [2].

ويؤكد هذا الأمر الفقيه عيسى بن أحمد الأندلسي (ت٤٢٠هـ/ ١٠٢٨م)[3] حينما ذكر أن الخمر والنبيذ نجس لا يغسل منه الثوب والجسد بإجماع من الصحابة والتابعين بخلاف ما ذهب إليه من قال إن النبيذ طاهر وليس بنجس..[4].

---

(١) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص١٠٦.

(٢) وكان رد ابن حزم أن هذا غير ما كنا فيه ولا خلاف بين أحد من المسلمين أن من استحل الخمر قليلها وكثيرها فهو كافر مشرك مرتد يستتاب وإلا قتل فكان ماله فيئاً. ابن حزم، **رسالة في الإمامة، رسائل،** م٢، ص٢٠٩.

(٣) أبو محمد، عيسى بن أحمد بن علي اللخمي الإشبيلي الأندلسي، عالم، زاهد، له كتاب في الوعظ اسمه عيون الأخبار. انظر: حاجي خليفة، مصطفى بن عبدالله القسطنطيني، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون،** (بيروت:دار إحياء التراث العربي، ١٩٤١م)، م٢، ص١١٨٤؛عمر رضا كحالة، **معجم المؤلفين،** (بيروت: مكتبة المثنى-دار إحياء التراث، د.ت)ج٨، ص١٨.

(٤) ويرى الفقيه عيسى الأندلسي أن هذا قول فاسد وقياس باطل ورأي غير معمول به عند الفقهاء والعلماء وصدر هذه الأمة، ولا فرق في نجاسة الخمر والنبيذ بين قليلة وكثيرة. عيسى الأندلسي، **عيون الأخبار،** ص١٢٣.

أيضاً يظهر أن هناك بعض السلوكيات التي تخالف الدين بدأت بالانتشار مثل عمليات التزوير في تلك الحقبة، لذا ذهب بعض الفقهاء إلى التشدد في هذا الأمر. فمثلاً؛ أفتى الفقيه محمد بن عبدالله المعروف بابن زمنين (ت٣٩٨هـ/ ١٠٠٨م)[١]، «أن الذي تجوز عليه الأحكام في وقتنا هذا أن الشهادة على الخط لا تقبل إلا في الأحباس الخاصة؛ لما اشتهر من الضرب على الخطوط وكثر عندنا بالأندلس. ولا تتم الشهادة -أيضا- على الخط في الأحباس إلا أن يشهد الشهود أنهم لم يزالوا يسمعون الذي فيه أنه حبس، وأنه قد كان يحاز بها يحاز به الأحباس»[٢].

أيضاً انتشرت الجريمة في تلك الحقبة-لا سيما في قرطبة - بيد أن وجود سلطة قوية تردع العصاة والمنحرفين أجلت في انتشار شرهم وخطرهم على البلاد، ولعل أصدق مثال على ذلك حينما استلم محمد بن أبي عامر منصب صاحب المدينة[٣] كان الناس في قرطبة قبله: «في بلاء عظيم، يتحارسون الليل كله ويُكابدون من روعات طُرَّاقه ما لا يُكابد أهل الثغور من

---

(١) أبوعبدالله، محمد بن عبدالله بن عيسى بن أبي زمنين الإلبيري، من أهل إلبيرة، سكن قرطبة، فقيه وزاهد له تواليف في الوعظ والزهد، وله كتاب في الشروط على مذهب الإمام مالك بن أنس. الحميدي، **جذوة**، ص٦٣؛ ابن بشكوال، **الصلة**، ص٣٨٣.

(٢) ابن زمنين؛ محمد بن عبدالله، **منتخب الأحكام**، تحقيق عبدالله عطية الغامدي، (مكة، بيروت: المكتبة المكية، مؤسسة الريان، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م)، ج١، ص١٤٥.

(٣) صاحب المدينة: هو المكلف بإدارة المدينة وغالباً ما تضاف إليه خطة الشرطة العليا وشرطة المدينة، وتتطلب فيه شروط معينة بأن يكون عفيفاً أو فقيهاً أو شيخاً. ومن مهامه أيضاً تهيئة جو الاستقرار والهدوء العام داخل المدينة حتى في أثناء الاحتفال بالمناسبات الاجتماعية كالأعراس، كذلك إبلاغ الأمير بعزل القاضي وإبلاغ الفقهاء بعزلهم من خطة الشورى، وتنفيذ قرارات الإعدام فيمن يحكم عليه بذلك. أيضاً من مهامها الإشراف على السجن والسجناء، وعدم الانفراد بالأمور الكبيرة دون الرجوع للقاضي أو السلطان. للمزيد انظر: ابن عبدون، **رسالة**، ، ص١٦؛ خلاف، **تاريخ القضاء** ص٤٤٥، ص٤٥٩؛ وللمزيد حول خطة المدينة انظر: محمد عبدالوهاب خلاف، صاحب المدينة في الأندلس، **مجلة الفيصل**، العدد٤٤، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١، ص٢٦-٢٨.

العدو. فكشف الله ذلك عنهم بمحمد بن أبي عامر وكفايته..» [١]، ولعل كثرة عدد السجون في تلك الحقبة يعطي إشارات على هذا الأمر [٢].

كذلك طغت اهتماماتهم الدنيوية على الدينية في كثير من المواقف منها على سبيل المثال مسألة الجهاد، إذ لم تعد تشكل لهم أهمية دينية بقدر ما توفره لهم من هبات دنيوية من جواري ونحو ذلك، لذا لم يعجبهم انتصار الحاجب عبدالملك (المظفر) ابن المنصور بن أبي عامر في إحدى المعارك لأن السبايا لم تكن على قدر ما كان يجلبه لهم والده المنصور بن أبي عامر في انتصاراته العديدة وفي ذلك قال ابن حيان: «إن العامة بقرطبة أزرت بغزوة عبد الملك هذه إذ لم يزح عليهم سبياً طرياً يستلذ..» [٣].

إن ضعف الجانب الديني الذي أصاب الحياة القرطبية بشكل خاصة والحياة الأندلسية بشكل عام قبيل سقوط الخلافة له مسببات عديدة؛ سياسية واقتصادية وثقافية جعلت اهتمامات الناس تتغير وتتبدل مع مرور الزمن [٤]، لذا رأينا أنه من المناسب أن نضع

---

(١) ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص٢٦٦.

(٢) تتبعت عدداً من أسماء تلك السجون، مثل سجن بيت العمال على باب الجنان، وسجن دار البَنِيقة، وسجن الدُويرة بمنية الزهراء، ودار الرهن المقابلة لباب قنطرة قرطبة، وبيت البراغيث في المطبق، ومطبق الزاهرة. انظر: صفحات متفرقة، ابن حيان، **المقتبس**، هواري، ص١١٧، ص١٣٤، ص١٣٦، ص١٥٠؛ ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص٢٧٠؛ ابن الأبار، **أعتاب**، ص١٩٦.

(٣) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص١٣.

(٤) لم نعد نرى اعتراضات واضحة على مظاهر البذخ والانحرافات والفساد مثلما كان يحدث أيام الخليفة الناصر مثلاً؛ كمواقف القاضي منذر بن سعيد مع الخليفة الناصر وتقريعه له في بذخه في البناء من خلال خطبه له، فقال الناصر مشتكياً لابنه الحكم: «والله لقد تعمدني منذر بخطبته، وما عني بها غيري، فأسرف عليَّ، وأفرط في تقريعي». المقري، **نفح**، ج١، ص٥٧٠-٥٧١.

هذا المسبب (الديني) رغم أهميته في عملية التحول الاجتماعي مـــن عدمهـا، في ختام حديثنا عن تلك المسببات؛ لأن تلك المسببات المتنوعة هي التي نخرت في البناء الديني حتى أضعفته.

***


الفصل الثاني
مظاهر التحولات
الاجتماعية في قرطبة
خلال عصر الخلافة

الفصل الثاني
مظاهر التحولات الاجتماعية في قرطبة خلال عصر الخلافة

تمهيد:

لم ينقض القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي حتى غصت قرطبة بعدة مظاهر اجتماعية متنوعة، أثرت بدورها في الأوضاع العامة في الأندلس لاسيما السياسية منها، وهذا ألقى بظلاله خلال العقود الأولى من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي في تكوين مشهد أندلسي مغاير لحقبة الخلافة، إذ شهدت البلاد اضطرابات وفوضى في عدد من مجالات الحياة الأندلسية، والذي بدوره أدى في النهاية إلى سقوط الدولة الأموية، وانفراط عقد الخلافة في الأندلس. ويمكن تقسيم تلك المظاهر إلى عدة مجالات سواء اجتماعية أم اقتصادية أم حتى ثقافية، وفي هذا الفصل سنحاول تبيان ذلك بشيء من الإسهاب والتحليل والدراسة.

المظهر الاجتماعي:

يمكن أن نقسم هذا المظهر إلى قسمين، قسم يشمل التحولات في الطبقات الاجتماعية، والقسم الآخر يشمل التحولات في الظواهر (السلوك) الاجتماعي.

(أ) تحولات في العناصر الاجتماعية:

١. اضمحلال العصبية القبلية وبروز النزعة الإقليمية الأندلسية:

اشتهر العرب بتعصبهم لقبائلهم وحروبهم الطاحنة فيما بينهم، سواء في موطنهم الأصلي شبه جزيرة العرب أم حينما انتقلوا إلى أراضٍ جديدة؛ ناقلين الصراع إلى مناطق جديدة؛ ولعل شبه الجزيرة الإيبيرية كانت أحد الميادين التي شهدت مثل تلك الصراعات والحروب[(١)]. إذ شهدت صراعات وحروب مقيتة بين قبائل اليمانية والقيسية[(٢)] لبرهة من الزمن حتى تمكن

---

(١) انظر: نماذج لتلك الصراعات عند ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص٣٢؛ ص٣٤.

(٢) يذكر أحمد بدر أن عرب الأندلس انقسموا على أساس قبلي، فقد كان فيهم ممثلون لحوالي اثنتين وأربعين قبيلة من القبائل المضرية، واثنتين وخمسين من القبائل اليمانية. أحمد بدر، **تاريخ الأندلس**، ج١، ص٦١.

الأمير الأموي عبدالرحمن (الداخل) من السيطرة على البلاد وإحلال قبضة الدولة مكان قبضة القبيلة.

ولعل ابن خلدون حينما تكلم عن سبب انتشار المذهب المالكي في الأندلس، أرجعه إلى تلك الطبيعة الاجتماعية التي كانت تعايشها الأندلس (القبلية)، إذ يرى أن البداوة كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس، «ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق، فكانوا إلى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة، ولهذا لم يزل المذهب المالكي غضّاً عندهم، ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب»[١]. ويظهر أن ابن خلدون لم يقصد من كلامه وصف أهل الحجاز بالبداوة التي هي ضد المدنية والحضارة، كما ظن أحد الباحثين[٢]ورد مقولته تلك بناءً على هذا التصور غير الدقيق، إنما قصد أن أهل الحجاز لم يشهدوا تنوعاً حضارياً في منطقتهم كالتي شهدته منطقة العراق مثلاً، وبذلك يكون المذهب المالكي الذي يقل فيه الرأي والجدل أنسب لتلك الطبيعة من مذهب كمذهب الإمام أبي حنيفة (ت١٥٠هـ/ ٧٦٧م) مثلاً الذي يعتمد على الرأي، والذي وجد رواجاً في العراق بناءً على طبيعة أهله المائلة إلى الرأي والجدل. وهذا التحليل يتماشى مع ما ذهب إليه خليل الكبيسي حينما علق على مقولة ابن خلدون تلك بقوله: «إن ابن خلدون يقصد بالبداوة العصبية - بالمعنى اللغوي - والبساطة وضعف التأثير الأجنبي، وكأنه أراد أن يقول إن عادات وتقاليد الشعبيين كانت متشابهة، من حيث البساطة والتماسك مما قارب بين طبيعتهما، فأخذ الأندلسيون بمذهب إمام أهل الحجاز»[٣]. ويذهب في هذا السياق عبدالغفور روزي الذي

---

(١) ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد، **المقدمة**، اعتناء ودراسة أحمد الزعبي، (لبنان: دار الأرقم بن أبي الأرقم، د.ت)، ص٤٨٧.

(٢) أحمد بن إبراهيم الشعرواي، **الأمويون أمـراء الأندلس الأول**، (القاهرة: د.ن ١٩٦٩م)، ص١١٨-١٨٩.

(٣) الكبيسي، **دورالفقهاء**، ص٥٤.

يرى أن من نتائج غلبة الحضور العربي من ذوي الأصول القديمة من الجزيرة العربية في المغرب حدوث ترابط عضوي ونفسي بين المغرب والأندلس، في الحقب اللاحقة، مع الجزيرة العربية أكثر منه للشام(١).

بيد أن هذا التعصب والتحزب للقبيلة بدأ يتآكل مع قوة نفوذ الدولة وسيطرتها على البلاد، بل يمكن القول إنه بدأ يحل مكانها تجمعات أسرية (بيوتات أندلسية) كان لها دور واضح في سيطرة الأمويين على مجريات الأمور في الأندلس، وذلك بتبوئهم مراكز حساسة في الإدارة والجيش في الدولة الأموية. وازداد نفوذ تلك البيوتات الأندلسية واستقلالها مع مرحلة الترف والغنى التي شهدها عصر عبدالرحمن (الأوسط)(٢)، في المقابل شهدت تلك المرحلة اضمحلال القبيلة وتحللها؛ فبات الولاء للأرض أكثر تجذراً، وهو ما يمكن أن نقول عنه إنه بداية لظهور نزعة إقليمية أندلسية بانت ملامحها بشكل جلي وواضح في القرن التالي.

وعليه؛ يمكن القول إن الأندلس مرت منذ أن دخلها المسلمون حتى سقوط الخلافة الأموية بثلاث مراحل اجتماعية، مرحلة القبيلة ثم الأسر أو البيوتات الأندلسية، ثم انتهاء إلى الإقليمية (الوطنية) الأندلسية، وسنأخذ كل مرحلة اجتماعية على حِدة، ونبسط بالحديث عنها رصداً وتحليلاً حتى نفهم طبيعة ذلك التحول ومظهره وأثره بعد ذلك على الأوضاع السياسية.

فالقبيلة بدأت في الذوبان داخل الدولة منذ أن أحكم عبدالرحمن (الداخل) قبضته على البلاد مروراً بعهد ابنه الأمير هشام، وحفيده الأمير الحكم(٣)، أما في عهد الأمير الرابع

---

(١) عبدالغفور إسماعيل روزي، "إسهامات مهاجري الجزيرة العربية في فتوح المغرب والأندلس"، **دراسات في تاريخ الجزيرة العربية**، الرياض، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الكتاب الرابع، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ص١٤١.

(٢) حول البيوتات الأندلسية انظر: عبدالسلام بن المختار شقور، **البيوتات الأندلسية**، ص٢٥٢.

(٣) تمتد هذه المرحلة تقريباً ثمان وستين عاماً (١٣٨-٢٠٦هـ/ ٧٥٥-٨٢١م).

عبدالرحمن (الأوسط) فقد شهدت البلاد طفرة اقتصادية وثقافية كان لها أثر كبير في مجالات عديدة لعل أهمها تأثيرها في التركيبة القبلية، إذ ضعفت عصبيتها ومال أفرادها إلى حياة الترف والنعيم وتركوا حياة الخشونة. ولعل ابن خلدون يشرح لنا مثل نتاج هذا التأثير في مثل هذه الظروف، حيث يذكر أن الدولة إذا كانت قوية لا يطمح أحد في انتزاع السلطة منها ولا المشاركة معها، ويذعن الجميع لقراراتها ويبقى همهم النعيم والاهتمام بالأشياء الكمالية والمظاهر والترف فينتج عن ذلك ذهاب خشونة البداوة وتضعف العصبية، وتنشأ بنوهم وأعقابهم على مثل ذلك «حتى يصير ذلك خُلُقاً لهم وسجيَّة. فتنقُصُ عصبيتهم وبسالتهم في الأجيال بعدهم، يتعاقبها إلى أن تنقرض العصبية، فيأذنون بالانقراض»[١].

ويبدو أن التعايش والتزاوج بين العرب والعجم لاسيما من الإسبانيات، إضافة إلى ما استقبله الأندلسيون من ثقافات جديدة سواء من الشرق (الإسلامي) أم الغرب (الأوروبي)؛ أثر في ثقافتهم واهتماماتهم، لذا لم يعودوا يهتمون كثيراً بمسألة النسب، بدليل إصدار الخليفة الحكم (المستنصر بالله) أمره لأهل الكور بتقييد كثير من أنساب أهل البلاد في مناطقهم، وأن يلحقوا كل عربي أخمل ذكره قبل ولايته، وأن يصحح نسبهم أهل المعرفة بذلك[٢]. واهتمام الخليفة الحكم (المستنصر بالله) وبعض العلماء الأندلسيين ببث الروح لهذا العلم والاهتمام الخاص به يؤكد هذا الأمر[٣].

---

(١) ابن خلدون، **المقدمة**، ص١٦٩.

(٢) ابن الأبار، **الحلة**، ص١١٨.

(٣) لقد أعطى الخليفة الحكم (المستنصر بالله) عناية خاصة بهذا العلم، فألف له أبو الفرج الأصفهاني كتاب عن أنساب قومه بني أمية وذكر مناقبهم وأسماء رجالهم. بل بات الخليفة الحكم نفسه حجة في هذا العلم. كما اهتم الكتّاب الأندلسيون في تلك الحقبة بالأنساب وألفت العديد من الكتب فيها مثل كتاب أحمد بن محمد الرازي (أنساب مشاهير الأندلس)، وألف ابن حزم، كتابه المعروف في أنساب العرب. الحميدي **جذوة**، ص١٠٥.

هذا إذا أضفنا أهمية هذا العلم من الناحية الشرعية بورود بعض الأحاديث النبوية التي تحض على تعلمه كقوله ﷺ: (**تعلَّموا من أنسابِكم ما تصِلونَ بِه أرحامَكم**)[١]. وقال رسول الله ﷺ: (**اعرِفوا أنسابَكُم تَصِلوا أرحامَكُم، فإنَّهُ لا قُربَ لرَحمٍ إذا قُطِعَت، وإن كانَت قريبةً، ولا بُعدَ لَها إذا وُصِلَت وإن كانت بَعيدةً**)[٢]. وعن ابن عباس أنه قال: (احفظوا أنسابَكم تصلوا أرحامَكم..)[٣]. وقد ذكر بعض العلماء أهمية هذا العلم فقال ابن حزم: «إن علم النسب علم جليل رفيع، إذ به يكون التعارف»[٤]. وقال القلقشندي: «لاخفاء أن المعرفة بعلم الأنساب من الأمور المطلوبة والمعارف المندوبة، لما يترتب عليها من الأحكام الشرعية والمعالم الدينية»[٥]. وقال السمعاني: «ومعرفة الأنساب من أعظم النعم التي أكرم الله تعالى بها عباده؛ لأن تشعب الأنساب على افتراق القبائل والطوائف أحد الأسباب الممهدة لحصول الائتلاف، وكذلك اختلاف الألسنة والصور وتباين الألوان والفطر على ما قال تعالى (واختلاف ألسنتكم وألوانكم)، وكنت في رحلتي أتتبع ذلك وأسأل الحفَّاظ عن الأنساب وكيفيتها وإلى أي شيء نسب كل أحد وأثبت ما كنت أسمعه..»[٦].

---

(١) ناصر الدين الألباني، **صحيح الجامع الصغير وزيادته للإمام السيوطي**، ط٣، (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، ص٥٧٠.

(٢) الألباني، **صحيح الجامع**، ص٢٣٩.

(٣) ناصر الدين الألباني، **الأدب المفرد للإمام البخاري**، (الجبيل: مكتبة الدليل، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م)، ص٥٦.

(٤) ابن حزم، **جمهرة**، ص٢.

(٥) القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد، **نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب**، تحقيق إبراهيم الأبياري، (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م)، ج١، ص٦.

(٦) السمعاني؛ عبدالكريم بن محمد التميمي، **الأنساب**، تحقيق عبدالرحمن بن يحيى اليماني، ط٢، (القاهرة: مكتبة ابن تيمية، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م)، ص٣٧.

إن التركيبة القبلية للأندلس بدأت بالذوبان بشكل واضح؛ خاصة مع هذا الرخاء الاقتصادي الذي بدأت تعيشه البلاد في ظل استقرار الدولة خاصة زمن عبدالرحمن الأوسط، هذا إذا أضفنا إليه عامل الزمن ومرور أجيال متعاقبة جعل التمسك بالقبيلة والتعصب لها من تركات الماضي، بدليل الرسالة التي بعث بها ملك إشبيلية المعتمد بن عبّاد (٤٦١-٤٨٤هـ/ ١٠٦٩-١٠٩٠م)[١] إلى أمير المرابطين يوسف بن تاشفين (٤٥٣-٥٠٠هـ/ ١٠٦١-١١٠٧م)[٢] لنجدة الأندلس من الخطر المحدق بها حيث قال: "نحن العرب في هذه الأندلس، قد تلفت قبائلنا وتفرق جمعنا، وتغيرت أنسابنا، بقطع المادة عنا من معيننا، فصرنا شعوباً لا قبائل، وأشتاتاً لا قرابة ولا عشائر..» [٣]، ويؤكد هذا الأمر ابن خلدون بقوله: «الأندلس ليس بدار عصائب ولا قبائل»[٤].

لكن في المقابل يمكن القول إنه حل مكان القبيلة تجمعات أسرية أقل عدداً وتعصباً للقبيلة هي ما يمكن أن نطلق عليها البيوتات أو الأسر الأندلسية، والذي استفاد أفرادها من أوضاعهم في الدولة سواء من قربهم من السلطة أم من الطفرة الاقتصادية التي شهدتها البلاد

---

(١) محمد بن عباد بن محمد؛ لقبه المعتمد، ولد عام ٤٣٢هـ/ ١٠٤٠م في مدينة باجة غرب الأندلس، كان شاعراً وفارساً، تولى حكم إشبيلية بعد والده وعمره حوالي ثلاثون سنة، في عهده دخلت قرطبة في حكم العباديين، وفي عهده انتهى حكمهم كذلك على يد المرابطين، توفي في منفاه في أغمات. ابن بسام، **الذخيرة**، ق٢، ج٣، ص٣٥، علي أدهم، **المعتمد بن عباد**، ص٩٤.

(٢) أبو يعقوب؛ يوسف بن تاشفين بن إبراهيم الصنهاجي اللمتوني، تولى قيادة المرابطين بعد أن عقد له ابن عمه أبي بكر بن عمر على بلاد المغرب حينما عزم على السفر إلى بلاد الصحراء، تمكن يوسف من السيطرة على المغرب والأندلس، ولقب بأمير المسلمين، قال عنه ابن أبي زرع: «كان رحمه الله بطلاً نجداً شجاعاً حازماً..مواظباً على الجهاد». ابن أبي زرع، **الأنيس**، ص١٣٦؛ السلاوي؛ **الاستقصا**، ص١٨٩.

(٣) مجهول؛ **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تحقيق سهيل زكار، عبدالقادر زمامة، (الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)، ص٤٥-٤٦.

(٤) ابن خلدون، **المقدمة**، ص١٨٦.

خلال تلك الحقبة في تكوين ثروات هائلة مكنتهم -بعد ذلك- من تشكيل كيانات سياسية لهم، وذلك حينما ضعفت الحكومة المركزية في قرطبة، ولعل خير شاهد على ذلك أنه بعد انقضاء عهد عبدالرحمن (الأوسط) ودخول البلاد في مرحلة غير مستقرة ومترهلة سياسياً، تمكنت بعض الأسر من السيطرة على بعض المدن والأقاليم، ولعل من أشهر تلك الأسر؛ أسرة بني الحجاج في إشبيلية، والتجيبيون في سرقسطة Saragosse[(١)]، وكادت الأندلس أن تتجزأ إلى كيانات ووحدات سياسية، بيد أن الخليفة عبدالرحمن (الناصر) تمكن من إعادة توحيد البلاد في دولة مركزية عاصمتها قرطبة، على أنه لم يتمكن من القضاء تماماً على تكتلات بعض تلك الأسر أو البيوتات؛ لذا ترك حكم بعض الأقاليم لها على أن تعلن ولاءها وارتباطها بحكومة قرطبة بشكل مباشر كأسرة التجيبين في سرقسطة[(٢)].

وبذلك يمكن القول إن بعض البيوتات حافظت على تركيبتها ومكانتها خلال عهد الخلافة، وتميز نفوذها خلال تلك المرحلة بالشأن الاقتصادي، ومن أشهر تلك البيوتات بنو جهور في قرطبة، وبنو خطاب في مرسية، وبنو عباد[(٣)]في إشبيلية والذي كان القاضي إسماعيل

---

(١) سرقسطة Saragosse: تعرف باسم المدينة البيضاء قيل لكثرة جصّها وجيارها، وقيل لأن أسوارها القديمة من حجر الرخام الأبيض. فيها مسجد جامع بنى محرابه التابعي حنش بن عبدالله الصنعاني. الحميري، **الروض**، ص٣٧. وللمزيد حول تاريخ التجيبين في سرقسطة انظر: فايزة عبدالله الحساني، **تاريخ مدينة سرقسطة منذ عصر الخلافة الأموية حتى سقوطها ٣١٦-٥١٢هـ/ ٩٢٨-١١١٨م دراسة سياسية وحضارية**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، ١٤٣٠هـ، ص١١٩.

(٢) ابن حيان، **المقتبس**، تحقيق شالميتا، ج٥، ص٤٠٣؛ العذري، **ترصيع**، ص٤٢.

(٣) بنو عباد: ينتسبون إلى قبيلة لخم اليمنية. ملكوا إشبيلية بعد سقوط النظام العامري. انظر: ابن الأبار، **الحلة**، ص١٩٢ وللمزيد انظر: يوسف أحمد حوالة، **بنو عباد في إشبيلية ٤١٤-٤٨٤هـ/ ١٠٢٣-١٠٩١م دراسة سياسية وحضارية، إشبيلية**، ط١، (د.م: ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م)، علي أدهم، **المعتمد بن عباد**، (مصر: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ٢٠٠٠م)، ص٣٧.

ابن عباد (٤١٠هـ/ ١٠٢٠م)[١] يملك ثلث ضياعها[٢]. هذه المكانة الاقتصادية المميزة لتلك الأسر؛ هي ما جعلت العديد من أفرادها يؤدون أدواراً سياسية واضحة بعد أن ضعفت السلطة المركزية في قرطبة، إذ تمكن بعض أفرادها من السيطرة على مناطق وأقاليم استقرارها، كبني جهور في قرطبة وبني عباد في إشبيلية، وبني الأفطس[٣] في بطليوس Badajos[٤].

وعليه؛ نجد أن القبيلة ذابت بشكل واضح مع نهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، ولم يعد لتكتلاتها دور واضح لا سياسياً ولا حتى اجتماعياً، وحل مكانها تكتلات أسرية (بيوتات) في قرطبة وبعض المناطق الأخرى، ولعبت تلك البيوتات أدواراً سياسية واقتصادية

---

(١) أبو الوليد؛ إسماعيل بن عَبَّاد اللخمي الإشبيلي، قال عنه ابن حيان إنه كان: «عالماً، كاتباً، أديباً، حسيباً، وافر النفقة». بزغ نجمه زمن العامريين، إذ كان مشتغلاً لهم بالأمور العظيمة. النباهي، **المرقبة**، ص٩٤.

(٢) النباهي، **المرقبة**، ص٩٤؛ وللمزيد انظر: عبير زكريا سليمان، **دور الفقهاء السياسي والحضاري في الأندلس في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي**، (مصر: دار العلم والإيمان، ٢٠١٠م)، ص٧٩.

(٣) بنو الأفطس: ينتمون إلى قبائل مكناسة البربرية النازلة في فحص البلوط شمال قرطبة، استولوا أثناء الفتنة البربرية على غرب الأندلس. ابن عذاري، **البيان**، ج٣، أحمد بدر، **تاريخ الأندلس (التجزؤ - السيادة المغربية-السقوط والتأثير الحضاري)**، (دمشق: مكتبة أطلس، ١٩٨٣)، ص٧٤.

(٤) بطليوس Badajos: من إقليم ماردة بينهما أربعون ميلاً، بناها عبدالرحمن بن مروان الجليقي بإذن من الأمير عبدالله له في ذلك. وتعتبر المدينة في أرض منبسطة تقع على نهر يسمى الغؤور وسمي بذلك لأنه كان في موضع يحمل السفن، ثم يغور تحت الأرض حتى لا توجد منه قطرة فسّمي الغؤور لذلك. الإدريسي؛ محمد بن عبدالله بن أدريس الحمودي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م)، ج٢، ص ٥٤٥؛ الحميري، **الروض**، ص٩٣.

مهمة في الدولة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يمكن القول إنه برزت نزعة إقليمية أندلسية[١] جعلت الأندلسيين أكثر لحمة وقرابة فيما بينهم، لذا كان الصراع مع الأطراف الغريبة والدخيلة على المجتمع الأندلسي يتم على أساس الإقليم لا القبيلة، خاصة بعد عصر عبدالرحمن (الأوسط) والدليل؛ كثورات المولدين بزعامة زعيمهم عمر بن حفصون.

واستمراراً لتلك الحالة وتجذرها تحول الصراع في عصر الخلافة ليكون صراعاً إقليمياً – طبقياً بعد أن تجذرت روح الوطنية الأندلسية في نفوس الأندلسيين بشكل أكثر وأعمق[٢]، وغابَ بشكل جلي الصراع القبلي أو من أجل القبيلة. لذا نسمع كثيراً في أعقاب الثورة على العامريين وما أعقبها من حوادث مصطلحات كالأندلسيين والبرابرة كتعبير عن الحالة التي تمثل الصراع الإقليمي بين أهل البلد (الأندلسيين) والغرباء (البرابرة) ومصطلح العامة كتعبير عن الصراع الطبقي، بين العامة من جهة والطبقات الغنية والمتنفذة والحاكمة من جهة أخرى[٣].

٢. اضمحلال بيوتات الموالي وبروز بيوتات جديدة:

لم يكن للأمير عبدالرحمن (الداخل) بن معاوية أن يُسيطر على الأندلس أو حتى يعبر إليها لولا أنه وجد مساعدة ومساندة من بعض موالي بني أمية، والذي كان لهم نفوذ ومكانة في

---

(١) لعل للدلالة على ذلك هو انتشار لهجة محلية شائعة بين الأندلسيين؛ حيث ذكر ابن حزم أن قبيلة بلي لا يحسنون الكلام باللَّطِينيَّة لكن بالعربية فقط، نساؤهم ورجالهم. ويُفهم من كلام ابن حزم أنه ميز تلك القبيلة بأنها مازالت محافظة على لغتها العربية في ظل انحسارها أمام لهجة محلية باتت تسيطر –فيما يبدو– على لغة التخاطب الأندلسية. ابن حزم، **جمهرة**، ص٤٤٣.

(٢) تتضح النزعة الأندلسية الوطنية جلية مثلا في كتابات الأندلسيين ؛ ككتاب ابن الفرضي تاريخ علماء الأندلس ، وابن حيان المقتبس في أخبار بلد الأندلس، وكتاب الحميدي جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس وغير ذلك ، ولعل أدق مثال على ذلك رسالة ابن حزم في فضل الأندلس وذكر رجالها ؛ ففضلا عن مدلول العنوان كان محتوى الرسالة يتضمن تأكيدًا لهذا الجانب إذ اعتبر ابن حزم العلماء الذين هاجروا إلى الأندلس ؛ أندلسيون وفي ذلك قال: «فمن هاجر إلينا من سائر البلاد ؛ فنحن أحق به..». **ابن ابن حزم ، فضل، رسائل**، م١، ص١٧٦.

(٣) انظر: مثلاً؛ صفحات متفرقة عند ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٧٦؛ ص٨٢، ص٨٤، ص٩٥.

الأندلس وقتئذ، وعرفاناً لهم بذلك فقد أعطى عبدالرحمن الداخل للكثير منهم المناصب المهمة في الدولة يتوارثونها كابر عن كابر. من هنا يمكن القول بأنها ظهرت على المسرح السياسي الأندلسي بشكل واضح عدة بيوتات أندلسية ذات مكانة عريقة في الإدارة والسياسة وقيادة الجيش، تداول أبناؤها العديد من المناصب لمراحل طويلة تناهز الثلاثة قرون، وتميزوا بقدر كبير من الكفاءة والولاء للبيت الأموي(١).

إن هذه السياسة التي اتبعها حكام الدولة الأموية ساعدت على ظهور بيوتات موالية ومخلصة لهم احتكرت إلى حد كبير العديد من المناصب المهمة في الدولة(٢). ويبدو أن حكام بني أمية كانوا يخصون هذه البيوتات بمناصب الدولة الكبرى، بل كانوا يتعهدون أبناءها بالتربية لتولي هذه المناصب. وكان هؤلاء -إلى حد كبير- يعتبرون حلقة الوصل بين البيت الحاكم والشعب الأندلسي(٣).

بيد أنه اختلفت سياسة الأمويين تجاه تلك الأسر والبيوتات حينما تولى السلطة عبدالرحمن الناصر في بداية القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي والذي حاول جمع السلطات في يده، وبذلك فإن سلطان هذه الأسر، قد أخذ في الانحسار منذ الشطر الثاني من خلافة عبدالرحمن الناصر، خصوصاً بعد اعتماد الناصر على فئات اجتماعية غير أندلسية كالصقالبة مثلاً(٤)، وزاد الاعتماد عليهم بشكل واضح بعد تولي الخليفة الحكم (المستنصر بالله) الخلافة، إذ كان حاجبه وكثير من خاصته منهم، ولتبيان مدى المكانة التي حظي بها هؤلاء الصقالبة في عهد الحكم أنه

---

(١) محمود علي مكي "المنصور ابن أبي عامر"**مجلة العربي**، الكويت، العدد ٢٢٤، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ص١٣٦؛ محمد عبدالوهاب خلاف، **رؤية جديدة**، ص٣٤.

(٢) من هذه البيوتات على سبيل المثال: بنو عبدة، بنو شهيد، بنو مغيث.

(٣) محمد خلاف، **رؤية جديدة**، ص٣٤.

(٤) يذكر محمد عنان أن الأجانب والصقالبة تبوأوا وقتئذ ذروة القوة والنفوذ في بلاط قرطبة، وسيطروا على معظم المناصب الكبيرة في القصر والجيش، وكان لهذه السياسة التي أسرف الناصر في اتباعها، أسوأ الأثر في نفوس الزعماء العرب، وفي انحلال قوى الجيش المعنوية. محمد عنان، **دولة الإسلام**، ج٢، ص٤١٣.

قال صراحة حينما اشتكى الناس من بعض تصرفاتهم: «هم أمناؤنا وثقاتنا على الحرم، فينبغي للرعية أن تلين لهم وترفق في معاملتهم فتسلم من معرتهم، إذ ليس يمكننا في كل وقت الإنكار عليهم»[١]. هذا رغم ما عُرف عن الخليفة الحكم من عدل واهتمام بالرعية، فمثلاً تذكر بعض المصادر أنه في عام ٣٥٦هـ/ ٩٦٧م وبّخ الخليفة الحكم عماله على الكور الأندلسية، وعنفهم على جرأتهم، وحذرهم نفسه من سطوته وعقوبته، إذ اتصل به أن أحداً قد زاد بشكل فاحش على رعيته ظلماً[٢].

أما في الحقبة العامرية؛ فقد أحدث الحاجب المنصور بن أبي عامر نقلة نوعية في الإدارة والحكم في الأندلس، طالت تلك النقلة والتغيرات موازين كثيرة لعل من أبرزها إقصائه للكثير من أبناء تلك البيوتات الموالية للأمويين عن الإدارة وصناعة القرار، بل ربما وصل الأمر في أحيانٍ إلى التصفية الجسدية؛ وفي ذلك قال ابن خلدون: «ثم تجرد لرؤساء الدولة ممن عانده وزاحمه فمال عليهم وحطهم من مراتبهم وقتل بعضها ببعض، كل ذلك عن أمر هشام وخطه وتوقيعه حتى استأصل بهم وفرق جموعهم»[٣]. ويبدو أن هذه السياسة من المنصور كانت عامة لأي تجمع يرى فيه إمكانية تشكيل خطورة على مشروعه ونظامه ووحدة الأندلس، فذكر المقري أنه: «كان عرب الأندلس يتميزون بالقبائل والعمائر والبطون والأفخاذ، إلى أن قطع ذلك المنصور بن أبي عامر الداهية الذي ملك سلطنة الأندلس، وقصد بذلك تشتيتهم وقطع التحامهم وتعصّبهم في الاعتزاء وقدّم القوّاد على الأجناد، فيكون في جند القائد الواحد فرق من كل قبيل، فانحسمت مادة الفتن والاعتزاء بالأندلس، إلاّ ما جاءت على غير هذه الجهة»[٤].

---

(١) ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص٢٥٩.

(٢) ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص٢٣٩.

(٣) ابن خلدون، **تاريخ**، ج٢، ص١٥٣٩.

(٤) المقري، **نفح**، ج١، ص٢٩٣.

في المقابل قام المنصور محمد بن أبي عامر، بجلب أعداد كبيرة من البربر والصقالبة لخدمة مشروعه، فأسند إليهم المناصب الكبرى في الجيش والإدارة،«وأخر رجال العرب وأسقطهم عن مراتبهم»[١].

وبذلك يمكن القول إنه ما إن اقترب القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي على الانتهاء حتى تحولت موازين قوى كثيرة في مكانة بعض البيوتات والأسر فاضمحلت بعضها، وبرزت أخرى على مسرح الأحداث السياسية، فكان لها أدوار سياسية واضحة خلال القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي في الأندلس، كأسرة بني جهور في قرطبة، وبني عباد في إشبيلية، وبني ذي نون في طليطلة، وبني تجيب في سرقسطة.

٣. الكثافة السكانية في الطبقة العامة:

قبل أن نشرع في الحديث عن التحول الذي طرأ في طبقة العامة حري بنا أن نعرج قليلاً لنتعرّف على مفهوم هذا المصطلح وماهيته؟ والحق أنه اختلف بعض المؤرخين والباحثين في تعريفه وتحديده بشكل دقيق، فمثلاً ذكر ابن حزم أنهم عُمار الأرض وفلاحيها[٢]. ويصفهم أحمد بدر بأنهم سواد الناس في المدن[٣]، ويذكر عمر إبراهيم أنها الطبقة التي تحصل على قوتها من عمل أفراده[٤]، وذكر محمد عبود أن هذا المصطلح يشمل الفلاحين والعمال والعبيد والطبقة الوسطى الصغيرة[٥]. بينما يرى أحمد الطاهري أنه من الخطأ اعتماد مقياس نظري جاهز لحصر العامة،

---

(١) المقري، **نفح**، ج١، ص٣٩٧.

(٢) ابن حزم، **رسالة التخليص، رسائل**، م٢، ص١٧٥.

(٣) أحمد بدر، **تاريخ الأندلس**، ج٢، ص٢٣٢.

(٤) عمر إبراهيم توفيق، **صورة المجتمع الأندلسي في القرن الخامس للهجرة، سياسياً واجتماعياً وثقافياً**، (الأردن: دار غيداء للنشر والتوزيع، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م)، ص٩٩.

(٥) محمد عبود، **جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري**، (تطوان: المعهد الجامعي للبحث العلمي، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م)، ص١٩.

خصوصاً أنهم ليسوا طبقة اجتماعية واحدة محددة، فالمفهوم ينسحب على بعض الفئات، ويرتفع عنها تبعاً لطبيعة المرحلة التاريخية. لذا يرى أن مفهوم العامة عشية ظهور الخلافة في قرطبة يستند إلى الوضعية الاقتصادية لتحديد عامتها ويحددهم في هذه الأصناف:

الطبقة المنتجة: وتحتوي على شريحتين:

الأولى: لا تملك وسائل الإنتاج وتتضمن: متعلمي الحرف والصناع بالمدينة، الفلاحين والرعاة.

والثانية: تملك وسائل إنتاجها، وتجمع بين أرباب الحرف والفلاحين الصغار الذين حافظوا على أراضيهم في ظل سيادة الاقطاع. الطبقة الثانية الشغيلة غير المنتجة كالتجار الصغار والباعة والسقائين والقائمين على النظافة والنقل والبناء...

الطبقة الثانية: العاطلون(١). وحتى لا ندخل في متاهات المصطلح وتفرعاته، سنتقيد في حديثنا عن العامة هنا على ما ذكره المؤرخون المعاصرون لتلك الحقبة في حديثهم عنهم بلفظ "عامة قرطبة" كمصطلح أطلقوه على السواد الأعظم من أهل قرطبة الذين شاركوا في بعض الأحداث المهمة فيها.

لقد شهدت قرطبة خلال مرحلة الخلافة كثافة سكانية واضحة، والشواهد والمؤشرات على ذلك كثيرة، منها تأكيد بعض المؤرخين على أعدادهم الكبيرة، فمثلاً ذكر ابن حوقل الذي زار الأندلس في منتصف القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي(٢) عن حجم سكان قرطبة: «لا بالجزيرة والشام ومصر ما يدانيها في كثرة أهل..»(٣). بينما يؤكد ابن عذراي كثافة العامة

---

(١) أحمد الطاهري، **عامة قرطبة**، ص٤٤-٤٥.

(٢) يذكر ياقوت الحموي أن ابن حوقل زار الأندلس في حدود سنة ٣٥٣هـ؛ بينما ابن حوقل نفسه ذكر أن زيارته كانت في أول عام ٣٣٧هـ الحموي؛ ياقوت بن عبدالله، **معجم البلدان**، (بيروت: دار الفكر. د.ت)، ج٤، ص٣٢٤؛ ابن حوقل، **صورة**، ص١٠٤.

(٣) ابن حوقل، **صورة**، ص١٠٧.

في قرطبة في تلك الحقبة حينما ذكر تجمعهم لمشاهدة أحد الاستعراضات العسكرية بقوله: «خلقٌ لا يحصيهم إلا خالقهم»[١]. واختلف بعض الباحثين في تحديد عدد سكان قرطبة في تلك الحقبة، فمثلاً ينقل السيد سالم عن توريس بلباس أن عدد سكان قرطبة في أزهى عصورها قارب من مئة ألف، بيد أنه يرى مبالغة في هذا الرقم بالنسبة لسكان المدن في العصور الوسطى[٢]، وهذا خلاف ما ذهب إليه غوستاف لبون[٣] وأنور شحنه[٤] بأن عدد سكان قرطبة تجاوز المليون، بينما يرى أحمد فكري أن عدد سكان قرطبة مع نهاية عصر المنصور كان نصف مليون نسمة[٥]. ويبدو أن الرقم قارب المليون خصوصاً إذا عرفنا أن عدد الدور التي أحصيت للرعية في تلك الحقبة فاق المئتي ألف دار! [٦]، كذلك يمكن تأكيد ذلك

(١) ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص٢٢٢.

(٢) السيد سالم، **قرطبة**، ج١، ص١٧٦.

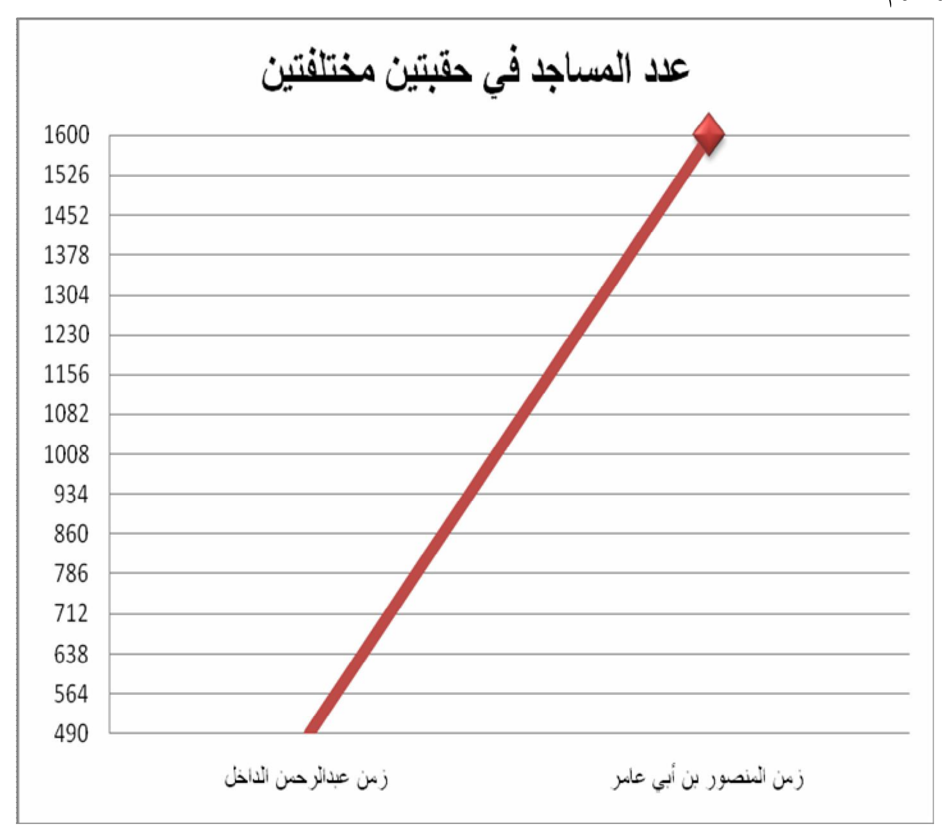
(٣) غوستافلبون، **حضارة العرب**، ترجمة عادل زعيتر، (مصر:مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٢)، ص٢٨٧.

(٤) Chejne,Anwarg. **Muslim spain**,p135.

(٥) أحمد فكري، **قرطبة**، ص٢٤٧.

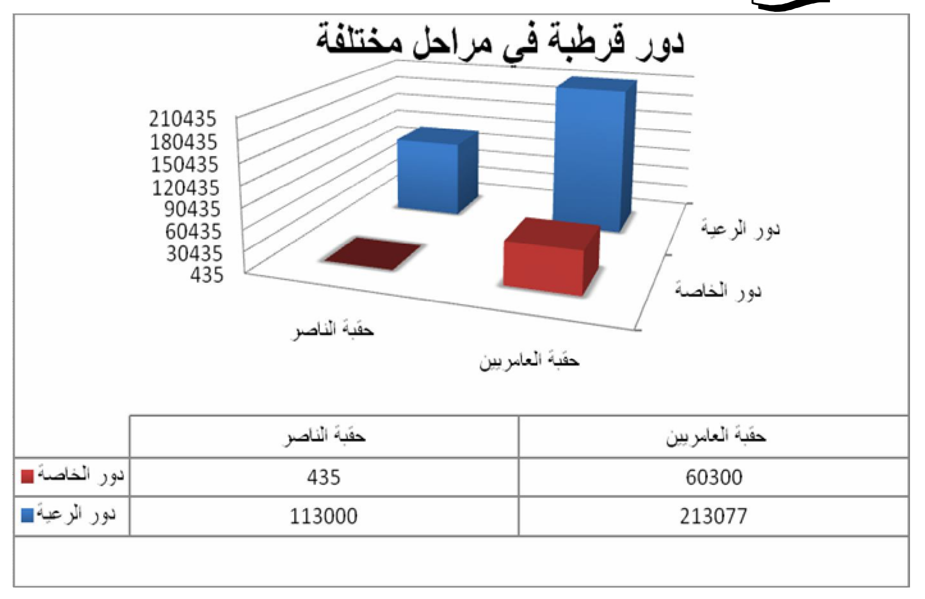
(٦) ذكرت بعض المصادر أن عدد الدور التي أحصيت زمن المنصور بن أبي عامر في قرطبة وأرباضها كان (٢١٣٠٧٧) ألف دار؛ هذه دورالرعية أما دور الأكابر والوزراء والكتاب والأجناد الخاصة وخاصة الملك فكانت (٦٠٣٠٠)ألف. وإذا ما قمنا بعلمية حسابية تقريبية فجعلنا لكل بيت من بيوت العامة ثلاثة أشخاص كمعدل متوسط نجد أن العدد يربو على (٦٣٩٢٣١) نسمة بينما لو أعطينا خمسة أشخاص للطبقة الخاصة كمعدل متوسط -هذا إذا أخذنا بالاعتبارعدد خدمهم وحواشيهم-نجد العدد يربو على (٣٠١٥٠٠) نسمة، ويكون العدد الكلي(٩٤٠٧٣١) أي قارب المليون نسمة كنسبة تقريبية. هذا إذا أضفنا أن قرطبة في حقبة الدراسة كانت تتصل بيوتها بمدينة الزهراء التي تبعد حوالي ستة كم عن قرطبة، وكذلك تتصل بمدينة الزاهرة وفي ذلك ذكر الشقندي: «أن العمارة في مباني قرطبة والزاهرة والزهراء اتصلت إلى أن كان يمشي فيها لضوء السرج المتصلة عشرة أميال». انظر: المقري، **نفح**، ج١، ص٥٤١؛ ج٣، ص٢١٦؛ وانظر: لصورة جوية حديثة لقرطبة أدناه؛ص٢١٦.

من خلال أعمال الزيادات الكثيرة التي عملت في جامع قرطبة[١]، إضافة إلى أعداد المساجد وبعض الخدمات العامة التي أحصيت في قرطبة في حقب تاريخية مختلفة لنرى البون الشاسع بينها لمصلحة قرطبة في حقبة الدراسة عمّا سبقها من حقب تاريخية، والذي يدلل على مدى الطفرة السكانية التي شهدتها قرطبة خلال هذه المرحلة، ويمكن أن نرى ذلك من خلال الرسوم البيانية التالية[٢]:



(١) حول هذا الموضوع انظر: ، السيد عبدالعزيز سالم، **المساجد والقصور في الأندلس**، (الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٦م)، ص١٢-٢٧.

(٢) انظر: لتلك الأرقام عند؛ المقري، **نفح**، ج١، ص٥٤٠-٥٤١.



	حقبة الناصر	حقبة العامريين
دور الخاصة	435	60300
دور الرعية	113000	213077

كذلك يمكن أن نخرج من ذلك أن هذه الإحصائيات التي اهتمت حكومات قرطبة على عملها بين الفينة والأخرى للدلالة على مدى استشعارها بأهمية تفادي المشكلات التي من الممكن أن تحدث في ظل هذا التزايد السكاني الواضح والمستمر والذي يتطلب معه وضع حلول آنية، إضافة لوضع خطط استراتيجية بعيدة المدى.

كما أنه من الممكن معرفة مدى الكثافة التي باتت تتمتع بها تلك الطبقة بتتبع الأحداث التاريخية خلال هذه الحقبة، إذ تؤكد المصادر التاريخية أن الخليفة الثائر محمد(المهدي) بن هشام بن عبدالجبار- والذي كانت العامة سنده في الإطاحة بالعامريين- كان العدد المثبت منهم في العطاء خمسين ألفاً[(١)]، كذلك حينما انهزم ابن عبدالجبار وانتصر عليه البربر بمساعدة نصارى الشمال قتلوا من أهل قرطبة نيف على الثلاثين ألف[(٢)]، وقبل ذلك حينما أنزلت جثة عبدالرحمن (شنجول) عن الخشبة التي صلب فيها ودفن في دار أبيه ودفن الناس موتاهم

(١) ابن الخطيب، **أعمال**، ج٢، ص١١١.

(٢) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٨٢-٨٣.

فأحصى من قتل من أهل قرطبة فكان العدد يتجاوز عشرة آلاف قتيل[١]. إن مثل هذه الأعداد تؤكد مدى النسبة السكانية المرتفعة التي تتمتع بها قرطبة خاصة في طبقة العامة.

ولا ريب أن للعوامل السياسية والاقتصادية دوراً كبيراً في عملية التضخم السكانية التي شهدته قرطبة لاسيما في الطبقة العامة، فالمشاريع السياسية تتطلب قوة عسكرية خاصة في مضاعفة أعداد الجيش، والنهضة الاقتصادية والعمرانية التي شهدتها قرطبة خلال حقبة الخلافة، تتطلب المزيد من الأيدي العاملة المهنية والحرفية، كما أن قرطبة باتت مغرية لطلاب العمل من الحرفيين والمهنيين وغيرهم لوجود بيئة حاضنة لهم، كذلك فإن مظاهر الترف والغنى التي باتت شائعة في قرطبة خلال هذه المرحلة تتطلب مزيداً من الخدم والعمال للعمل في بيوت أصحاب الطبقات الميسورة والوسطى[٢].

٤. شريحة غير المسلمين اليهود - النصارى:

قبل أن نختم حديثنا في هذا المبحث حري بنا أن نُشير إلى شريحة اجتماعية مهمة ساهمت في تشكيل النسيج الاجتماعي الأندلسي في تلك الحقبة؛ ألا وهي شريحة غير المسلمين من اليهود والنصارى[٣]، وذلك لأن هذه الشريحة باتت تشكل مع المسلمين في الأندلس وحدة اجتماعية شبه متماسكة ضمن أطر جغرافية محددة تحت حكم منظومة سياسية على رأسها أمير أو خليفة مسلم.

ولعل مرد ذلك يرجع إلى تحول اجتماعي طرأ على تلك الشريحة؛ وذلك يعود للتأثير الحضاري للثقافة الإسلامية في البلاد، خصوصاً مع وصول الحضارة الإسلامية إلى درجة

---

(١) ابن بسام، **الذخيرة**، ق١، ج١، ص ٤٤؛ ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٩٠.

(٢) محمدعبدالوهاب خلاف، **قرطبة الإسلامية في القرن الخامس الهجري- الحادي عشر الميلادي الحياة الاقتصادية والاجتماعية**، (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤)، ص٢٦١.

(٣) ذكر أحمد فكري أنه اقتصرت تسمية أهل الذمة على اليهود، بينما النصارى كانوا في الغالب يسمون بالمعاهدين. أحمد فكري، **قرطبة**، ص٢٧٢؛ هامش رقم (١٧) .

متقدمة من الثقافة والتسامح الديني في تلك الحقبة[١]، وحتى نُفَصّل في هذا الجانب، سنحاول أخذ كل طائفة على حِدة؛ فاليهود مثلاً تمتعوا بممارسة حياتهم بشكل طبيعي منذ أن دخل المسلمون أرض شبه الجزيرة الإيبيرية، لذا شكلوا تجمعات بشرية في بعض المدن؛ ففي قرطبة مثلاً كان هناك أكثر من حي يسمى بأسمائهم[٢]، وكانت غرناطة تزخر بأعداد كبيرة من اليهود، لذا سميت بغرناطة اليهود[٣]، ووصف الإدريسي مدينة أليسانة Lucena بمدينة اليهود[٤]، وكذلك

---

(١) يظهر أن ابن عبدون –والذي جاء بعد حقبة الدراسة– حاول منع مثل هذا التسامح في رسالة له، إذ ذكر أنه يجب أن يمنع قرع النواقيس من الكنائس، وألا يرتدي اليهود والنصارى ثياباً معينة وألا يركب أحداً منهم جواداً، وألا يشتري مسلم رداء ارتداه نصراني أو يهودي. انظر: ابن عبدون، محمد بن أحمد التجيبي، **رسالة في آداب الحسبة والمحتسب**، نشره ليفي بروفنسال، (القاهرة: مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٥٥م)، ص٥٠، ص٥١، ص٥٥؛ السيد سالم، **تاريخ المسلمين**، ص١٣٢.

(٢) مثلاً؛ كان هناك الحي اليهودي في قرطبة وهو يقع في الجهة الجنوبية الغربية منها، قريباً من قصر الخلفاء، والجامع الكبير. وذكر خالد الخالدي أنه نتيجة الازدهار الحضاري والعمراني والعلمي في قرطبة في أوائل القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي لاسيما في عهد الناصر، تدفق إليه المهاجرون من مختلف الأجناس والأديان، وكان اليهود من بين أولئك المهاجرين، ولأن الحي اليهودي كان مزدحماً باليهود، ولايمكن أن يستوعب القادمين الجدد، فقد سمح لهم بإقامة حي آخر في شمال المدينة.خالد الخالدي، **اليهود تحت حكمالمسلمين**، ص٩٩؛ وانظر: أدناه؛ لموقع الحي اليهودي في قرطبة من تصميم وتصوير الباحث، ص٢١٥؛ ص٢٢٠.

(٣) الحميري، **الروض**، ص٤٥؛ السيد سالم، **تاريخ المسلمين**، ص١٣٣.

(٤) ذكر الإدريسي أيضاً أن بها ربض يسكنه المسلمون وبعض اليهود، وأن بها مسجد جامع، بيد أن غالبية اليهود يسكنون في جوف المدينة ولا يداخلهم فيها أحد. كما يؤكد ابن أبي أصيبعة أن اليهود كانوا يسكنونها. الإدريسي، **نزهة**، ج٢، ص٥٧١؛ ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم بن خليفة، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، تحقيق مزار رضا، (بيروت: دار مكتبة الحياة، د. ت)، ص٥٣٢.

وصف مدينة طركونة Tarragone[(١)] بـ(طركونة اليهود)[(٢)].

ويذكر ديورانت أن اليهود في الأندلس لما تحرروا من القيود المفروضة على نشاطهم الاقتصادي؛ انتشروا في جميع ميادين الزراعة والصناعة والمال والمناصب العامة، ولبسوا ثياب العرب، وتكلموا لغتهم، واتبعوا عاداتهم، فلبسوا العمامة والأثواب الحريرية الفضفاضة، وركبوا العربات حتى أصبح من العسير تمييزهم عن العرب[(٣)].

بيد أنه يظهر أن اليهود بقوا في محيط اجتماعي شبه منعزل، بدليل وجود أحياء خاصة بهم سواء في العاصمة قرطبة أم بعض المدن الأخرى[(٤)]. لكن هذا لم يمنع مشاركتهم في الحياة الثقافية الأندلسية، إذ أسهموا في ترجمة الكتب العربية إلى العبرية واللاتينية، ونبغ البعض منهم في الطب والفلسفة والفلك والكيمياء[(٥)].

أما النصارى، فقد حظوا كذلك بحرية في ممارسة شعائرهم الدينية[(٦)]، وللتدليل على ذلك ما وصفه الإدريسي لإحدى كنائس الأندلس بقوله: «ولاسبيل لأحد من المجتازين بها

---

(١) طركونة Tarragone: تقع شمال شرق الأندلس، مطلة على البحر الأبيض المتوسط، يتواجد بها الرخام الأبيض والأسود. الحميري، **الروض**، ص٣٩٢.

(٢) الإدريسي، **نزهة**، ج٢، ص٧٣٤.

(٣) ول وايريل ديورانت، **قصة الحضارة**، ترجمة محمد بدران، (بيروت، تونس: دار الجيل، جامعة الدول العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، د.ت)، ج٣، م٤، ص٥١.

(٤) كالحي اليهودي في قرطبة، والحي اليهودي في سرقسطة، انظر: خالد الخالدي، **اليهود تحت حكم المسلمين**، ص٩٩، ص١٥٦.

(٥) أمثال حسداي بن شفروط طبيب الخليفة عبدالرحمن الناصر، وموسى بن ميمون الفيلسوف، إبراهيم بن سهل الإسرائيلي الشاعر. السيد سالم، **تاريخ المسلمين**، ص١٣٣.

(٦) كان في كل مدينة رئيس لهم يعرف بالقومس، وكان لهم أيضاً قاضٍ نصراني يفصل في منازعاتهم يعرف بقاضي العجم. ابن القوطية، **تاريخ**، ص٥؛ السيد سالم، **تاريخ المسلمين**، ص١٣٠.

أن يخرج منها حتى يأكل من ضيافة الكنيسة ضريبة لازمة وسيرة دائمة لا ينتقلون عنها ولا يتحولون منها، ورثها الخلف عن السلف وهو متعارف دائم، والكنيسة في ذاتها كنيسة عامرة بالقسيسين والرهبان، وبها أموال مدخرة وأحوال واسعة، وأكثر هذه الأموال محبسة عليها في أقطار الغرب وبلاده وينفق منها على الكنيسة وخدامها وجميع من يلوذ بها مع ما يكرم به الأضياف الواردون على الكنيسة المذكورة قلوا أم كثروا»[١].

ومثل هذا النص يؤكد ما ذكرته آن كريستيس من أن الكنيسة تمارس شؤونها دون أي إزعاج من السلطات الإسلامية في قرطبة[٢]. بل كانت تقرع نواقيس كنائسهم بشكل علني، ويظهر ذلك مما ذكره ابن حزم من نظم له قال فيه:

أتيتني وهلال الجو مطلع ... قبيل قرع النصارى للنواقيس[٣]

ويبدو أن سماع مثل تلك الأصوات ومشاهدة رجال الدين النصارى بملابسهم الدينية بات أمراً غير مستفز، بل حظي ببعض الإعجاب والتقدير في بعض الأحيان في المجتمع القرطبي، ويتضح ذلك مما وصفه الشاعر أحمد بن شهيد (ت٤٢٦هـ/ ١٠٣٥م)[٤] لإحدى الكنائس وما شاهده فيها فذكر من ذلك:

«قرع النواقيس يبهج سمعه ... وبرق الحميا يسرج لمعه

---

(١) الإدريسي، **نزهة**، ج٢، ص٥٤٤.

(٢) انظر:

Ann Christys, **Christians in al-Andalus700-1000**, England:Curzon Press 2002),53p(

(٣) ابن حزم، **طوق، رسائل**، م١، ص٢٨٢؛ السيد سالم، **تاريخ المسلمين**، ص١٣١.

(٤) أبوعامر، أحمد بن عبدالملك بن مروان بن عبدالملك ابن شهيد، ولد في خلافة هشام بن الحكم، شاعر وأديب مشهور. ابن بسام، **الذخيرة**، ق١، ج١، ص١٥٤ وما بعدها؛ الذهبي؛ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، **العبر في خبر من غبر**، تحقيق صلاح الدين المنجد، (الكويت: مطبعة حكومة الكويت، ١٩٨٤)، ج٣، ص١٦١.

والقس قد برز في عبدة المسيح متوشحاً بالزنانير أبدع توشيح..»[١]. بل إن بعض المسلمين شاركوهم بالاحتفال بمناسباتهم الدينية[٢].

إن هذا التسامح الواضح الذي أظهره المسلمون لأبناء بلدهم من النصارى جعل الكثير منهم ينخرط في الحياة العامة الأندلسية، فشاركوا في خدمة الجيش، وعملوا في وظائف الدولة الإدارية، وتولوا مناصب كبيرة في الدولة[٣].

كذلك تأثير الحضارة العربية الإسلامية على الحياة الأندلسية والذي ألقى بظلاله على الحضارة اللاتينية المسيحية فظل يستشري مع مرور الوقت حتى طال تأثيرها اللغة، والثقافة اللاتينية، بل تجاوز ذلك إلى المجال الديني والعادات الاجتماعية.

وعليه؛ يظهر أن ثمة تحولاً اجتماعياً طرأ على تلك الشريحة، حتى باتت تشعر بأندلسيتها، ولا أدل من ذلك أننا لم نجد أثناء الحرب الأهلية التي عصفت بقرطبة بعد سقوط العامريين أن تعرضت الكنائس أو الأديرة لأي تخريب كما حصل لأجزاء كبيرة من مدينة قرطبة[٤].

وربما تكون لهؤلاء مشاركة في الأحداث بيد أنها قد تكون ضمن إطارها الطبقي بمعنى أنها كانت ضمن حزب الأندلسيين ضد البربر الطارئين.

---

(١) ابن خاقان، الفتح بن خاقان، **مطمح الأنفس ومشرح التأنس في ملح أهل الأندلس**، تحقيق مديحة الشرقاوي، ط٢، (القاهرة: مكتب الثقافة الدينية، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م)، ص٨٣؛ المقري، **نفح**، ج١،ص١٣٢.

(٢) كالاحتفال بالأعياد النصرانية. انظر: أدناه، ص١٢٨.

(٣) الخشني، **قضاة**، ص١١١؛ دوزي، **تاريخ المسلمين**، ج١، ص٨٥.

(٤) محمد خلاف، **قرطبة**، ص٢٦٢.

(ب) التحولات في السلوك الاجتماعي:

- الترف:

شهد القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي انتعاشاً اقتصادياً كبيراً للأندلس وهو انعكاس للحالة السياسية والأمنية الجيدة التي باتت تنعم بها قرطبة خصوصاً والأندلس بشكل عام، وقد ظهرت مؤشرات كثيرة تبين مدى ما وصلت إليه الحالة الاقتصادية من غنى، من خلال مظاهر الحياة المترفة التي بات ينعم بها العديد من سكان قرطبة سواء من الطبقة الحاكمة أم من الطبقات الاجتماعية المختلفة، ولعل شواهد ذلك كثيرة منها حينما لام قاضي الجماعة بقرطبة منذر بن سعيد البلوطي (ت٣٥٦هـ/ ٩٦٦م)(١) الخليفة عبدالرحمن (الناصر) على إسرافه في البنيان والرفاهية التي زين بها مدينته الزهراء.

ويظهر أن مثل تلك الأصوات التي تميل إلى الزهد وحياة التقشف لم تؤثر كثيراً في هذا الجانب، إذ إننا نجد أن المنصور بن أبي عامر بعدها يبني مدينة ملكية ظاهر بها الزهراء وأسماها الزاهرة، هذا رغم ما عرف عن المنصور محاولته إظهار التواضع(٢) وحرصه على

---

(١) أبو الحكم؛ منذر بن سعيد البلوطي، منسوب إلى موضع قريب من قرطبة، يسمى فحص البلوط، كما يقال له الكزني نسبه إلى فخذ من البربر اسمه كزنة، ولي قضاء الجماعة بقرطبة في عهد عبدالرحمن (الناصر). كان عالماً فقيهاً، أديباً بليغاً، خطيباً على المنابر، كان يميل إلى القول بالظاهر، ومن مصنفاته كتاب "الإنباه على استنباط الأحكام من كتاب الله"، وكتاب "الإبانة عن حقائق أصول الديانة". ابن الفرضي، **تاريخ**، ج٢، ص١٢٧؛ الحميدي، **جذوة**، ص٣٣٩؛ الفتح بن خاقان **مطمح**، ص١١٢؛ الضبي؛ **بغية**، ص٤٣١.

(٢) كقوله ذات مرة لأحد كتابه إنما أنا ابن امرأة من تميم، طالما تقوّتت من غزلها، أغدو به إلى السوق وأنا أفرح الناس بمكانه. ابن الأبار، محمد بن عبدالله القضاعي، **أعتاب الكتاب**، تحقيق صالح الأشتر، (دمشق: مطبوعات مجمع اللغة العربية، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م)، ص١٩٨.

كسب طبقة المتدينين[1]. ولعل الحالة استمرت حتى وصلت ذروتها زمن المظفر عبدالملك إذ «سكن الناس منه إلى عفاف ونزاهة نفس، فباحوا النّعمة، وأخذوا في المكاسب والزّينة من المراكب والملابس والقيان، حتى سمعت أثمان هذه الأشياء في مدته»[2].

إن الحالة الاقتصادية الجيدة التي مرت بها الأندلس أنتجت ثقافة تميل إلى الكماليات والترف، وباتت تسيطر على المجتمع بشكل واضح، سواء في طريقة عيشه أم نمط تفكيره، لذا بات الاهتمام بالأشياء الكمالية واضحاً في قرطبة، ويدلل على ذلك ما كتبه الأندلسيون في هذا الجانب فمثلاً ألّف أحمد بن عبدالملك ابن شهيد رسالة في الحلوى، صور خلالها مدى الوله والتعلق بالحلوى الذين كان عليه أحد أصحابه حينما كانوا عند باب أحد الدكاكين التي تبيع الحلوى، كما عدد خلال رسالته أصناف مختلفة من الحلوى التي كانت تباع هناك[3]. وهي تبين مدى انتشار هذه الأصناف من المأكولات في الأندلس ومدى اهتمام الناس بها.

أما الملبس فقد تُفنن في طريقة لباسه، وبات لكل مرحلة من السنة ملابس معينة محددة، وتلك طريقة ابتكرها زرياب وساروا عليها[4]. كما بات الملبس مجالاً للفخر والتباهي في

---

(١) يجب أن ننوه أنه كان لبنائها أسباب سياسية بالدرجة الأولى كالبعد عن مركز الأمويين ومؤيديهم في الزهراء.

(٢) ابن بسام، **الذخيرة**، ق٤، ج٧، ص٥٧-٥٨.

(٣) ابن شهيد؛ أحمد بن عبدالملك بن مروان الأندلسي، **رسالة في التوابع والزوابع**، تحقيق بطرس البتاني، ط٣، (بيروت: دار صادر، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م)، ص١١٩؛ نادر فرج زيادة، **الترف في المجتمع الإسلامي الأندلسي٩٢هـ-٧١١م/ ٦٦٨هـ-١٢٦٩م)**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية غزة، ص١٠٦.

(٤) فصل المقري في هذه المسألة فقال: «ولبسه كل صنف من الثياب في زمانه الذي يليق به، فَإنه رأى أن يكون ابتداء الناس للباس البياض وخلعهم للملون من يوم مهرجان أهل البلد المسمى عندهم بالعنصرة الكائن في ست بقين من شهر يونيو الشمسي من شهورهم الرومية، فيلبسونه إلى أول شهر أكتوبر الشمسي منها ثلاثة أشهر متوالية، ويلبسون بقية السنة الثياب الملونة». المقري، **نفح**، ج٣، ص١٢٨.

بعض الأحايين، ولذلك كتب محمد الزبيدي (ت٣٨٠هـ/ ٩٩٠م)[١] إلى أحد أصحابه أبياتاً ينكر عليه افتخاره بثيابه ومركبه فقال:

أبـــا مـــسلم إن الفتـــى بجنانـــه وقولـــه لا بالمراكـــب واللـــبس

وليـــست ثيـــاب المـــرء تغنـــي قُلامـــةً إذا كـــان مقـــصوراً عـــلى قِـــصَر الـــنَّفس

ولـــيس يُفيـــدُ العِلـــم والحِلـــم والحَجَـــا أبـا مـسلم طـول القعـود عـلى الكـرسي[٢]

ومن مظاهر الترف أيضاً؛ الاهتمام بإقامة الاحتفالات الباذخة سواء أكانت دينية أم عامة أم حتى خاصة، فمثلاً؛ نجد أن أندلسيين احتفلوا بأعياد دينية مثل المولد النبوي، ويوم عاشوراء، ونصف شعبان، والسابع والعشرين من رمضان[٣]، بل شاركوا بالاحتفال في الأعياد غير الإسلامية، مثل عيد النيروز[٤]؛ ويعرف بالإسبانية: نبيداد (Navidad)، وعيد

---

(١) أبو بكر؛ محمد بن الحسن الزبيدي النحوي، اللغوي، من علماء اللغة والنحو، ألّف في النحو كتاباً سماه "الواضح" واختصر كتاب"العين"، وجمع في "الأبنية"، وفي"لحن العامة" وفي "أخبار النحويين" كتباً مشهورة، وفي غير نوع من الأدب، وكان شاعراً كثير الشعر. الثعالبي، عبدالملك بن محمد بن إسماعيل، **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، (بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م)، ج٢، ص٦٠؛ الحميدي، **الجذوة**، ص٥٢؛ الضبي، **البغية**، ص٦٤.

(٢) الحميدي، **الجذوة**، ص٥٢- ٥٣؛ نادر فرج، **الترف في المجتمع**، ص١١٩.

(٣) الزجالي؛ عبيدالله بن أحمد القرطبي، **أمثال العوام في الأندلس مستخرجة من كتابه ري الأوام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام**، تحقيق محمد بن شريفة، (فاس: منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م)، ج١، ص٢٤٠؛ أحمد مختار العبادي، "الأعياد في مملكة غرناطة"، **مجلة معهد الدراسات الإسلامية**، مدريد، ١٩٧٠م، م١٥، ص١٤٠؛ عصمت عبداللطيف دندش، **الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني ٥١٠-٥٤٦هـ/ ١١١٦-١١٥١م**، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، ص٣٢٥.

(٤) يبدو أن مثل هذه الأوقات كانت مناسبة لإقامة الاحتفالات الخاصة كالأعراس، فذكر ابن عذاري أن محمد بن أبي عامر تزوج من أسماء بنت غالب الناصري في ليلة النيروز. ابن عذاري، **البيان**، ج٢،ص٢٦٧.

العنصرة (المهرجان) ويعرف بالإسبانية بعيد سان خوان (San juan)[١] ، وخميس أبريل وغيرها[٢]. ووصل الأمر إلى إقامة احتفالات باذخة بمناسبات كختان الأولاد، إذ أقام المنصور بن أبي عامر احتفالاً كبيراً لختان أولاده، فختن معهم أولاد عدد كبير من أهل دولته، صرف فيها مبلغاً قدّر بخمسمئة ألف دينار[٣].

أما الاحتفالات الخاصة، فيبدو أيضاً أن تكاليفها كانت باهظة، ويظهر أن كلفة معونتها تقع على الزوجة وأهلها، ويمكن أن نستشف هذا الأمر من حادثة أحد خواص الخليفة الحكم (المستنصر بالله) التي مسته ضائقة شديدة وكان على موعد لتزويج ابنته ويريد تجهيزها بما يليق برجل بمكانته، فاضطر لمحاولة بيع لِجام محلّى ثقيل الوزن رديء العيار لكن لم يرغب أحد من التجار فيه، فلم يجد بُداً من الذهاب لصاحب السكة -وقتئذ- محمد بن أبي عامر لصيته الواسع بالكرم؛ فيقول هذا الرجل عن مقابلة ابن أبي عامر له: «فسارع بأطلقِ وجهٍ وقال: سَر إليَّ بدار الضّرب؛ فجئته وأوصلني إلى نفسه بالدراهم المطبوعة بين يديه، وأومأ إليَّ فأخرجت اللجام وأنا خائف من صرفه لسُقوط عياره، فو الله ما نظر إليه ولا عايره... فأخذت ما لم يدر في وهمي أني أظفر مثله... فجهزت بنتي، وفضل لي شيءٌ يكفيني»[٤].

---

(١) محمد بشير العامري، **دراسات حضارية في التاريخ الأندلسي**، (الأردن: دار غيداء، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م)، ص١٥.

(٢) يبدو أن مثل تلك الاحتفالات استمرت في المجتمع الأندلسي لعهود لاحقة يؤكد ذلك الطرطوشي بقوله: «من البدع اجتماع الناس بأرض الأندلسعلى ابتياع الحلوى ليلة سبع وعشرين من رمضان. وكذلك على إقامة (ينير) بابتياع الفواكه؛ كالعجم، وإقامة العنصرة، وخميس إبريل؛ بشراء المجبنات والإسفنج، وهي من الأطعمة المبتدعة، وخروج الرجال جميعاً أو أشتاتاً مع النساء مختلطين للتفرج..». الطرطوشي؛ محمد بن الوليد بن محمد القرشي، **الحوادث والبدع**، اعتنى به علي بن حسن الحلبي، (السعودية:دار ابن الجوزي، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م)، ص١٥٠-١٥١.

(٣) المقري، **نفح**، ج١، ص٥٩٦.

(٤) ابن بسام، **الذخيرة**، ق٤، ج٧، ص٤٧-ص٤٨.

ويجب هنا ألا نغفل ظاهرة انتشار الغناء والموسيقى، وتأثيرها في المجتمع الأندلسي بشكل واضح، وربما أنه لشغف الأندلسيين بتلك المجالس، ابتكروا فن الموشحات[١]، والذي يعتبر فناً أندلسياً خالصاً[٢]، فابن بسام يذكر أن أهل الأندلس هم الذين وضعوا حقيقة صنعة التوشيح ونهجوا طريقتها[٣].

ولعل مثل تلك الاهتمامات بالشعر والغناء، أنتج ثقافة لدى الأندلسيين في طريقتهم لاستقبال ضيوفهم يكون النشيد والغناء وسيلة ترحيب بالضيوف؛ فمثلاً ذكر ابن حزم أن القاضي محمد بن أبي عيسى الليثي[٤] كان في دار رجل من بني حُدير وكانت له جارية تغني لهم أبياتاً من الشعر، فقام القاضي بكتابتها على باطن كفه[٥]. كذلك حينما استقبل أحد الأندلسيين قاضي الجماعة محمد بن السليم (ت٣٦٦هـ/ ٩٧٧م)[٦] جعل جاريته تتلو عليه

---

(١) اختلف المؤرخون في مخترع هذا الفن؛ فابن بسام يذكر أنه محمد بن محمود القبري الضرير، وفي رواية أنه ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد هو أول من سبق إلى هذا النوع من الموشحات. وابن خلدون يقول إنه مُقدم بن معافى القبري، وأخذ عنه أحمد بن عبدربه. ابن بسام، **الذخيرة**، ق١، ج١، ص٣٦٢؛ ابن خلدون، **المقدمة**، ٦٧٢؛ للمزيد انظر: عبدالعزيز عتيق، **الأدب العربي في الأندلس**، (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٦م)، ص٣٤٢.

(٢) عبدالعزيز عتيق، **الأدب العربي**، ص٣٣٩.

(٣) ابن بسام، **الذخيرة**، ق١، ج١، ص٣٦١؛ عبدالعزيز عتيق، **الأدب العربي**، ص٣٣٩.

(٤) محمد بن أبي عيسى من بني الفقيه المعروف يحيى بن يحيى الليثي، ولي قضاء الجماعة في قرطبة، قال عنه الحميدي: «كان فقيهاً جليلاً عالماً موصوفاً بالعقل والدين». الحميدي، **جذوة**، ص٨٠-٨١.

(٥) الحميدي، **جذوة**، ص٨٠-٨١؛ السيد السالم، **قرطبة**، ج٢، ص٨٣.

(٦) أبو بكر، محمد بن إسحاق بن منذر بن السليم، قرطبي، من الفقهاء المشهورين، له رحلة إلى المشرق عام ٣٣٢هـ/ ٩٤٢م، ثم عاد إلى الأندلس فأقبل على الزهد ودراسة العلم، ثم تولى أحكام المظالم، وبعد وفاة قاضي الجماعة منذر بن سعيد البلوطي ولي القضاء بقرطبة عام ٣٥٦هـ/ ٩٦٦م واستمر فيه حتى وفاته. للمزيد انظر: ابن الفرضي، **تاريخ**، ج٢، ص٧٣؛ الحميدي، **جذوة**، ص٥٠، عياض، **ترتيب**، ج٤،ص٥٤٨؛ السيوطي؛ جلال الدين عبدالرحمن، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، ط٢، (مصر: دار الفكر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)، ج١، ص٥٣.

بعض آيات من القرآن الكريم ثم أنشدت له، فلم نجد ممانعة من القاضي أو إنكاراً على عملها، بل استحسن ذلك وكافأها عليه بأن ترك لها عشرين ديناراً تحت الفراش[1].

ويبدو أن طبقة المغنين والمغنيات لم تعد من الطبقات المزدرية أو المنبوذة في المجتمع الأندلسي، بدليل أن بعض الساسة والطبقة العليا تزوج من مغنيات فمثلاً الحاجب عبدالملك (المظفر) بن المنصور تزوج من مولاته وجد بنت الجنان[2]، بل اشتهر من الطبقة الحاكمة أمراء وأميرات من البيت الأموي في مجال الغناء والموسيقى[3]، كالأمير المطرف بن محمد بن عبدالرحمن الأوسط[4]، والأميرة ولادة بنت المستكفي[5] (ت٤٨٤هـ/ ١٠٩١م) وغيرهما[6]. بل إن المصادر تذكر أن الخليفة الحكم (المستنصر بالله) حينما بلغه أن أبا الأصبغ

---

(١) الحميدي، **جذوة**، ص ٨٠-٨١.

(٢) ذكر ابن حزم كلف المظفر بها وقال ابن بسام عنها: «أخذت الغناء من محسنات قِيانه..». انظر: ابن حزم، **طوق، رسائل**، م١، ص٩٢؛ ابن بسام، **الذخيرة**، ق١، ج١ ص١٠٥.

(٣) السيد سالم، **قرطبة**، ج٢، ص٩٥.

(٤) أبو القاسم، المطرف بن محمد بن عبدالرحمن الأوسط، يعرف بابن غزلان، وهي أمّه، وكانت مغنية، كان شاعراً، وعالماً بالغناء، توفي وهو ابن أربع وعشرين سنة. ابن الأبار، **الحلة**، ص٧٩؛المقري، **نفح**، ج٣،ص٥٨١.

(٥) ولادة بنت محمد بن عبدالرحمن بن عبيد بن الناصر، أديبة وشاعرة، كانت تخالط الشعراء وتساجل الأدباء، قال عنها ابن بسام: «كانت في نساء أهل زمانها، واحدة أقرانها..وحسن منظر ومخبر.. وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر. وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر...»،ابن بسام، **الذخيرة**، م١، ج٢، ص٣٣٢. انظر: ترجمتها عند؛ ابن بشكوال، **الصلة**، ص٥٣٤؛ ابن دحية، عمر بن حسن، **المطرب من أشعار أهل المغرب**، تحقيق إبراهيم الإبياري، حامد عبدالمجيد، أحمد بدوي، (بيروت: دار العلم للجميع، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م)، ص٧.

(٦) ذكر ابن حزم أيضاً؛ من بني مروان الذين اشتهروا بالغناء؛ كعثمان وإبراهيم ابنا محمد بن عبدالرحمن بن الحكم. انظر: ابن حزم، **جمهرة**، ص٩٩.

عبدالعزيز بن عبدالرحمن الناصر[١] والذي كان مغرماً بالخمر والغناء، قد ترك شرب الخمر، حمد الله وتمنى عليه أن يترك الغناء أيضاً، فأجابه قائلاً: «والله لا تركته حتى تترك الطيور تغريدها ثم قال:

أنـــا بـــصحة وجـــاه ونعمـــى   هـــي تـــدعو لهـــذه الألحـــان
وكـــذا الطـــير في الحـــدائق تـــشدو   للـــذي سر نفـــسه بالقيـــان[٢]

ويجب أن نشير أن السلوك الاجتماعي للمجتمع الأندلسي في تلك الحقبة، صور بسلبية مبالغ فيها من بعض الباحثين فمثلاً يرى نادر فرج انتشار ظاهرة عشق الغلمان في المجتمع الأندلسي بشكل كبير بل يذهب إلى أبعد من ذلك في اتهام بعض الفقهاء في الوقوع في هذا الأمر كدليل لتفشي هذه الظاهرة[٣]، إذ اتهم الفقيه المعروف ابن حزم بذلك، فقال: «ولعل الأغرب من ذلك وقوع بعض الفقهاء فريسة لظاهرة عشق الغلمان الخطيرة، والتي تنم عن سلوك غير محمود، فهذا ابن حزم كان يسير يوماً بسكة الخطابين مع صديق له، يقال له أبوعمر[٤] في مدينة إشبيلية،

---

(١) أبو الأصبغ؛ عبدالعزيز بن عبدالرحمن الناصر، أديب وشاعر، ظهرت نجابته في الشعر منذ الصغر وقيل إن أول لوح كتبه عند دخوله الكتاب بعث به إلى أخيه الحكم (المستنصر بالله) كان شعراً:

هـــاك يـــا مـــولاي خطـــا   مطـــــه في اللــــوح مطـــــا
ابــــن ســــبع في ســــنيه   لم يُطــــق للــــوح ضـــبطا
لم يقـــل في الـــضاد ظـــاء   فحــــوى لفظـــا وخطًّـــا
دُمـــت يـــا مـــولاي حتـــى   يولـــد ابـــن ابنـــك ســـبطا

الحميدي، **جذوة**، ص٢٨١؛ ابن الأبار، **الحلة**، ص١٢١، المقري، **نفح**، ج٣، ص٥٨٤.

(٢) المقري، **نفح**، ج٣، ٥٨٤؛ السيد سالم، **قرطبة**، ج٢، ص٨٣.

(٣) نادر فرج، **الترف في المجتمع**، ص٢١٩ وما بعدها.

(٤) أبوعمر؛ يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر النمري، فقيه، حافظ مكثر، عالم بالقراءات وبالخلاف بالفقه، كان يميل في الفقه إلى أقوال الشافعي. من أهم مؤلفاته كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب. الحميدي، **جذوة**، ص٣٥٦-٣٥٧.

فلقيهما شاب جميل الوجه فأبدى ابن حزم إعجابه بجماله، فقال أبوعمر لم نر غير الوجه، وربما يكون تحت الثياب غير ذلك[(١)]. فأنشد ابن حزم:

وذي عـــذل فـــيمن ســـباني حـــسنه ... يُطيـــل ملامـــي في الهـــوى ويقـــول

أفيحـــسن وجـــهٍ لاح لم تـــر غَيبـــهُ[(٢)] ... ولم تـــدر كيـــف الجـــسم أنـــت قتيـــل

فقلـــت لـــه: أسرفـــت في اللـــوم ظالمـــاً ... فعنـــدي رد لـــو أردتَ طويـــل[(٣)]

ويورد نادر فرج بعد ذلك تفسيرات لبعض المؤرخين على تلك الحادثة، فيقول إن الذهبي[(٤)] برر لهذه الحادثة وما بدر من ابن حزم بأنها على سبيل الدعابة. ثم يعلق بقوله: «ولكن حتى لو كان ذلك على سبيل الدعابة، فإن على ابن حزم أن يترفع عن مثل تلك الدعابات التي تقلل من شأنه، وتخفض من مكانته العلمية، والدينية المحترمة»[(٥)]. ثم يدلل على حرمة النظر إلى وجه الأمرد إذا كان حسن الصورة مستنداً إلى كلام للنووي في شرحه على صحيح مسلم![(٦)] سواء أكان ذلك بشهوة أم غير شهوة، وسواء أمن الفتنة أم لم يأمنها[(٧)]. ولذلك فلا حجة لمن يحتج بأن ذلك من صغائر الذنوب، فمن الممكن أن تجر هذه النظرة إلى جريمة عظيمة

---

(١) المقري، **نفح**، ج٢، ص٨٣-٨٤. نادر فرج، **الترف في المجتمع**، ص٢٢١-٢٢٢.

(٢) جاءت عند بعض المصادر (غيره).انظر: مثلاً، الذهبي، **سير**، ج٢، ص٢٧٢٩.

(٣) ابن بسام، **الذخيرة**، ق١، ج١، ص١٤٢.

(٤) انظر: الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، **سير أعلام النبلاء**، حسان عبد المنان، (لبنان: بيت الأفكار الدولية، ٢٠٠٤م)، ج٢، ص ٢٧٢٧.

(٥) نادر فرج، **الترف في المجتمع**، ص٢٢١.

(٦) انظر: النووي، يحيى بن شرف، **المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، (القاهرة: المطبعة المصرية بالأزهر، ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٩م)، ج٤، ص٣١.

(٧) نادر فرج، **الترف في المجتمع**، ص٢٢١.

مستقذرة، وهي جريمة اللواط!، ثم يذكر أن ابن حزم نفسه في كتابه طوق الحمامة أشار إلى ضرورة الابتعاد عن مثل هذه المناظر بقوله: «والصالح من الرجال من لا يداخل أهل الفسوق...»[١]، ويعلق على كلام ابن حزم بقوله: «ويبدو في هذا الكلام تناقضاً مع تصرفات ابن حزم التي وردت آنفاً، وربما يكون التبرير الوحيد لمثل هذه التصرفات أن ابن حزم قد فعلها في صباه وقبل أن يبلغ المكانة العلمية التي وصل إليها»[٢]. ثم يذكر أن تأثر بعض الفقهاء كابن حزم بالانحرافات الواقعة في المجتمع الأندلسي قد أثرت فيهم. ثم يستشهد على ذلك بتأليف ابن حزم كتاباً في الحب هو طوق الحمامة..!.

نقول ابتداءً إن هذا الباحث كتب بروح عصره لا بروح عصر ابن حزم، والذي ينبغي أن يتعايش مع عصر ذلك الزمان وتفكير ذلك المجتمع، والذي يختلف بشكل كبير عن عصرنا ليس فقط من الناحية الاجتماعية بل ومن الناحية (الفسيولوجية)، فمثلاً كان الفتيان (العبيد) عنصراً من عناصر المجتمع، وكثير منهم يكونون خصيان[٣]، فربما قصد الفقيه العالم أبو عمر ابن عبدالبر -وهو صاحب ابن حزم في القصة- أن يسقط مسألة الظاهر والباطن في هذه الحادثة، كإسقاط على المذهب الظاهري والذي يعتقد به ابن حزم، وهذا ربما ما فهمه ابن حزم وختم به قصيدته السابقة فقال:

ألم تر أني ظاهري وأنني على ما بدا حتى يقوم دليل[٤]

(١) انظر: ابن حزم، **طوق، رسائل**، م١، ص٢٧٠.

(٢) نادر فرج، **الترف في المجتمع**، ص٢٢١-٢٢٢.

(٣) وهو ما يتضح في الرواية التي جاءت عند الذهبي على لسان ابن عبدالبر: «لعل ما تحت الثياب ليس هناك». الذهبي، **سير**، ج٢، ص ٢٧٢٧.

(٤) ابن بسام، **الذخيرة**، ق١، ج١، ص١٤٢.

وحول هذا المفهوم أورد ابن بسام تلك القصيدة لابن حزم: «وأنشدتُ له أيضاً فيما كان يعتقده من المذهب الظاهري من جملة أبيات يقول فيها وذي عدل..» القصيدة[١].

وعليه؛ يتضح أن المسألة كانت على سبيل الدعابة كما ذكر الذهبي ولا تحتمل كل هذا الغلو في الحكم والذهاب بعيداً فيه، خاصةً أن صاحب ابن حزم في القصة أيضاً كان فقيهاً ثقة ومعروفاً هو الحافظ ابن عبدالبر. ويكفي للدلالة على تشدد الباحث في تعليلاته حينما استشهد بتأليف ابن حزم لكتابه طوق الحمامة وعلله أنه نتيجة لتأثر بعض الفقهاء وابن حزم منهم بالانحرافات الواقعة في المجتمع الأندلسي؟! ولا أظن أن تأليف كتاب يحكي عن الحب وعلاماته وأعراضه فيه شيء من الانحراف! أو السلوك غير الحميد، ولعل ابن حزم نفسه فطن لنظرة بعض المتعصبين لكتابه هذا فكتب في خاتمته أنه سينكر عليه تأليف هذا الكتاب بعض المتعصبين، وسيظنون به بغير ما قصده فقال: «وأنا أعلم أنه سينكر بعض المتعصبين عليّ تأليفي لمثل هذا ويقول: إنه خالف طريقته، وتجافى وجهته. وما أُحل لأحد أن يظنَّ في غير ما قصدته»[٢].

ثانياً: المظهر الاقتصادي:

إن الاهتمام بالشأن الاقتصادي بشتى مجالاته الزراعية والصناعية والتجارية كان واضحاً خلال هذه الحقبة، سواء من قبل ساسة الأندلس أم المجتمع بشكل عام، بيد أن الملاحظ هو أن المجتمع الأندلسي بدأ ينحو بشكل تدريجي من الإنتاج الزراعي إلى الإنتاج الصناعي في ظل الاهتمام المجتمعي بمظاهر الترف والكماليات والمواد الاستهلاكية بشكل عام، وكانت قرطبة -بحكم كونها العاصمة-هي القائدة في هذا الأمر.

---

(١) ابن بسام، **الذخيرة**، ق١، ج١، ص١٤٢.

(٢) ابن حزم، **طوق**، **رسائل**، ج١، ص٣٠٨.

فقرطبة برزت كمنطقة تميل إلى الصناعة وتتميز بها، والشواهد على ذلك عديدة، منها ما ذكره الحميري أن هناك حصناً في شمال قرطبة فيه معدن الزئبق، وفيه يعمل الزنجفور[١]، ومنه يتجهز بالزئبق والزنجفور إلى جميع أقطارالأرض، ويخدم هذا المعدن أكثر من ألف رجلٍ، فقوم للنزول وقطع الحجر، وقوم لنقل الحطب لحرق المعدن، وقوم لعمل أواني السبك والتصفية، وقوم لبنيان الأفران والحرق، ومن وجه الأرض إلى أسفله فيما حكى أكثر من مئة قامة[٢]. ومن الممكن الخروج من هذا النص بعدة نقاط من ذلك؛ أن الصناعة في الأندلس بلغت درجة متقدمة من المهارة والتخصيص والإنتاج، ففي مثل هذا المصنع يتم تجهيز المعادن وصناعتها ثم توزيعها داخلياً أو حتى خارجياً، كذلك يظهر كثرة الأيدي العاملة وتدريبها وتخصيص أعمالها ومهامها. كذلك القدرة الواضحة على استخراج المعادن في عمق مئة قامة. ويذكر أحمد الطاهري أنه إذا أخذنا بعين الاعتبار باقي المناجم ومقاطع الرخام بضواحي قرطبة، أدركنا أهميتها كمنطقة صناعية كبرى، استقطبت أغلبية الأيدي العاملة المحررة حديثاً من القيود الاقطاعية[٣].

إن الاهتمام الواضح الذي أبداه ساسة الأندلس بالقطاع الصناعي قابله رغبة للتعلم ومهارة من قبل الأندلسيين، فمثلاً ذكر ابن عذاري أن الحكم (المستنصر بالله) بعث في طلب متخصص في صناعة الفسيفساء من ملك الروم، فأرسل الأخير مع المختص في هذه الصنعة

---

(١) الزنجفور: صبغ أحمر؛ منه نوعان معدني، ومصنوع، يستخدم لأغراض متعددة لاسيما الطبية كمراهم للجروح ونحوه. الخوارزمي؛محمد بن أحمد بن يوسف، **مفاتيح العلوم**، (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت)، ج١، ص١٤٩؛ ابن البيطار؛ ضياء الدين أبي محمد عبد الله، **الجامع لمفردات الأدوية والأغذية**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م)، ج٢، ص ٤٧٨-٤٧٩؛ الزبيدي، **تاج**، ج١١، ص٤٥٨.

(٢) الحميري، **الروض**، ص٦. والقامة؛ وحدة قياس طولها ستة أقدام تستخدم عادة في قياس أعماق البحر. إبراهيم مصطفى وآخرون، **المعجم الوسيط**، ج٢، ص ٧٦٨.

(٣) أحمد الطاهري، **عامة قرطبة**، ص١٠٧.

ثلاثمئة وعشرين قنطاراً من الفسيفساء كهدية؛ فرتب الحكم مع هذا المختص الأجنبي جملة من مماليكه لتعلم الصناعة؛ «فوضعوا أيديهم معه في الفسيفساء المجلوبة، وصاروا يعملون معه؛ فأبدعوا، وأربوا عليه، واستمروا بعد ذلك منفردين دون الصانع القادم، إذ صدر راجعاً عند الاستغناء عنه، بعد أن أجزل له المستنصر الصلة والكسوة. وتداعى إلى هذه البنية كل صانع حاذق من أقطار الأرض»[١].

إن النشاط الصناعي الواضح في قرطبة يبدو أنه أثر بشكل سلبي في البوادي القريبة منها، وفي ذلك ذكر ابن حزم أن «البوادي التيفي خلال المدن - أي بين المدن- ليس يوجد فيها أبداً أحد يدري شيئاً من العلوم ولا من الصناعات..» [٢]، ويعلق أحمد الطاهري على هذا النص بقوله: «بمعنى أن وسائل الإنتاج أصبحت ممركزة داخل المدن وبالخصوص في قرطبة»[٣]. لذا لا غرابة أن نجد في أحياء قرطبة وأسواقها أسماء متخصصة للصنّاع والحرفيين؛ كباب الحديد وسوق الحدادين والعطارين والخشابين والرقاقين[٤].

ولا غرو أن للعامل الاجتماعي دوراً في تلك النهضة الصناعية في المجتمع القرطبي؛ فالنظرة الاجتماعية الدونية لأصحاب تلك الحرف قلت عن سابقها، ومن ينظر لتراجم الكثير من أعيان قرطبة الذين تُرجم لهم خلال تلك الحقبة يجدهم يلقبون بأسماء صنعتهم لا بأسماء أجدادهم كما ذكرنا[٥]، أيضاً تخصصت بعض الأسر بمجالات حرفية وصناعية ساعدها -ربما- على إتقان الحرفة وتطورها، ومن الممكن أن نستشف ذلك مما ذكرته بعض

---

(١) ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص٢٣٧-٢٣٨.

(٢) ابن حزم، علي بن أحمد، **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، اعتنى به سامي أنور جاهين، (القاهرة: دار الحديث، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م) ج١، ص١٨٤.

(٣) أحمد الطاهري، **عامة قرطبة**، ص١٠٨.

(٤) انظر: أدناه ص٢١٥؛ لخريطة قرطبة وعليها تحديد تلك الأحياء.

(٥) انظر: أعلاه؛ ص٦٢.

المصادر المعاصرة أو القريبة من تلك الحقبة، فابن حزم حينما ذكر أسرة بني قطنين نعتها باسم صنعتها البيازة[(١)]. وصاحب أمثال العوام يقول: «صنعة ولدك ولو كان حشاش»[(٢)].

وللدلالة على مدى ما وصلت إليه طبقة الصنّاع في المجتمع القرطبي من حجم وقدرة؛ هي مشاركتها الفاعلة في إسقاط النظام العامري، ومن ثم دعم نظام الثائر المهدي محمد بن هشام بعد ذلك[(٣)].

ثالثاً: المظهر الثقافي:

إن مظاهر الترف التي شهدتها قرطبة لم تقتصر على الجوانب السلوكية والمادية فحسب؛ بل يبدو أنها تجاوزت ذلك إلى الجوانب العلمية والفكرية، وبات من مظاهر الافتخار والاعتزاز الشخصي إقامة مكتبة خاصة في بيت أحدهم، ولو لم يكن الهدف منها الانتفاع العلمي؛ ولعله يؤكد على هذا الأمر ما ذكره المقري عن أهل قرطبة بقوله إنهم «أكثر بلاد الأندلس كتباً، وأشد الناس اعتناء بخزائن الكتب، وصار ذلك عندهم من آلات التعين والرياسة. حتى إن الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة يحتفل في أن يكون في بيته خزانة كتب، وينتخب فيها ليس إلا لأن يقال: فلان عنده خزانة كتب، والكتاب الفلاني ليس هو عند أحد غيره، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصله وظفر به»[(٤)].

وينقل المقري حادثة على لسان أحد طلاب العلم في قرطبة تبيّن ذلك أيضاً؛ ومفادها أن ذلك الطالب كان يبحث عن كتاب معين واجتهد في ذلك حتى وجده بخط جيد وتجليد حسن ويظهر أنه كان ذلك في مزاد لبيع الكتب لأنه جعل يزيد في ثمنه وهناك من يزيد عليه بالثمن حتى بالغ في سعره،فطلب الطالب أن يرى من زاد في سعر الكتاب حتى بالغ فيه،

---

(١) ابن حزم، **جمهرة**، ص٣٦٣.

(٢) الزجالي، **أمثال**، ج٢، ص٣٥٩.

(٣) انظر: ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٥٦.

(٤) المقري، **نفح**، ج١، ص ٤٦٢-٤٦٣.

فوجده شخصاً عليه لباس رياسة فظن أنه فقيه وطلب منه إن كان له غرض في الكتاب تركه له، فرد عليه بالقول: «لست بفقيه ولا أدري ما فيه ولكني أقمت خزانة كتب واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أعيان البلد وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ولم أبال بما أزيد فيه..»(١).

ولعل الشغف بالعلم والمعرفة وصل إلى درجة من الهوس في تلك الحقبة؛ يدلل على ذلك انتشار مقولات عن فوائد بعض النباتات والأعشاب التي تساعد على زيادة الحفظ، والتي اهتم بتناولها بعض أهل العلم، إذ ذكر ابن حيان أن الفقيه مختار بن عبدالرحمن الرعيني (ت٤٣٥هـ/ ١٠٤٣)(٢) كان يشرب من البلاذُر(٣) ليستعين بها على الحفظ(٤)، ومثله كان عبدالله بن إبراهيم الكتامي(٥) الذي قيل إنه انتفع من شرب البلاذر في مسألة الحفظ، وذُكر عن الفقيه ابن حزم الأندلسي أنه يكثر من أكل اللُّبان، وقد شاع أن اللُّبان يستعمل لقوة الحفظ(٦).

***

---

(١) المقري، **نفح**، ج١، ص ٤٦٣.

(٢) مختار بن عبدالرحمن بن سهر الرعيني، من أهل قرطبة، قال عنه ابن بشكوال: «كان جامعاً لفنون من العلم والمعرفة». تولى قضاء المرية فأحسن السيرة. توفي في قرطبة حينما كان زائراً لها عام ٤٣٥هـ/ ١٠٤٣م. ابن بشكوال، **الصلة**، ص٤٨٤.

(٣) البلاذر: ثمرة شبيهة بنوى التمر، ولبّه مثل لب الجوز. قال عنه ابن سينا أنه حلو لا مضرة فيه. انظر: ابن سينا، **القانون**، ج١، ص٣٩٥.

(٤) المرواني، **عيون**، ص٤٨.

(٥) عبدالله بن إبراهيم بن جماح الكتامي السبتي، قال عنه ابن بشكوال: «كان من أهل الحفظ والمعرفة بالفقه، وعلم التوحيد والاعتقاد». ابن بشكوال، **الصلة**، ص٢٤٨.

(٦) الذهبي، **سير**، ج٢، ص ٢٧٢٧.


الفصل الثالث
انعكاس التحولات
الاجتماعية على الأوضاع
السياسية في الأندلس

الفصل الثالث
انعكاس التحولات الاجتماعية
على الأوضاع السياسية في الأندلس

تمهيد:

إن التحولات الاجتماعية التي حدثت في الأندلس خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي كان لها تأثير كبير على الأوضاع السياسية فيها خلال تلك الحقبة وعلى السنوات اللاحقة لها، وهي تأثيرات جوهرية؛ بعضها في الفكر الاجتماعي ونظرته للكثير من الأمور السياسية لاسيما قضية الخلافة، وبعضها الآخر في النسيج الاجتماعي وتحولاته، وتبادل الأدوار في النفوذ السياسي، فمثلاً سنجد أنه برزت طبقات اجتماعية قامت بأدوار سياسية مؤثرة في تلك الحقبة، كالبربر القادمين من المغرب، والصقالبة، وبروز شريحة الفقهاء سياسياً، كذلك بروز طبقة العامة ولعبها دوراً مؤثراً في تحريك الأحداث السياسية، ولما آلت إليه الأمور في النهاية في قرطبة. في المقابل نجد تآكل نفوذ بعض الأسر الحاكمة أو القريبة من القرار السياسي ومدى أثر ذلك في وجود فراغ سياسي واضح عانت منه قرطبة بعد سقوط العامريين أدى في النهاية إلى سقوط الدولة الأموية وخلافتها بالجملة. وهذا ما سنفصل فيه – بإذن الله – في هذا الفصل.

أولاً: النظرة الاجتماعية إلى الخلافة:

حينما أعلن عبدالرحمن (الناصر) الخلافة في الأندلس عام ٣١٦هـ/ ٩٢٨م كانت المنطقة تمر بظروف سياسية خطيرة، بل إن الأندلس نفسها بدأت تتعافى من محنتها التي كادت أن تفقدها وحدتها، وأصبحت البلاد أكثر تماسكاً وقوة بعد ستة عشر عاماً من حكم الناصر. ولعل هذا الحاكم أدرك أن منصب الأمير بات يُنظر له بنظرة غير مهابه، لذا أحاط منصب الخلافة بعد إعلانه لها؛ بهالة من المهابة والفخامة، وسار على نهجه ابنه الخليفة الحكم (المستنصر بالله)، لذا ظل يُنظر لهذا المنصب بعين التبجيل والتقدير والاحترام. بيد أنه لما تولى

الخلافة صبي صغير هو هشام (المؤيد بالله) كان الطريق لاختراق هذه الهالة والمهابة، إذ بدأ هذا المنصب يفقد بعض احترامه وتقديره لدى المجتمع[١]، خصوصاً بعدما بات صاحب المنصب حاكماً صورياً، وتحكم الحجاب العامريون في شؤون الدولة، بيد أنه ورغم ما اعترى هذا المنصب من ترهل وضعف سياسي، وفقدانه للكثير من مكانته الاجتماعية، إلا أن مكانته الدينية مازالت موجودة في نفوس البعض، لاسيما طبقة الفقهاء، بدليل مواقف بعض الفقهاء المعارضة والصريحة لمشروع العامريين في تحويل الخلافة إليهم[٢]، ويبدو أنه حينما وجد المنصور بن أبي عامر صعوبة في مشروعه لنقل الخلافة إلى البيت العامري، حاول الإبقاء على شيء من هيبة الخلافة، وذلك بإخراج الخليفة هشام في مراسيم ملكية كبيرة وسط جموع أهل قرطبة[٣].

---

(١) ظهرت بعض الأبيات التي تؤكد ذلك، إذ ذكر ابن حيان أن محمداً بن أبي عامر القائم على الدولة وقتئذ لما حجب هشاماً عن الناس واستبد بالأمر دونه، ظهرت فيهم بقرطبة أقوال مُعرضة وأفشوا بينهم فيها أبياتاً فاحشة:

اقترب الوعد وحان الهلاك ... وكل ما تخشاه قد أتاك

خليفة يلعب في مكتبه ... وأمه حبلى وقاضٍ..

ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص٢٨٠.

(٢) ينقل ابن حزم عن والده أحمد بن سعيد وزير المنصور بن أبي عامر حادثة في غاية الأهمية تؤكد محاولة المنصور بن أبي عامر نقل الخلافة من البيت الأموي إلى البيت العامري وموقف بعض الفقهاء من هذه المسألة، وقد كان موقف قاضي الجماعة وقتئذ محمد بن يبقى بن زرب (ت٣٨١هـ/ ٩٩١م) واضحاً وصريحاً بالمعارضة، إذ قال: «وصاحب الأمر ما شأنه؟ فقال له: لا يصلح لهذا، فقال له: يُرى ويجَّرب، فقال له: أفي مسائل الفقه ؟ يريد أن يسأله، قال: لا، ولكن في مسائل السياسة وتدبير المملكة، قال: فإن لم يقم، قال: يُنظر في قريش.فأعرض عنه مغضباً». ابن حزم، **نقط، رسائل**، م١، ص٨٦-٨٧؛ وللمزيد حول هذا الموضوع؛ انظر: فوزي العتيبي، **فقهاء الأندلس**، ص١٩٨ وما بعدها .

(٣) ابن بسام، **الذخيرة**، ق٤، ج٧، ص٥٤.

بيد أن ابن المنصور بن أبي عامر؛ عبدالرحمن (شنجول) لم يلتزم طريقته، وفي ذلك ذكرت بعض المصادر «إفراط شنجول في وصله الخليفة هشام واستئلافه له ولجماعته وقضائه لحوائجهم، وكان سلفه على اقتصاد في ذلك واعتدال طريقه... ويؤثرون تعظيم الخليفة مع البعد عنه واغباب لقائه فاعتدلت بذلك الحال واستقامت السيرة»[1]. وزاد شنجول على ذلك حينما طلب ولاية العهد ليكون الخليفة المتوج بعد الخليفة هشام (المؤيد بالله) في سابقة تاريخية خطيرة في الأندلس، وهي أن يخرج الحكم من البيت الأموي إلى بيت آخر، وفي ذلك علق بعض المؤرخين المعاصرين لتلك الحقبة منتقدين تلك الحماقة التي ارتكبها شنجول؛ إذ قال ابن حيان معلقاً على فرح (شنجول) وأصحابه بولاية العهد: «وغبطوه بأخذها وشد اليد عليها يحسبون بجهلهم أن مرامها سهل المتناول..» [2]. ثم يعود ابن حيان ليتهكم على جرأة (شنجول) بطلب ولاية العهد ويبرر ذلك من جهل شنجول أنه يظن أن الأمر يأتيه بالخؤولة كما سماها (ابن حيان) أي بما أن شنجول والخليفة هشام كليهما أمهما بشكنسية، وفي ذلك قال: «حتى استدنى نسبه منه بالخؤولة إذ كانت أمهما بشكنسيتين فقدرها عبدالرحمن بجهله قرابة سما بها إلى ميراث الخلافة»[3]. بينما كان تعليق ابن حزم أقل حِدة، إذ اكتفى بقوله: «كانت فعلة خارجية»[4]. ويعود في موضع آخر، ليذكر أنه تسمى بأمير المؤمنين ليوم واحد في غزوته الشتوية ويصف حال (شنجول) عندما سمع ذلك بأنه «طرق ثيابه طرباً، إذ سمع النداء بذلك، ثم بداله، فترك ذلك وما هذا عندي بالفعل الجيد»[5]. بينما كان تعليق (ابن

(١) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٤٠.

(٢) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٤٢.

(٣) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٤٣.

(٤) ابن حزم، **نقط، رسائل**، م١، ص٥٤.

(٥) ابن حزم، **نقط، رسائل**، م١، ص٨٥.

عذاري) المتأخر عن تلك الحقبة أكثر قسوة على (شنجول) بقوله: «وقد تقدم القول في سبب توصل هذا الجاهل بدعوى الخلافة عجرفية من غير تأوُّل ولا أهلية..» [١].

وبذلك يكون عبدالرحمن (شنجول) أحدث شرخاً كبيراً في منصب الخلافة، وحينما ثار محمد (المهدي) بن هشام بن عبدالجبار على العامريين والخليفة هشام، قضيبشكل كبير على ذلك المنصب، إذ لم تكن تلك الشخصية هي التي من الممكن أن تعيد لمنصب الخلافة الحياة من جديد، والمهابة التي كانت تتمتع بها أيام الناصر والمستنصر بالله، بل كان عاملاً مساعداً في ذهاب هيبة الخلافة بشكل كبير، واعتبره بعض المؤرخين السبب الرئيس في تحطيم الوحدة الأندلسية، ولما آل إليه حال البلاد والعباد، وفي ذلك قال ابن الأبار عن المهدي: «باعث الفتنة بالأندلس، وموقد نارها الخامدة، وشاهر سيفها المغمد»[٢].

ولعل الأحداث التي أعقبت سقوط العامريين، تؤكد أن منصب الخلافة لم تعد له قيمة في نفوس الكثير من أهل قرطبة بدليل أن هشام المؤيد بالله حينما ثار عليه ابن عبدالجبار، صعد من على قصره في مكان يراه العامة، وهو بين مصحفين، يحملهما خادمان، فأشار إلى من تحته من العامة، محاولاً تسكينهم بيده، فصاحوا به: «لا حاجة لنا بك! وهذا أولى بالملك»[٣]. هذا من جهة؛ من جهة أخرى، إن عدم تمكن أي أمير أموي من ملء منصب الخلافة، إضافة للتلاعب الذي حصل في هذا المنصب من تولي شخص سبق أن أعلنت وفاته كما حصل مع المهدي حينما أعلن موت الخليفة هشام المؤيد بالله ثم أعلن بعد مدة أنه مازال حياً وهو الخليفة

(١) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٤٣؛ فوزي العتيبي، **فقهاء الأندلس**، ص٢١٣.

(٢) ابن الأبار، **الحلة**، ص١٧٥.

(٣) ابن الخطيب، **أعمال**، ج٢، ص١١٠.

الشرعي للبلاد وإنما هو نائب عنه، والأعظم من ذلك أن هناك فقهاء شاركوا في هذا التلاعب[1]، ومثل هذه الأعمال قضت على هذا المنصب دينياً واجتماعياً. قبل أن يسقط سياسياً في نهاية الأمر؛ بدليل أن المجتمع القرطبي لم يعد يعبأ فيمن يتولى هذا المنصب الحساس وذات البعد الديني، إنما المهم لديه هو أن يوفر الأمن والاستقرار له، لذا اعتلى هذا المنصب علوي لأول مرة في الأندلس[2] دون أن يحدث أي اعتراضات سواء دينية من قبل الفقهاء أم حتى اجتماعية، بيد أن هذا العلوي لم يستمر طويلاً في حكم قرطبة بعد فشله؛ إذ أعيد الأمر للأمويين مرة أخرى، واستمرت الأندلس في دوامة كبيرة يكون منصب الخلافة ما بين علوي وأموي حتى تم إلغاء الخلافة؛ كحل رآه القرطبيون.

وعليه نرى أن منصب الخلافة ذهبت هيبته اجتماعياً ومكانته دينياً؛ إضافة لضعفه سياسياً، وهذا بدوره أضعف إمكانية النهوض بالبلاد مرة أخرى، في ظل ذهاب هذه المهابة في نفوس الناس، وفي ظل عجز الأمراء الذين اعتلوا هذا المنصب من إعادة الهيبة والوقار ومظاهر الملوكية له، ولعل خير شاهد على ذلك انتقاد مؤرخ الأندلس ابن حيان لطريقة

---

(١) ذكرت بعض المصادر الأندلسية أنه: «توفي رجل يهودي فأوقف ابن عبدالجبار عليه رجالاً من أصحابه فشهدوا عند العامة أنهم رأوا هشاماً ميتاً لا فيه أثراً من جرح ولا خنقاً وأنه مات حتف أنفه وأُحضر ابن ذكوان القاضي والفقهاء والعدول وخلق من العامة بالقصر فصلوا على هشام المؤيد بالله بزعمهم».وفي موضع آخر تذكر تلك المصادر أن القاضي ابن ذكوان حمل رسالة من قبل ابن عبدالجبار للبربر الثائرين لمصالحتهم، فحوى الرسالة أنه إنما كان قائماً دون الخليفة هشام المؤيد بالله ونائباً عنه كالخليفة والحاجب وهو أمير المؤمنين، فكان رد البربر فيه تهكم واستهزاء فقالوا للقاضي: سبحان الله يا قاضي يموت هشام بالأمس وتصلي عليه أنت وغيرك واليوم يعيش وترجع الخلافة إليه وجعلوا يتضاحكون منه. ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٧٧، ص٨٩.

(٢) هو علي بن حمود؛ انظر: أدناه ص١٥٥.

دخول آخر الخلفــاء الأمويين هشام (المعتد بالله) (٤١٨-٤٢٢هـ/ ١٠٢٧-١٠٣١م)[(١)] سنة ٤٢٠هـ/ ١٠٢٥م إلى قرطبة بدون هيبة ومراكب الملــوك: «فدخل في زي تقتحمه العين وهنا وقلَّة وعدم رواء وبهجة وعدد وعــــدة فوق فرس دون مراكب ملوك بحلية مختصرة...»[(٢)].

بل ذكر ابن الخطيب أن هشام هذا أُخرج إلى أحد الحصون من غير أن يؤخذ خطه بالخلع، ولا يشهد عليه بعجزه عن تدبير الخلافة وإحلال الأمة من بيعته على السبيل المعهودة، ثم يختم هذا الأمر بقوله: «وأنساهم الله ذلك تهاوناً بحقه ونسياناً»[(٣)].

ثانياً: بروز طبقات سياسية جديدة:

اعتمد الأمويون منذ أن اعتلى الأمير عبدالرحمن (الداخل) عرش قرطبة على بعض الأسر الموالية لهم، وباتت هذه الأسر هي خير معين لهم في تحمل مشاق المهمات السياسية والعسكرية في البلاد. لكن يبدو أنه منذ خلافة عبدالرحمن (الناصر) بدأت هذه السياسة تتغير؛ إذ بات الناصر يعتمد في المناصب الحساسة على بعض فتيانه، مع الاحتفاظ بمكانة أصحاب تلك البيوتات في الدولة وفي مناصب أخرى أقل أهمية، واعتمد على أسلوب التدوير وتغيير المسؤولين في دولته[(٤)].

---

(١) أبوبكر؛ هشام بن محمد بن عبدالملك بن عبدالرحمن الناصر، بويع له بالخلافة وهو بالثغر عام ٤١٨هـ/ ١٠٢٧م ولم يدخل قرطبة إلا عام ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م. ثم خلع بعد ذلك، وأعلن إنهاء رسم الخلافة الأموية عام ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م. ابن الخطيب، **أعمال**، ج٢، ص١٣٨؛ ابن عــذاري، **البيان**، ج٣،ص١٤٥.

(٢) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص١٤٧.

(٣) ابن الخطيب، **أعمال**، ج٢، ص١٣٩.

(٤) انظر: أعلاه، ص٤٧، هامش رقم (٤).

ولعل خليفته الحكم (المستنصر بالله) سار على نفس سياسة والده في تقريب مواليه في المناصب الحساسة، لذا قرب وزيره جعفر بن عثمان المصحفي[١] واصطنعه، ويبدو أن تلك الحظوة كانت سبباً في انحراف أصحاب بعض البيوتات عن المصحفي في صراعه مع محمد بن أبي عامر على سلطة البلاد، وفي ذلك ذكرت بعض المصادر أن ميل بعض الوزراء من أصحاب تلك البيوتات لابن أبي عامر في صراعه مع المصحفي دعم موقف المنصور بن أبي عامر وقواه وكان أكثر تلك البيوتات مناصرة للمنصور آل أبي عبدة، وآل شهيد[٢] وآل

(١) أبو الحسن؛ جعفر بن عثمان بن نصر بن قوى بن عبدالله بن كسيلة من بربر بلنسية، ينتمي إلى قيس بالمحالفة، كان والده عثمان مؤدباً للحكم بن الناصر في صباه، ومن هنا توثقت العلاقة بين جعفر والحكم، حيث قلده الأخير عدداً من الأعمال من بينها الوزارة والشرطة والمدينة، ثم جمع له الكتابة العليا بالخاصة، ازدادت مكانته في أواخر أيام الحكم خصوصاً بعد مرض الأخير إذ أدار البلاد نيابة عنه، وبعد وفاة الحكم، تولى جعفر حجابة الخليفة هشام المؤيد، وأصبح صاحب النفوذ الأبرز في الدولة، لكن نفوذه لم يستمر طويلاً؛ إذ تمكن ابن أبي عامر من عزله عن الحجابة يوم الاثنين ١٣ شعبان ٣٦٧هـ/ ٩٧٨م ثم سجنه بعد ذلك. للمزيد انظر: ابن الأبار، **الحلة**، ص١٤٧ ومابعدها؛ ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص٢٥٤؛ Jan: **The Moors in Spain and Portugal** (London:Faber and Faber ,1974), p87,Read, وللمزيد حول المصحفي انظر: عبدالعزيز الساوري، "الحاجب المصحفي: حياته وآثاره الأدبية تتمة واستدراك"، **مجلة دراسات أندلسية**، تونس، العدد الثالث والعشرون، شوال ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ص١٥ وما بعدها.

(٢) بنو شُهيد: ينسبون إلى شهيد بن عيسى بن شهيد مولى معاوية بن مروان الحكم، أُختلف في نسبهم فذكر بعض المؤرخين أنهم يرجعون إلى قبيلة أشجع من قيس عيلان العربية، بينما ذكر المقري أن جدهم شُهيد رومي، تقلد بعض أفراد هذه الأسرة مناصب عليا في الدولة الأموية بالأندلس، ومن أشهرهم الوزير أبوعامر أحمد بن عبدالملك بن أحمد وهو أول من سمي بذي الوزارتين. انظر: الحميدي، **جذوة**، ص٢٣٠؛ ابن خاقان، **مطمح**، ص٨١؛ ابن الأبار، **الحلة**، ص١٣٦-١٣٧؛ المقري، **نفح**، ج٣، ص ٤٥؛ حسين مؤنس، **فجر الأندلس**، ط١، (بيروت: العصر الحديث، دار المناهل، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م)، ص٤٤٦.

جهور، وآل فطيس، وتصفهم تلك المصادر أنهم «كانوا في الوقت أزمة المُلك وقوام الخدمة ومصابيح الأمة»[1].

بيد أن اعتلاء محمد بن أبي عامر الحجابة وتفرده بإدارة شؤون البلاد يُعتبر نقطة تحول في ميزان القوى السياسية والاجتماعية في الأندلس، فالحاجب محمد بن أبي عامر لم يكن من تلك البيوتات المتنفذة هذا من جهة، ومن جهة أخرى حاول الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر استبعاد بعض أفراد تلك البيوتات المتنفذة التي لا تخدم مشروعه، وخلق طبقة سياسة وعسكرية حوله تدين له بالولاء التام؛ سواء باستقطاب بعض البيوتات المؤثرة في البلاط الأموي وسياساته[2] أم برفع بيوتات أخرى إلى مناصب سياسية أو عسكرية في الدولة الأموية؛فمثلاً في العاصمة قرطبةكانت هناك بيوتات مثل بني شهيد، وبني جهور، وبني حيان[3]، وبني حزم[4]، أما فيالأقاليم الأخرى

---

(١) ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص٢٧١-٢٧٢.

(٢) ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص٢٧٣؛ عبدالقادر عثمان محمد جاد الرب، "الخطط والأساليب لتجاوز شرط قرشية الخلافة وأمويتها بالأندلس (٣٦٦-٣٩٩هـ/ ٩٧٦-١٠٠٩م)"، **مجلة التاريخ العربي**، المغرب، العدد الثاني والثلاثون ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص٢٦٤.

(٣) بنو حيان:أسرة قرطبية ينتهي نسبها إلى حيان، مولى الأمير عبدالرحمن الداخل بن معاوية. برز منهم خلف بن حسين بن حيان في حكومة العامريين، وكان قريباً من الحاجب محمد بن أبي عامروهو والد المؤرخ الأندلسي الشهير أبو مروان حيان المعروف بابن حيان. الحميدي، **جذوة**، ص١٩٦؛ابن بشكوال، **الصلة**، ج١، ص١٣٨.

(٤) بنو حزم: أسرة لم يكن لها مكانة كبيرة قبل أن يُقرب محمد بن أبي عامر؛ أحمد بن سعيد بن حزم ويوليه بعض المناصب في الدولة، وهو والد العالم المعروف ابن حزم الأندلسي، وقد اختلف المؤرخون في أصل هذه الأسرة، فالحميدي تلميذ ابن حزم يذكر أنه فارسي الأصل، رحل جده الأعلى خلف مع البيت الأموي إلى الأندلس حين رحلوا إليها وعلى ذلك فهو قرشي بالولاء، فارسي بالعنصر والجنس، وإنه لهذا الولاء كان يتعصب لبني أمية، ويعادي من يعاديهم، ويوالي من يواليهم.بينما ذكر ابن حيان أن أصله من الأندلس من عجم لبلة، جده الأدنى حديث عهد بالإسلام.الحميدي، **جذوة**، ص٣٠١-٣٠٢؛ ابن الخطيب، **الإحاطة**، ج٤، ص٨٧؛ محمد أحمد أبو زهرة، **تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية**، (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٩٦م)، ص٥٨٣.

ففي إشبيلية بنو عباد، وفي طليطلة بنو يعيش[(1)]، وفي سرقسطةبنو تجيب وكذلك من زعماء البربر النازلين في بعض النواحي مثلُ بني الأفطس في بطليوس، وبني ذي النون[(2)] في طليطلة[(3)].

وعليه؛ يمكن القول إن المنصور محمد بن أبي عامر استبدل بيوتات أندلسية كانت تسيطر على مناصب نافذة في الدولة بأخرى تدين بالولاء له، وباتت هذه البيوتات المحيطة بالمنصور بن أبي عامر ذات صبغة عسكرية أكثر منها مدنية مثلما كانت في عهود سابقة، لذا كان معدل المعارك والحروب التي خاضتها الأندلس في العهد العامري كبيراً مقارنة بما كان عليه الحال قبل ذلك.

ويمكن الإشارة إلى أن تلك البيوتات لم تقم بأدوارٍ سياسية كبيرة في النظام العامري سواء في استمراره أم سقوطه، لأنه فيما يبدو كانت تنقصها التجربة السياسية والعمق الاجتماعي؛ بدليل أن بعض تلك الأسر لم تكن تملك مكانة اجتماعية عريقة في قرطبة، فمثلاً أسرة بنو حزم، تذكر بعض المصادر التي ترجمت للفقيه علي بن أحمد بن حزم أنه كان خامل الأُبُوة، من

---

(1) بنو يعيش:ينتمون إلى يعيش بن محمد بن يعيش الأسدي، من أهل طليطلة، كان من أهل العلم والفقه، صار إليه تدبير طليطلة زمن الفتنة لكنه لم يستمر طويلاً، إذ خلع وانتهى به المطاف في قلعة أيوب وفيها توفي سنة ٤١٨هـ/ ١٠٢٧م، وقال ابن حيان أنه توفي في صفر سنة ٤١٩هـ/ ١٠٢٨م. انظر: ابن بشكوال، **الصلة**، ج٢، ص٥٢٩.

(2) بنو ذي النون: يرجع انتماء هذه العائلة إلى أحد بطون قبيلة هوارة البربرية، وكان جدهم يحمل اسم زنون فتصحَّف بطول المدة فصار ذو النون، لم يكن لهذه القبيلة ظهور قبل التحاقهم بالعامريين فصار منهم القواد والولاة. ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٢٧٦؛ وللمزيد حول هذه الأسرة انظر: عبدالمجيد نعنعي، **الإسلام في طليطلة**، ص٦٤.

(3) حسين مؤنس، **معالم من تاريخ المغرب والأندلس**، ط٨، (مصر: دار الإرشاد)، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص٣٩٩.

عجم لبلة. كذلك كان يحيى بن منذر صاحب سرقسطة إذ قال ابن حيان عنه: «كان منذر بن يحيى صاحب سرقسطة رجلاً من عرض الجند، ترقى إلى القيادة آخر دولة ابن أبي عامر، وتناهى أمره في الفتنة إلى نيل الإمارة...وكان أبوه من الفرسان غير النبهاء»(١)، هذا من ناحية، من ناحية أخرى يبدو أن استبداد المنصور بن أبي عامر وأبنائه من بعد بالسلطة والجيش أثر بشكل واضح في سقوط النظام العامري؛ إذ ما إن اختل رأس السلطة العامرية وسقط، حتى بان الخلل في وجود فراغ سياسي وعسكريواضح أدى في النهاية إلى سقوط الخلافة الأموية برمتها.

ثالثاً: بروز دور العامة السياسي:

لعل من أبرز ملامح القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، هو تضخم شريحة العامة في قرطبة، ويبدو أن حكام قرطبة خلال هذه الحقبة استشعروا أهمية هذه الشريحة؛ فباتوا يتقربون منهم فمثلاً أول إجراء اتخذه الناصر حينما تولى سدة الحكم هو تخفيف المغارم عن الرعايا، رغم الضائقة الاقتصادية التي تمر بها البلاد. وكذلك افتتح الحكم (المستنصر بالله) حكمه بالنظر في الزيادة في المسجد الجامع بقرطبة، تخفيفاً عليهم بعد أن كثر عدد الناس(٢). كذلك توبيخه لعماله، وتحذيرهم من سطوته، إذ اتصل به أن بعضهم قد استزاد زيادات فاحشة على الرعية(٣).

ومثلها افتتح محمد بن أبي عامر عهد خليفته هشام المؤيد بالله بإسقاط ضريبة الزيتون التي كانت ترهق كاهل العامة، ونسب شأنها إلى محمد بن أبي عامر، وأنه أشار بذلك؛ فأحبوه

---

(١) ابن سعيد، **المغرب**، ج١، ص٢٧٥؛ ابن بسام، **الذخيرة**، م١، ج١، ص١٤٧.

(٢) ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص٢٣٣-٢٣٤.

(٣) ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص٢٣٤.

لذلك[١]، وكذلك فعل الحاجب عبدالملك (المظفر) حينما أسقط سدس الجباية عن جميع البلاد[٢]. بيد أن الحاجب عبدالرحمن (شنجول) لم يتبع سياسة سلفه في العناية بالعامة والتقرب إليهم، ولعل وصف (ابن عذاري) يبرهن على ما وصلت إليه تلك السياسة من سوء حتى ضجر منه الناس، ودعوا الله في الخلاص منه، إذ يقول: «فنظر في الأمور نظراً غير سديد وأنفق الأموال في غير وجهها، وأعان على الكثير من الناس وبسط يده عليهم وأخذ أموالهم ونسب إليهم أباطيل من القول والفعل حتى قلق الناس به وأبغضوه في الله وابتهلوا لله تعالى في الدعاء عليه»[٣]، بل وصل الأمر إلى الاعتراض العلني على عبدالرحمن (شنجول)[٤]، ثم المشاركة في إسقاطه[٥].

ومن الممكن القول إنه ما كاد ينقضي القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي حتى كان للعامة ثقلهم في محيط قرطبة، وللدلالة على ذلك؛ قيامهم بأدوار فاعلة في الأحداث السياسية التي حدثت في قرطبة خلال تلك المرحلة؛ سواء في إسقاط حكومة العامريين أم ما تلاها من أحداث جسام حتى سقوط الخلافة الأموية، فعامة قرطبة شاركوا بفعالية في إسقاط النظام العامري، وكذلك في تنصيب الخليفة الثائر محمد (المهدي) بن هشام بن عبدالجبار في سدة الخلافة، إذ كان معظمهم جيشه وعصبته[٦].

---

(١) ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص٢٥٩.

(٢) ابن بسام، **الذخيرة**، ق٤، ج٧، ص٥٧-٥٨؛ ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٣.

(٣) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٣٨.

(٤) كاعتراض أحد القطّانين على خطيب جمعة حينما دعاء لعبدالرحمن شنجول بولاية العهد. ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٥٤.

(٥) انظر: تفاصيل ذلك عند ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٥١ وما بعدها.

(٦) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٥١؛ص٧٤.

ويذكر ابن الخطيب أنه تم تثبيت أسماء خمسين ألفاً منهم في العطاء[١]، كذلك يبدو أنهم شغلوا مناصب في الدولة، ويمكن استشعار ذلك من نص أوردته بعض المصادر أنه مضت على قرطبة بعد إسقاط العامريين «لم يوجد فيها حجّام ولا كنّاف ولا ذو مهنة ذلية»[٢]. ولعل فرحة العامة بسقوط النظام العامري، وقيام نظام يعتمد عليهم، تظهر جلياً في نص ابن عذاري: «فقد أحدثوا برحاب قرطبة وأرباضها ولائم وأعراساً وداموا على ذلك أياماً تباعاً ينتقلون من موضع إلى موضع بالمزامر والملاهي»[٣].

ويبدو أن المهدي اكتفى بهذه الفئة الاجتماعية وأهمل وعادى سواها، وهذه السياسة التي انتهجها الخليفة الجديد المهدي في إهماله واستعدائه لفئات اجتماعية كان من الأولى أن تكون سيوفها معه لا عليه أدت إلى تحطيم الدولة الأندلسية ونشوب حروب أهلية؛ فمثلاً أهمل المهدي الصقالبة العامريين، فلا هو احتواهم وضمهم تحت لوائه ولا هو أحكم القبضة عليهم ومنع خطرهم، بل سمح لهم بالذهاب بعيداً عن قرطبة إلى شرق الأندلس ليحكموا سيطرتهم على تلك الأماكن[٤]، أما البربر؛ فقام باستعدائهم، وذلك بالتقليل من مكانة زعمائهم وإهانتهم وإظهار كرهه لهم وللبربر بشكل عام في مجالسه، ووصول مثل هذه الكلمات للبربر[٥]، جعلهم يكرهونه ويتحولون عنه، ثم يشاركون في الثورة عليه.

ويظهر أن المهدي لم يفرض سيطرته بشكل محكم على العامة، بدليل أنه أثناء حربه ضد البربر ومعه نصارى الشمال، احتشد الناس من الكور والبادية، فعسكروا في جموع كثيرة

(١) ابن الخطيب، **أعمال**، ج٢، ص١١٢.

(٢) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٦١.

(٣) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٧٤.

(٤) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٨٢-٨٣.

(٥) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٧٨.

لمحاربة البربر؛ فتسرع إليهم أهل قرطبة، مخالفين أوامر قائد جيش المهدي، «فاستجرَّتهم البرابرة حتى إذا تمكنوا منهم عطفوا عليهم، فانكشفوا عنهم انكشافاً ما سُمع عنه وانهزموا إلى منازلهم... فازدحموا وتناشبوا وقتل بعضهم بعضاً، ووضع البربر والنصارى السيوف عليهم، فقتل في هذه الوقعة عالمٌ وأبادوا أمة. وهي وقعة قَنْتِيش[1] المشهورة بالأندلس قتل فيها عشرة آلاف قتيل وأزيد»[2].

ولم يكن سقوط المهدي هو نهاية نفوذ العامة وابتعادهم عن المسرح السياسي، بل كانوا حاضرين بقوة في ترجيح القوى السياسية المتصارعة بعد ذلك، فمثلاً حينما اعتلى الخلافة علي بن حمود العلوي ورغم أن حزبه كان البربر إلا أنه حاول أن يكسب أهل قرطبة إلى جانبه، «فقهر البرابرة حتى صار أقل الرعية يرفع أعيانهم إلى الحكّام بما شاء من وجوه الدعاوي فتجري عليهم الأحكام»[3]، وأظهر العدل بإقامة الحدود بنفسه، بيد أنه حينما سمع بقيام خليفة أموي بشرق الأندلس خشي أن يتعاطف القرطبيون معه، فبدل سياسته معهم، فأغرم عامتهم وتوصل إلى السلاح منهم وقبض دورهم، وانصرف إلى حزبه البربر، بل ذهب أبعد من ذلك حينما عزم على إخلاء قرطبة وإبادة أهلها[4]. ويظهر من ذلك خشية علي بن حمود من اضطراب أهل قرطبة وعامتهم ضده وضد حزبه البربر فكان رد فعله عكسياً، أدى إلى سقوطه بعد عام واحد من توليه الخلافة إذ قتل من قبل صقالبته في حمام قصره[5].

---

(١) عند الحميدي جاءت قنطيش. الحميدي، **جذوة**، ص٣٠.

(٢) ابن بسام، **الذخيرة**، ق١، ج١، ص٤٤.

(٣) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص١٢١.

(٤) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص١٢١-١٢٣.

(٥) ابن حزم، **نقط، رسائل**، م١، ص٩٢؛ ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص١٢٢.

ويبدو أن ابنه يحيى بن علي بن حمود (٤١٣-٤١٤هـ/ ١٠٢٢-١٠٢٣م)[١] حاول انتهاج سياسة مغايرة مع أهل قرطبة تختلف عن سياسة أبيه حينما تولى الخلافة[٢]، فتحبب إلى الناس وقرب منازلهم، ورفع مكانهم وأجزل لهم العطاء، وذكر ابن حيان أن الفريقين الأندلسي والبربر من أهل قرطبة اجتمعا عليه[٣]. ويبدو أن يحيى حاول التقرب أكثر من عامة قرطبة فعين وزيراً منهم، فعلق ابن حيان مستنكراً هذا الأمر ومستهجنه: «فكان أضر شيء على دولته... فقديماً استعاذوا بالله من وزارة السفلة»[٤].

ويبدو أن الصدام بين الفريقين القرطبي والبربري وصل إلى درجة متقدمة في تلك المرحلة، إذ خُلع يحيى بن علي من قبل البربر ونصبوا بدلاً منه عمه القاسم بن حمود في ولايته الثانية؛ بيد أن القرطبيين لم يتركوه يستمر في الحكم أكثر من سبعة شهور، إذ خلعوه بإجماع منهم وأخرجوه مع البربر بعد حروب معهم، وتذكر بعض المصادر أن سبب خلع القاسم «تسلط البربر على أهل قرطبة في الأسواق وبرزوا لقتالهم ونصبوا الحرب عليهم؛ فتقاتلوا قتالاً شديداً..»[٥]، ورغم محاولة القاسم إظهار أنه في صف أهل قرطبة إلا أن الحرب المستعرة بين الفريقين أدت إلى إسقاط حكمه في النهاية[٦].

---

(١) أبو إسحاق، يحيى بن علي بن حمود، تلقب بالمُعتلي، أمه لبونة بنت محمد بن الحسن بن القاسم المعروف بقنون بن إبراهيم ينتهي نسبها إلى الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب. تولى الخلافة عام ٤١٣هـ/ ١٠٢٢مـ ثم هرب إلى مالقه عام ٤١٤هـ/ ١٠٢٣م ثم عاد مرة أخرى لتولي الخلافة عام ٤١٦هـ/ ١٠٢٥مـ إلا أنه لم يدخل قرطبة وعين عليها نائباً من قبله، وبقي الأمر كذلك حتى قطعت دعوته عن قرطبة. قتل عام ٤٢٧هـ/ ١٠٣٥م. الحميدي، **جذوة**، ص٣٤-٣٥.

(٢) لم يتول يحيى بعد أبيه مباشرة إنما بعد عمه القاسم بن حمود (٤٠٨- ٤١٢هـ/ ١٠١٦-١٠٢١م). انظر: ، الحميدي، **جذوة**، ص٣٣؛ ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص١٢٤.

(٣) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص١٣٢.

(٤) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص١٣٢.

(٥) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص١٣٤.

(٦) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص١٣٤.

وبعد أن طرد القرطبيون القاسم بن حمود[1]، حاولوا أن يقيموا حكماً شورياً بأن رشحوا ثلاثة من الأمراء الأمويين على أن يتم اختيار أحدهم، وفعلاً تم الاتفاق على أن يكون مكان ذلك جامع قرطبة، بيد أن هذا الأمر لم يتم على ما كان يراد له، ففي أثناء دخول المرشحين، هجم عبدالرحمن (المستظهر) بن هشام[2] أخو المهدي ومعه الجند والعامة وتمكنوا من تنصيبه خليفة على البلاد. بيد أن المستظهر لم يتبع السياسة التي يريدها العامة، وبدأ يُعيد البربر إلى قرطبة، لذا شكى قادة المستظهر للعامة هذا الأمر فقالوا: «نحن الذين قهرنا البرابرة وطردناهم عن قرطبة، وهذا الرجل يسعى في ردهم إلينا وتمكينهم من نواصينا»[3]. لذا هاجت العامة فوثبوا على القصر وقتلوا البرابرة حيث وجدوا[4].

ولعلنا نختم في هذا الجانب بالقول إنه توصل إلى مناصب مهمة في الدولة أُناس من الطبقة العامة، وتلقبوا بالألقاب السلطانية كأسيد بن حبيب الذي تلقب بأمل الدولة[5]، كما إنه في حكم آخر خلفاء بني أمية في قرطبة تنفذ وزيرٌ له حائك، فتصرف في الأعمال والأموال وأناط به الرجال، إضافة إلى ذلك استعانة هذا الحائك برجال عديمي الخبرة والمنزلة من أصحاب المهن والطبقات الدنيا[6]. وعلق ابن حيان على هذا الأمر بقوله: «هو رجل من

---

(١) في رواية عند ابن الخطيب؛ ذكر فيها أن أمراء الثغر؛ منذر بن يحيى وابن ذي النون وزهير العامري اتفقوا على إعادة الدولة الأموية. ويظهر أنه لم يكن لهم دور محوري لا في إسقاط حكم القاسم ولا في اختيار الخليفة الأموي الجديد، إنما هو إقرار منهم لما آلت إليه أحداث قرطبة. ابن الخطيب، **أعمال**، ج٢،ص١٣٠.

(٢) أبو المطرف؛ عبدالرحمن بن هشام بن عبدالجبار، بويع بالخلافة في ١٣ رمضان عام ٤١٤هـ/ ١٠٢٣م وله اثنتان وعشرون سنة، وتلقب بالمستظهر، أمه أم ولد أسمها غاية. كان شاعراً وأديباً. الحميدي، **جذوة**، ص٣٥.

(٣) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص١٣٨.

(٤) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص١٣٨.

(٥) ابن حزم، **نقط، رسائل**، م١، ص١٠٢.

(٦) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص١٤٨.

دخلاء الجند لا خصلة فيه منتقل من الحياكة إلى الوزارة فبدر لأول وقته بعداوة الأحرار وتنقص الفضلاء والميل على ذوي البيوتات بالأذى والمطالب، وصيَّر صنائعه في أضدادهم فكانوا وزراءه وأنصاره..»[(١)].

رابعاً: بروز شريحة الفقهاء سياسياً:

يمكن القول إن الفقيه في الأندلس تمتع -بشكل عام- بمكانة مميزة في المجتمع الأندلسي؛ وفي ذلك قال المقري: «وللفقه رونق ووجاهة.. وسمة الفقيه عندهم جليلة، حتى إن الملثمين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم الذي يريدون تنويهه بالفقيه... وقد يقولون للكاتب والنحوي واللغوي فقيهاً؛ لأنها عندهم أرفع السمات»[(٢)].

أما عن الأدوار السياسية التي لعبها بعض الفقهاء وعلاقتهم مع السلطات الحاكمة في الأندلس، فالواضح أنها لم تكن على وتيرة واحدة، بل كانت متغيرة حسب الظروف السياسية، فمثلاً لم يكن دور الفقهاء في بداية نشوء الدولة مميزاً ولا مؤثراً؛ إذ لم يكن لهم دور كبير وواضح في مساعدة الأمير الأموي عبدالرحمن بن معاوية (الداخل) في إنشاء دولته[(٣)]، بل يمكن القول إنه وصل إلى سدة السلطة مستفيداً من الصراعات القبلية والعرقية من جهة؛ ومن نسبه الأموي من جهة أخرى، إضافة إلى ما كان يتمتع به من قدرات عقلية وسياسية وعسكرية قادته إلى سدة الحكم[(٤)].

---

(١) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص١٤٨.

(٢) المقري، **نفح**، ج١، ص٢٢١؛ فوزي العتيبي، **فقهاء الأندلس**، ص١٢٢.

(٣) فوزي العتيبي، **فقهاء الأندلس**، ص١٢٢.

(٤) وفي ذلك رد عبدالرحمن (الداخل) على المشككين في قدراته بأبيات شعرية جميلة منها:

لا يُلف ممتن علينا قائلٌ ... لولاي ما ملك الأنام الداخلُ

سعدي وحزمي والمهند والقنا ... ومقادرٌ بلغت وحال حائلُ

إلى أن قال:

ويقول قومٌ سعده لا عقله ... خير السعادة ما حماها العاقلُ

المقري، **نفح**، ج٣، ص٤٢-٤٣.

بيد أن الوضع اختلف حينما تولى السلطة بعده ابنه هشام الرضا، إذ باتت الدولة أكثر وحدة واستقراراً، فكانت تتطلب رجال تشريع وتقنين أكثر من رجال عسكر وحرب؛ لذا تميز عهده بالدعة وتقريب العلماء والفقهاء، فأخذت طبقة الفقهاء في دولته مكانة مميزة، وكذلك كان الأمر في بداية عهد ابنه الحكم بن هشام، إلا أن الأخير حينما حاول إعادة تشكيل دولته على نمط سياسي وعسكري أكثر منه ديني وجد نفوراً من طبقة الفقهاء وتقريعاً له، وتهديداً بالثورة أيضاً[١]، فقد استكثر الحكم من المماليك، وحاول إمساك السلطات في يده، هذا إضافة إلى إظهاره لبعض السلوكيات القبيحة[٢]، والتي لم تعجب طبقة الفقهاء[٣]، لذا قادوا ثورة ضده كادت أن تطيح بحكمه عرفت بثورة الربض.

وبالرغم من فشل الفقهاء في ثورتهم، وفي إسقاط حكومة الحكم، إلا أنها نجحت في إعادة مكانتهم إلى الدولة مرة أخرى، بل زاد نفوذهم بشكل كبير في عهد خلفه عبدالرحمن (الأوسط)، وأصبح للكثير منهم مكانة كبيرة في الدولة[٤] كالفقيه يحيى بن يحيى الليثي (ت٢٣٤هـ/ ٨٤٨م)[٥]، الذي كان الأمير عبدالرحمن «يشاوره في أكثر أموره ونوازله ولا يمضي في الديانة قضاء إلا بعد مشورته »[٦]؛ أو كما قال عياض: «يستشيره في جميع أموره»[٧].

---

(١) فوزي العتيبي، **فقهاء الأندلس**، ص١٢٢.

(٢) انظر: لبعض تلك السلوكيات عند ابن حزم، **نقط، رسائل**، م١، ص٧٥.

(٣) المقري، **نفح**، ج١، ص٣٨٨-٣٣٩.

(٤) فوزي العتيبي، **فقهاء الأندلس**، ص١٣٤.

(٥) أبو محمد؛ يحيى بن يحيى بن كثير بن وسلاس بن شملل المصمودي، مولى بني ليث، من أهل قرطبة، سمع الموطأ من مالك بن أنس، وكان الإمام مالك يسميه بعاقل الأندلس، ولما عاد للأندلس تصدر للإقراء والإفتاء. انظر: ابن الفرضي، **تاريخ**، ج٢، ص١٥٧-١٥٨؛ الحميدي، **جذوة**، ص٣٧٠-٣٧١؛ الضبي، **بغية**، ص٤٧٣.

(٦) ابن حيان، **المقتبس**، مكي، ج٢، ص٢٩٨-٢٩٩.

(٧) عياض، **ترتيب**، ج٤، ص٥٣٧؛ الكبيسي، **دور الفقهاء**، ص١١٣.

ويؤكد ابن حزم أن الفقيه يحيى لم يل قضاءً قط ولا أجاب إليه، وكان ذلك زائداً في جلالته عندهم[١]. بينما قال ابن القوطية عن علاقة الأمير عبدالرحمن بالفقيه يحيى: «كان يلتزم من إعظام يحيى وبرّه ما لا يلتزم الابن البار بالأب الحاني، وكان لا يُولي القضاء أحداً إلا عن رأيه»[٢].

ويبدو أن طبقة الفقهاء بقيت محافظة على مركزها في حكومة قرطبة، رغم الظروف السياسية الصعبة التي مرت بها قرطبة بعد وفاة الأمير عبدالرحمن الأوسط، فمثلاً كان الأمير عبدالله بن محمد يقرب الفقهاء «فلا يقدم أمراً ولا يؤخره إلا عند مشورة أهل العلم والفقه»[٣]. كما كان «يستدعيهم إلى نفسه ويستفتيهم في أحكامه ويشاورهم فيما يطرقه من أحداث زمانه»[٤].

بيد أن الأمر اختلف حينما تولى السلطة عبدالرحمن (الناصر)، خاصة بعد إعلانه الخلافة، وبذلك أعطى المنصب بعداً دينياً، ولم يكتف الخليفة الجديد بذلك، بل قام بعدد من الإجراءات في أجهزة الدولة كانت تصب في الغالب في صالح الطبقة السياسية على حساب طبقة الفقهاء، إذ خلق عبدالرحمن (الناصر) طبقة سياسية جديدة من صقالبة، ومولدين وغيرهم، وجعلهم ركيزة حكمه، فشكل بداية تحول النفوذ لصالح السياسيين على حساب الفقهاء في الدولة[٥]، مع التأكيد على أن الخليفة عبدالرحمن الناصر لم يغفل تقديره واحترامه وتعظيمه للفقهاء[٦]. وربما هذا التحول في سياسة عبدالرحمن (الناصر) جعل عدداً من

---

(١) الحميدي، **جذوة**، ٣٧١.

(٢) ابن القوطية، **تاريخ**، ص٧٥.

(٣) ابن حيان، **المقتبس**، شالميتا، ج٥، ص٣٤؛ الكبيسي، **دورالفقهاء**، ص١١٣.

(٤) ابن حيان، **المقتبس**، شالميتا، ج٥، ص٣٧.

(٥) فوزي العتيبي، **فقهاء الأندلس**، ص١٢٥.

(٦) مثل مواقفه مع قاضيه منذر بن سعيد البلوطي، انظر: الفتح، **المطمح**، ص١١٦ وما بعدها؛ المقري، **نفح**، ج١، ص٥٧٠ وما بعدها.

الفقهاء يفكر جدياً في تغيير تلك الموازنات السياسية حتى لو اضطره الأمر إلى الانقلاب والثورة على الخليفة الناصر؛ واختاروا لهذا الأمر شخصاً من العائلة الحاكمة قريباً منهم، بل يعتبر محسوباً على طبقتهم وهو الأمير عبدالله بن عبدالرحمن الناصر[1]، بيد أن مخططهم أُحبط قبل تنفيذه[2].

ويبدو أن صرامة عبدالرحمن الناصر في القضاء على ذلك المخطط والقائمين عليه، وقتله لولده الذي هو من صلبه، جعل الطامحين من طبقة الفقهاء أو غيرهم؛ يخشى من مجرد محاولة التفكير في القيام على هذا الخليفة حتى لا يلقى نفس المصير المشؤوم الذي لقيه ابنه الأمير عبدالله، لذا لم نسمع عن محاولات أخرى قام بها فقهاء في الشأن السياسي خلال عهد هذا الخليفة.

وعليه يظهر أن تلك الطبقة ظلت مكانتها أقل من مكانة السياسيين بقية عهد عبدالرحمن (الناصر)، وحتى عهد الخليفة الحكم (المستنصر بالله)، على الرغم مما أظهره هذا الخليفة من معاملة جيدة للفقهاء وتقريبه لهم بما عرف عنه من محبته للعلم والعلماء، إلا أن الطبقة السياسية استمرت في النفوذ والمكانة، ولا أدل على ذلك من تقدمها في مجلس الخليفة الحكم على طبقة الفقهاء[3]. ويبدو أن طبقة الفقهاء ظلت بعيدة عن صناعة القرار السياسي في الأندلس خلال تلك المرحلة، بدليل أنه حينما توفي الخليفة الحكم (المستنصر بالله) كان من

---

(١) أبومحمد؛ عبدالله بن عبدالرحمن الناصر، قال عنه ابن حزم: «كان فقيهاً شافعياً شاعراً إخبارياً متنسكاً».له تواليف منها كتاب "العليل والقتيل في أخبار ولد العباس"، انتهى به إلى خلافة الراضي ابن المقتدر، ومنها "المسكتة في فضائل بقي بن مخلد". ذُكر للخليفة الناصر أن هناك مخططاً للثورة عليه حدد في يوم العيد من سنة ٣٣٨هـ/ ٩٥٠م، يدبره له ابنه عبدالله مع مجموعة فقهاء كانوا قد باتوا عنده، مثل الفقيه أحمد بن محمد بن عبدالبر، وأحمد بن عبدالله بن العطار، وقد أحضروا إلى الخليفة الذي سجنهم.انظر: ابن الأبار، **الحلة**، ص١٢٠-١٢١؛ ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص٢١٧.

(٢) ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص٢١٧.

(٣) انظر: مثال ذلك؛ ابن حيان، **المقتبس**، هواري، ص٤١-٤٢، ص٦٩-٧٠.

حدد مصير خليفة الأندلس الجديد بشكل قاطع هم الطبقة السياسية، وكان الصراع منحصراً بين فريقين سياسيين الأول بقيادة الصقالبة بزعامة جوذر وفائق، وكان مرشحهم للخلافة هو الأمير المغيرة بن عبدالرحمن الناصر (ت٣٦٦هـ/ ٩٧٧م)[١] ، والفريق الآخر بقيادة الوزير جعفر المصحفي ومعه محمد بن أبي عامر ومرشحهم ولي عهد الخليفة وابنه هشام بن الحكم[٢]. ورغم تمكن فريق المصحفي من تنصيب مرشحهم هشام (المؤيد بالله) ابن الخليفة الحكم في الخلافة، إلا أنه واجهتهم معضلة شرعية تكمن في أن هذا المرشح مازال صبياً صغيراً لم يبلغ الحلم، وهذا ما يفقده بعضاً من شروط الخلافة[٣]، وهذا ما دعاهم للحاجة إلى طبقة الفقهاء لإيجاد مصوغات شرعية لتجاوز تلك المعضلة.

والملاحظ أنه تم إيجاز تلك البيعة وليس هذا فقط، بل بموافقة جماعية من قبل الفقهاء حتى وصفت إحدى المصادر هذه البيعة بأنها لم يختلف عليها اثنان[٤]. أما عن أسباب ودوافع ذلك فلا يمكن تحديد إجابات قطعية حول ذلك، فالمصادر لا تعطينا صورة جليه حول هذا

---

(١) المغيرة بن عبدالرحمن بن محمد الناصر، كان أبرز المرشحين من قبل الصقالبة لتولي الخلافة بعد وفاة الخليفة الحكم الثاني، وكان عمره وقتئذ سبعاً وعشرين عاماً، بيد أنه قتل من قبل الفريق السياسي المنافس الآخر الذي يتزعمه الوزير جعفر المصحفي. انظر: لتفاصيل ذلك عند ابن عذاري، **البيان،** ج٢،ص٢٦١-٢٦٢.

(٢) للمزيد انظر: فوزي العتيبي، **فقهاء الأندلس،** ص٢٤-٢٥.

(٣) ذكر الماوردي في الأحكام السلطانية الشروط المعتبرة لتوفرها في الخليفة وهي: العدالة، العلم المؤدي إلى الاجتهاد في النوازل والأحكام، سلامة الأعضاء، الرأي المفضي إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح، الشجاعة والنجدة المؤدية إلى حماية البيضة وجهاد العدو، النسب وهو أن يكون من قريش. الماوردي. أبي حسن علي بن محمد، **الأحكام السلطانية والولايات الدينية،** تحقيق سمير مصطفى رباب، (بيروت: المكتبة العصرية ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)، ص ١٤.

(٤) ابن عذاري، **البيان،** ج٢، ص٢٦٢.

الأمر[١]، لكن ربما فضل هؤلاء الفقهاء التقيد بالبيعة السابقة التي في أعناقهم حينما أخذها منهم الخليفة الحكم (المستنصر بالله) بولاية العهد لابنه هشام، وأيضاً -ربما- تمسكاً بمنهج الإمام مالك في مثل هذه الأحداث[٢]. أما عن إشكالية سن الأمير المرشح للخلافة؛ فربما قاسوا ذلك الأمر بالتجربة العباسية في المشرق حينما تولى الخلافة عدد منهم دون السن الشرعي[٣]، ومثل تلك القياسات مع المشرق الإسلامي يبدو أنها معتادة كما فعل ذلك المؤرخ الأندلسي (ابن حيان) عند الحديث عن حجب المنصور ابن أبي عامر للخليفة المؤيد بقوله: «وامتثل رسم المستغلبين على سُلطان ولد العباس بالمشرق من أمراء الدَّيلم في عصره»[٤]،

---

(١) حاولنا مناقشة الأسباب والدوافع بشكل موسع بالدراسة والتحليل في كتابنا، **فقهاء الأندلس والمشروع العامري**؛ انظر: فوزي العتيبي، **فقهاء الأندلس**، ص١١٩ وما بعدها.

(٢) كحادثة خروج أحد المنافسين للخليفة أبي جعفر المنصور؛ فحينما سأله بعض من خرجوا على الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، ولعله محمد النفس الزكية فقال: بايعني أهل الحرمين، وأنت ترى ظلم أبي جعفر؟ فقال مالك: «أتدري ما الذي منع عمر بن عبدالعزيز أن يولي رجلاً صالحاً بعده؟ قال: لا. قال مالك: كانت البيعة ليزيد فخاف عمر بن عبدالعزيز إن بايع لغيره أن يزيد الهرج، ويقاتل الناس، ويفسد ما لا يصلح». عياض، **ترتيب**، ج١، ص١٣٩؛ أبو زهرة، **تاريخ المذاهب**، ص٤١٢-٤١٣.

(٣) مثل الخليفة العباسي المقتدر بالله (٢٩٥-٣٢٠هـ/ ٩٠٨-٩٣٢م)؛ إذ بُويع له بالخلافة في عام ٢٩٥هـ/ ٩٠٨م وهو ابن ثلاث عشرة سنة. ابن طباطبا، محمد بن علي، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، (بيروت: دار صادر، د.ت)، ص٢٦٠؛ القلقشندي؛ أحمد بن عبدالله، **مآثر الأناقة في معالم الخلافة**، تحقيق عبدالستار أحمد فراج، (بيروت: عالم الكتب د.ت)، ص٢٧٥؛ السيوطي؛ جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر، **تاريخ الخلفاء**، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، ط١، (لبنان: المكتبة العصرية، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م)، ص٣٣٢.

(٤) ابن بسام، **الذخيرة**، ق٤، ج٧، ص٤٦.

وكذلك ذكر بعض المؤرخين أن الفقيه أحمد بن ذكوان أقنع العبد طرفة -إبّان منافسته مع الوزير عيسى ابن القطاع[١]- بأن بإمكانه تدبير الملك نيابة عن المظفر تشبيهاً -على حد قوله- بتجربة كافور الأسود مولى الإخشيد محمد بن طغج صاحب مصر من المُلك نيابة عن ابن محمد بن طغج[٢].

إن نجاح تنصيب الأمير هشام (المؤيد بالله) بالخلافة، ثم تفرد الحاجب محمد بن أبي عامر بالسلطة دونه، يعتبر مرحلة جديدة من التنافس ما بين طبقة الفقهاء والطبقة السياسية في النفوذ والمكانة في الدولة، وقد أعطت هذه الحالة السياسية الجديدة في الأندلس؛ طبقة الفقهاء مساحة واسعة لاستعادة نفوذها ومكانتها مرة أخرى في الدولة؛ لاسيما إذا اعتبرنا محمد بن أبي عامر نفسه من تلك الطبقة؛ إذ كانت نشأته الأولى من أوساط الفقهاء سواء بنشأته الدينية

---

(١) عيسى بن سعيد المعروف بابن القطاع، كان من كبار الوزراء في حكومة العامريين، وصاحب نفوذ واسع خصوصاً زمن المظفر عبدالملك، من قوم يعرفون ببني الجزيري من كورة باغة من ولاية قرطبة، وكان أبوه معلماً، وصحب محمد بن أبي عامر وقت حركته في دولة الحكم، لتفاصيل أكثر؛ انظر: ابن بسام، **الذخيرة**، ق١، ج١، ص١٠٤ ومابعدها.

(٢) ولي الأمر بعد محمد بن طغج ابنه أبو القاسم أنوجور (محمود) فاستولى على الأمر كافور الخادم الأسود وهو من خدم الإخشيد وغلب أبا القاسم واستضعفه وتفرد بالولاية كافور. ابن الأثير، **الكامل**، ج٧، ص٢١١؛ للمزيد انظر: ابن العديم؛ كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله الحلبي، **زبدة الحلب من تاريخ حلب**، تحقيق خليل المنصور (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م) ج١،ص٧٠؛ ابن الوردي؛ زين الدين عمر بن المظفر بن عمر، **تتمة المختصر في أخبار البشر، المعروف بتاريخ ابن الوردي**، (بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م)، ج١، ص٢٨٣؛ العكري، عبدالحي بن أحمد بن محمد الحنبلي؛ **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، محمود الأرناؤوط، (دمشق: دار ابن كثير ١٤٠٦هـ) ج٣، ص٢١.

أم أعماله الأولى التي تقلدها[١]؛ وهذا ربما ما ميزه وسط الوزراء بما أنه فقيهٌ ووزيرٌ في الوقت نفسه، وهو ربما ما جعل بعض الفقهاء يعدونه منهم ويؤيدونه ضد خصومه السياسيين، خصوصاً ضد أصعب عقبة كانت في طريقه؛ الحاجب المصحفي الذي حوكِم بشكل قاسٍ بعد ذلك[٢].

في المقابل كان العامريون في حاجة ملحة إلى تلك الطبقة لتمرير العديد من القرارات التي تخدم مشروعهم، وهذا ما أعطى العديد من أفراد تلك الطبقة مكانة ونفوذاً في الدولة. والشواهد على ذلك كثيرة؛ منها أنهم باتوا مستشارين للعامريين في الكثير من المسائل حتى أنهم لا يجرؤون في أحيان كثيرة على تنفيذ قراراتهم بعيداً عن رضاء وموافقة هؤلاء الفقهاء، كذلك المنزلة الكبيرة التي بات عليها بعض الفقهاء في العهد العامري، فمثلاً قاضي الجماعة محمد بن يبقى زرب (ت٣٨١هـ/ ٩٩١م)[٣] كان ذا منزلة كبيرة عند العامريين؛ إذ كان

---

(١) كانت أول الأعمال التي قام بها محمد بن أبي عامر هي الكتابة لدى قاضي الجماعة محمد بن السليم (ت ٣٦٦هـ/ ٩٧٧م) بعد ذلك تولى عدة خطط ومناصب بعضها دينية كقضاء إشبيلية Sevilla ولبلة Nieble وأعمالها في عام ٣٥٨هـ / ٩٦٩م، وقاضي القضاة بالمغرب في العدوة. ابن بسام، **الذخيرة**، م٤، ج٧، ص٤٦، ابن عذاري، **البيان**، ج٢؛ ص٢٥١ ابن الخطيب، **أعمال**، ج٢، ص٥٩.

(٢) تنقل بعض المصادر تفاصيل إحدى محاكمات المصحفي، وفيها تفاصيل دقيقة لمدى ما وصل له من ذل وهوان؛ لدرجة أن جعفر المصحفي قال لقضاته: «قد والله استنفدت ما عندي من الطارف والتالد، ولا مطمع فيَّ في درهم، ولو قطعت إرباً إرباً!»، ومع ذلك لم يطلق سراحه، بل أعيد إلى سجنه في مطبق الزهراء. ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص٢٦٨-٢٦٩.

(٣) أبوبكر، محمد بن يبقى بن محمد بن زرب بن يزيد، قرطبي، قال ابن الفرضي عنه: «كان أحفظ أهل زمانه لمسائل مذهب مالك وأفقههم به. وعليه كان مدار طلبه في المناظرة، وكان الفقه جل علمه، ولم تكن له رحلة ولا رواية». له كتاب في الفقه سماه "الخصال". شور في الأحكام أيام القاضي ابن السليم، ولي قضاة الجماعة سنة ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م، توفي في رمضان سنة ٣٨١هـ / ٩٩١م، ابن الفرضي، **تاريخ**، ج٢، ص٨٨؛ الحميدي، **جذوة**، ص١٠٤؛ عياض، **ترتيب**، ج٤، ص٦٣٢؛ ابن سعيد، **المغرب**، ج١، ص٢١٤.

المنصور ابن أبي عامر يجله، ويتحرك إليه إذا أتاه، ويجلسه على فراشه، في المقابل كان ابن زرب مهاباً ولم يقبل له يداً قط[١]، هذا إضافة إلى السلطة الكبيرة التي يتمتع بها هذا القاضي على القضاة المعينين في الحكومة، سواء بالتعيين أم العزل، أم حتى مصادرة الأموال إذا اقتضى الأمر؛ ويتبين ذلك مثلاً في عزله للفقيه محمد بن سعيد بن قرط (ت٣٨١هـ/ ٩٩١م)[٢] من الأحباس[٣]ومصادرته أمواله فمات فقيراً[٤]. وكذلك كانت مكانة القاضي أحمد بن ذكوان في الحكومة العامرية إذ كان من المقربين من ابن أبي عامر وخواصه؛ ومحلّه منه فوق محل الوزراء، يفاوضه في تدبير الملك وسائر شأنه[٥]. بل إن المنصور بن أبي عامر خصص له غرفة داخل قصره ليسهل عليه التشاور معه[٦].

---

(١) ابن فرحون، برهان الدين إبراهيم بن علي، **الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب**، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، (القاهرة: مكتبة دار التراث، د.ت)، ج٢، ص٢٣٠.

(٢) أبو عبدالله، محمد بن سعيد بن عبدالله بن قرط، من أهل قرطبة، كان صاحباً للقاضي ابن السليم، ولما ولي الأخير أحكام القضاة ولاه على الأحباس، عزله بعد ذلك القاضي ابن زرب وصادر أمواله. ابن الفرضي، **تاريخ**، ج٢، ص٨٧.

(٣) الأحباس: مفرده حبس، وهو ما وقف لوجه الله، وهو لفظ عُرف في المغرب والأندلس، أما المشرق فعرف بالوقف، والإشراف على الأحباس من مهام القضاة. ابن زكريا، أحمد بن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق عبدالسلام محمد هارون (بيروت: دار الجيل ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م)، ج٢، ص١٢٨؛ للمزيد انظر: منيرة عبدالرحمن الشرقي، **علماء الأندلس في القرنين الرابع والخامس دراسة في أوضاعهم الاقتصادية وأثرها على مواقفهم السياسية**، (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م)، ص٢٠٤.

(٤) ابن الفرضي، **تاريخ**، ج٢، ص٨٨؛ منيرة الشرقي، **علماء الأندلس**، ص٢٠٥.

(٥) النباهي، **المرقبة**، ص٨٤.

(٦) عياض، **ترتيب**، ج ٤، ص٦٦٣.

وازدادت مكانة الفقيه ابن ذكوان في عهد المظفر عبدالملك حتى نافس وزراء كبار في النفوذ السياسي؛ وربما فطن المظفر لخطورة نفوذ هذا الفقيه الذي بات يتمتع به فعزله عن القضاء، بيد أنه أعاده إلى سابق منزلته وذلك للحاجة إليه، فزاد هذا الأمر الفقيه ابن ذكوان ثقة في قدراته، ولعل أدق تفصيل لتلك الحالة التي أصبح عليها هذا الفقيه نجده في وصف عياض: «فلم يجرِ شيئاً من أمور المملكة -يقصد المظفر- إلا عن مشورة ابن ذكوان، إلى أن هلك عبدالملك المظفر، وولي أخوه عبدالرحمن، فرفع منزلته، وولاه الوزارة مجموعة إلى القضاة»[١]. كذلك تولى الفقيه عبدالرحمن بن فطيس (ت٤٠٢هـ/ ١٠١١م)[٢] مناصب مهمة كالوزارة مع منصب قاضي الجماعة إضافة إلى خطة الصلاة وهي صلاحيات واسعة كما نرى[٣].

ولعل من المعايير المهمة لتبيان ما وصلت إليه هذه الطبقة من الانغماس في السياسة هو ترك بعض الفقهاء الزي المميز بهم ولبس الزي الخاص بالوزراء مثل القاضي عبدالرحمن بن محمد بن فطيس حينما تولى الوزارة، وهذا ما يفهم من نص ابن بشكوال: «فلما ولي القضاء غيّر زيه وترك زي الوزراء وعاد إلى أخضر زي الفقهاء رحمه الله»[٤]. ويفهم من هذا النص أن هذا

---

(١) عياض، **ترتيب**، ج٤، ص٦٦٤.

(٢) أبو المطرف؛ عبدالرحمن بن محمد بن عيسى بن فطيس، تولى قضاء الجماعة سنة ٣٩٤هـ/ ١٠٠٤م مقروناً بولاية صلاة الجمعة والخطبة مضافاً ذلك كله إلى خطته العليا بالوزارة، توفي سنة ٤٠٢هـ/ ١٠١١م. عياض، **ترتيب**، ج٤، ص٦٧١؛ ابن بشكوال، **الصلة**، ج٢، ص٤٦٦-٤٧٠؛ ابن سعيد، **المغرب**، ج١، ص٢١٦؛ النباهي، **تاريخ**، ص٨٧-٨٨؛ ابن فرحون **الديباج**، ج١، ص٤٧٨-٤٧٩.

(٣) رضا هادي عباس، **الأندلس محاضرات في التاريخ والحضارة**، (د. م: منشورات إلجا ١٩٩٨م)، ص٢٤١.

(٤) ابن بشكوال، **الصلة**، ج١، ص٢٥٧.

الفقيه الذي كان يشغل مناصب عدة في الوزارة كان يلبس زياً خاصاً بالوزراء ثم عاد إلى زي الفقهاء الأخضر بعد أن تولى القضاء(١). كذلك ذكر القاضي عياض أن الفقيه أحمد بن عبدالله الحضرمي (ت٣٦٦هـ/ ٩٧٦م)(٢) حينما ولي القضاء للمنصور بن أبي عامر صار من أصحابه، وتولى عدة مناصب مثل الوزارة وصاحب المدينة(٣). أيضاً؛ نجد الحاجب محمد بن أبي عامر يتفاخر بوجود فقيه مثل إبراهيم بن محمد الحضرمي (ت٣٩٦هـ/ ١٠٠٦م)(٤) بجانبه، ويذكر قدراته على تولي المناصب والوظائف المختلفة، إذ قال: «في أصحابي رجل بصير بدنياه يصلح لكل خطة، من مكاني بالحجابة، إلى مكان بوابي فلان فيما بينهما..»(٥).

بيد أنه يجب أن نشير إلى أن نفوذ الفقهاء لم يكن دائماً في مصلحة العامريين وموافق لرؤاهم، بل كان في أحيانٍ مصادم لمشاريعهم لاسيما السياسية منها، ولعل خير شاهد على ذلك حينما جمع المنصور بن أبي عامر بعض الوزراء والفقهاء في مجلس خاص له وذلك لهدف تمرير قرار خطير يرمي من ورائه نقل الخلافة من البيت الأموي إلى البيت العامري(٦)، فكان

---

(١) يذهب أحمد فكري؛ إلى أن للقضاة زياً أخضر يميزهم عن غيرهم من الفقهاء، بينما نجد في نص ابن بشكوال السابق أنه نص على أن الزي للفقهاء دون تخصيصه للقضاة. انظر: أحمد فكري، **قرطبة**، ص٣٠٦.

(٢) أحمد بن عبدالله بن محمد بن عروس الموروري الحضرمي، كان الخليفة يصرفه في الأمانات، كان عالماً بالحديث والفقه.سلك سبيل العلماء. ولي القضاء ببعض النواحي، ثم صحب ابن أبي عامر وبات من خاصته، توفي سنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٦. عياض، **ترتيب**، ج٤، ص٦٨٨-٦٨٩.

(٣) عياض، **ترتيب**، ج٤، ص٦٨٨-٦٨٩.

(٤) أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الحضرمي المعروف بابن الشرفي، صاحب الشرطة والمواريث، والصلاة والخطبة بالمسجد الجامع بقرطبة، توفي سنة ٣٩٦هـ/ ١٠٠٦م. عياض، **ترتيب**، ج٣، ص٣٨٧، ابن بشكوال، **الصلة**، ج١، ص٨٧.

(٥) عياض، **ترتيب**، ج٤، ص٣٧٨.

(٦) ابن حزم، **نقط، رسائل**، م١، ص٧٧.

المعارض الأبرز لمثل هذا القرار قاضي الجماعة محمد بن زرب، فلم يتجرأ المنصور على مخالفته[١].

إن هذه المكانة الواضحة والمميزة التي بات يتمتع بها الفقهاء زمن العامريين ربما كانت من الأسباب التي دعت عبدالرحمن (شنجول) إلى محاولة التقليل من نفوذهم والحط من منزلتهم، وذلك حينما قام بالتعدي على عرف اجتماعي اختص به الفقهاء عن بقية الطبقات، إذ طلب عبدالرحمن (شنجول) من رجاله طرح قلانسهم الطوال المرقشة الملونة -وكانوا يعتبرونها تيجانهم التي يتباهون بها- إلى لبس العمائم وألزمهم بذلك، ففعلوا مكرهين خوفاً من العقوبة التي وعدهم بها (شنجول) لمن لا يتقيد بهذا الأمر[٢]، وقد وصفت تلك المصادر منظر هؤلاء وازدراء الناس لهم؛ مما جعلهم في أقبح صورة وأصبحوا في الناس فضيحة[٣]. لأن تلك العمائم لا تليق إلا بالفقهاء وبمكانتهم، وأن ليس من السهل لبس تلك العمائم في قرطبة. لذا رأى الفقهاء في أمر (شنجول) تعدياً على حقوقهم وامتهاناً لكرامتهم بتسويتهم بالعامة، وتعديه على عرف اختصوا به وحدهم؛ وهو ما رآه أهل قرطبة تعدياً جديداً على حرمة الدين واستهانة بحرماته[٤].

وعليه؛ يتبين أنه كان هناك تنافس واضح ما بين طبقة الفقهاء وطبقة السياسيين في تلك المرحلة الخطيرة التي كانت تمر بها الأندلس، وكان هناك مد وجزر في العلاقة والنفوذ، وتبين أن الحقبة العامرية شهدت عودة نفوذ الفقهاء السياسي؛ بل أصبح نفوذهم واضحاً في الدولة

(١) انظر: أعلاه، ص١٤٤؛ هامش رقم (٢).

(٢) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٤٨.

(٣) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٤٨.

(٤) دوزي، **المسلمون**، ج٢، ص١٦٢؛ فوزي العتيبي، **فقهاء الأندلس**، ص٢١٧.

والمجتمع[(١)]، ويرى إبراهيم بيضون «أن علاقة المنصور مع الفقهاء ظاهرة مميزة في تاريخ الدولة الأموية في الأندلس، حيث قام لأول مرة توازن في العلاقة بين السلطة والفقهاء، الذين لهم تأثيرهم الكبير في المجتمع، مما كان يؤدي أحياناً إلى المصادقة الدائمة على النفوذ بينهم وبين السلطة الزمنية»[(٢)].

من هنا يتضح أن نفوذ الفقهاء -في تلك الحقبة- صار واضحاً، وهذا ربما ما جعلهم قادرين على تأدية الكثير من الأدوار السياسية المؤثرة سواء في سقوط النظام العامري أم ما تبعه من أحداث سياسية جسيمة؛ فقد كان عدد من الفقهاء طرفاً مؤثراً فيها، ولعل أصدق دليل على ذلك الدور الذي لعبه التيار -إن صح التعبير- الذي يقوده الفقيه ابن ذكوان خلال تلك الحقبة في محاولته نقل الخلافة من الأمويين إلى العامريين؛ إذ أفتوا بجواز نقل الخلافة إلى العامريين مستندين على الحديث الشريف: **(لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق العرب بعصاه)**[(٣)]. وقد ذكر ابن الأبار أن الخليفة هشام المؤيد استفتى في ذلك فقهاء قرطبة وعلماءها حينئذ، فسوغوا له ما طلب و احتجوا بالحديث السابق: **(لا تقوم الساعة حتى يخرج...)**[(٤)].

---

(١) أحمد الطاهري، **عامة قرطبة**، ص٢٠٨.

(٢) إبراهيم بيضون، **الدولة العربية في إسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة ٩٢-٤٢٢هـ/ ٧١١-١٠٣١م**، (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨٠م)، ص٣٢٢.

(٣) ابن الخطيب، **أعمال**، ج٢، ص٩٢، هذا الحديث النبوي ورد في الصحيحين في البخاري، البخاري، محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري**، تحقيق وتخريج أحمد زهوة وأحمد عناية، ط١، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م)، ص٧١٧، ص١٤٣٩، وفي مسلم، مسلم بن حجاج القشيري، **صحيح مسلم**، تحقيق وتخريج أحمد زهوة وأحمد عناية، ط ١، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م)، ص١١٩١.

(٤) ابن الأبار، **الحلة**، ص١٥٥.

وقد أثار هذا الأمر غضب العامة، وشاعت بينهم أبيات من الشعر تستهجن فعل قاضي الجماعة وقتئذ ابن ذكوان وكاتب (شنجول) ابن برد[١]:

إن ابـــن ذكـــوان وابـــن بـــرد قـــد ناقـــضا الـــدين بعـــد عمـــد

وعانـــــدا الحـــــق إذ أقامـــــا حفيـــــد شـــــانجه ولي عهـــــد[٢]

إن هذا التيار أو ما يُسميه محمد جبرون الاتجاه التجديدي؛ تجديد نسق المشروعية[٣]؛ قد فشل في مسعاه في نقل الخلافة إلى العامريين، لذا يبدو أنه مال إلى صف العامة والثائرين ضد النظام العامري، فالفقيه ابن ذكوان رغم أنه كان من المقربين من النظام العامري والفاعلين فيه إلا أنه انقلب على أولياء نعمته، بل كان محرضاً ومعادياً لهم حينما قامت الثورة ضدهم في قرطبة، وكان وقتئذ يصحب قائد العامريين عبدالرحمن (شنجول) بن أبي عامر مع جيشه خارج قرطبة، وكان له دور في محاولته تثبيط معنويات جنده وحثهم على عدم المشاركة في القتال ضد الثائرين؛ بل ذهب إلى أبعد من ذلك حينما فسّق وطعن بعبدالرحمن (شنجول)، وقد نقل لنا ابن عذاري نصاً يؤكد مثل هذا الأمر، وينقله على لسان أحد زعماء قبائل زناته المشارك في جيش (شنجول) وهذا نص الكلام كما نقله (ابن عذاري): «بلغنا عن القاضي أبي

---

(١) أبو حفص؛ أحمد بن محمد بن أحمد بن برد، مولى أحمد بن عبدالملك بن شهيد، يذكر الحميدي أنه أدركه بالمرية بعد سنة ٤٤٠هـ/ ١٠٥٠م، وذكر أن له رسالة في السيف والقلم والمفاخرة بينهما. الحميدي، **جذوة**، ص١١٨.

(٢) ابن الأبار، **الحلة**، ص١٥٥.

(٣) ويقصد به «اتجاه رأى أصحابه أن أطر وقواعد نسق المشروعية التقليدية لم تعد قادرة على التجاوب مع العصر والوفاء بمقتضياته، وبالتالي ذهبوا إلى تغييرها أو على الأصح اضطروا لتعديلها بالزيادة والحذف، ومن أهم الشروط التي لحقها التبديل شرط النسب»، محمد جبرون، **الفكر السياسي في المغرب والأندلس في القرن الخامس الهجري في تشكل الهوية السياسية في المغرب وتكريس الفتنة في الأندلس**، (الرباط، دار راقراق، ٢٠٠٨م)، ص٢٢٨.

العباس ابن ذكوان أنه يتبرأ من عبدالرحمن ويفسقه ويكره أمره ويستعظم ما يدعو الناس إليه من قتال جماعة المسلمين بقرطبة ويشفق من إقحام الجيش عليها لاستباحة من فيها، وفيهم الصالحون ومن لا ذنب له من الذراري والعيال، وينبس من ذلك بالكلمة بعد الكلمة وهو مع عبدالرحمن تحت القبة»[١].

ويبدو أن الزعيم الزناتي لم يكن متأكداً من صحة مثل هذا الكلام لذا بادر بلقاء القاضي ابن ذكوان بنفسه وتأكد من صحة ما نقل له[٢]، والملاحظ رغم انتشار خبر ابن ذكوان بين قادة جيش شنجول؛ إلا أن ذلك -فيما يبدو- لم يصل لشنجول بدليل إرسال الأخير القاضي ابن ذكوان إلى قرطبة ليتوسط له عند المهدي ويطلب له الأمان، وظل شنجول ينتظر خارج قرطبة مع نفر يسير من أهله وأصدقائه، إلا أن أمله خاب حينما كان القاضي ابن ذكوان أشد الناس عليه عند الثائر المهدي!![٣]. ولا ندري سر هذا العداء الكبير الذي أظهره ابن ذكوان لعبدالرحمن (شنجول) حتى يعمد لتصفيته بدلاً من محاولة حفظ دمه ودم أصحابه الذين معه والمساهمة في الصلح. ولعلنا نتساءل إذا كان ابن ذكوان غير راضٍ عن أعمال (شنجول) لِمَ لمْ يعتزل العمل معه أو حتى إظهار ذلك الإنكار لو بطرق غير صدامية؟!. عموماً؛ ربما كان موقف ابن ذكوان هذا من الأسباب التي جعلت الثائر المهدي يثق به ويجعله في منصب قاضي الجماعة[٤].

ويبدو أن مواقف هذا الفقيه تتبع مصالحه الذاتية في أحيانٍ كثيرة، بدليل أن موقفه تغير من ناحية المهدي حينما شارفت حكومته على السقوط بعد انتصارات البربر التي حققوها على

---

(١) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٦٧.

(٢) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٦٧-٦٨.

(٣) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٧١.

(٤) ابن بشكوال، **الصلة**، ص٤٣؛ ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٥٠-٥١.

جيش المهدي وباتوا في طريقهم إلى قرطبة؛ إذ رفض ابن ذكوان أن يكون وسيطاً للصلح بين المهدي والبربر[١]. وربما يكون المبرر لابن ذكوان في ذلك خشيته من ردة فعل البربر تجاهه، خصوصاً بعد المذابح التي حصلت لهم في قرطبة إبّان حكم المهدي وهو متولٍ له قضاء الجماعة!. بيد أننا سنجد أن ابن ذكوان بعد ثلاث سنوات من هذه الحادثة، وبعد سقوط حكومة المهدي وقتل الأخير؛ يذهب مع مجموعة من الفقهاء إلى سليمان (المستعين) ورؤساء القبائل البربرية ليطلبوا الأمان! فأمنوهم مقابل أموالٍ عظيمة أُغرموا بها[٢].

بيد أنه كان هناك طائفة من الفقهاء معارضة لوجود هؤلاء البربر، بل كانت تدعو لقتالهم، وعلى رأس هؤلاء الفقهاء الفقيه يحيى بن وافد (ت٤٠٤هـ/ ١٠١٤م)[٣] الذي ذكرت بعض المصادر أنه كانت هناك الطائفة الوافدية أصحاب القاضي يحيى بن وافد القائلين بحرب البرابرة[٤]، وذكر عياض أن ابن وافد كان من الأشداء على البرابرة[٥]. لقد كان هذا الفقيه من أشد المعادين للبربر، لذا كانت نهايته مؤلمة[٦].

---

(١) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٨٧.

(٢) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص١١٢.

(٣) أبوبكر؛ يحيى بن عبدالرحمن بن وافد اليحصبي، تقلد الشورى بعهد العامريين، وتقلد الصلاة بالزهراء مدة إلى أن استعفاها، ثم ولي القضاء والخطبة بعد عزل القاضي أحمد بن ذكوان، ونكبته في الفتنة، ولقب بقاضي القضاة. عياض، **ترتيب**، ج٤، ص٦٦٨؛النباهي، **المرقبة**، ص٨٨-٨٩.

(٤) المرواني، **عيون**، ص٧٢.

(٥) عياض، **ترتيب**، ج٤، ص٦٧٠.

(٦) ذكرت بعض المصادر أنه بعد أن قبض على ابن وافد سيق راجلاً مكشوف الرأس، نهاراً، يُقاد بعمامته في عنقه، والمُنادي ينادي عليه: «هذا جزاء قاضي النصارى»، وهو يقول مجاوباً بل والله ولي المؤمنين، وعدوُّ المارقين أنتم شر مكاناً، والله أعلم بما تصفون. ثم أمر بصلبه وتشفع فيه فأخرج إلى سجن المطبق فكان لايأكل فاعتل في محبسه وتوفي فيه. النباهي، **المرقبة**، ص٨٩.

إن الشواهد كثيرة على مدى استمرار تغلل عدد من طبقة الفقهاء في الأمور السياسية؛ فمثلاً كان الفقيه أحمد بن عبدالملك المعروف بابن المكوي (ت٤٠١هـ/ ١٠١١م)[١] كبير أهل قرطبة وقتئذ هو من دخل على هشام ليسمع خلع نفسه! وبذلك يكون شاهداً على سقوط دولة هشام المؤيد ومن يدور في فلكها[٢]. كذلك كان للفقهاء في العهد الجديد -بعد سقوط العامريين- مجلس يجمعهم بالوزراء في كل يوم للمشاورة في أمور الدولة، لكن هذا المجلس كان مسلوب القرار لافتقاده أدوات تنفيذية في الميدان لتفعيل القرارات وإنجازها، لذا كانوا كلما قرروا أمراً في اليوم فسخوه في غدٍ[٣]. ويظهر أن لقب الوزارة كثر في طبقة الفقهاء، إذ أشار ابن حيان إلى أن الفقيه عبدالرحمن بن سعيد بن جُرج (ت٤٣٩هـ/ ١٠٤٧م)[٤] كان يحمل اسم الوزارة من الفقهاء في هذه الفتنة البربرية[٥].

إن من يتتبع أحداث تلك الحقبة يجد أن مشاركة الفقهاء كانت واضحة في أمور سياسية بحتة، سواء في التصالح مع البربر أم حتى عقد معاهدات مع النصارى الغازين للبلاد الإسلامية في الأندلس[٦]. بل ذهب الأمر أبعد من ذلك حينما استغل بعضهم مال الأحباس

---

(١) أبوعمر؛ أحمد بن عبدالملك بن هاشم الإشبيلي، المعروف بابن المكوي، من كبار الفقهاء والمفتين بقرطبة، دعي إلى القضاء مرتين فأبى، توفيسنة٤٠١هـ/ ١٠١٠م. الحميدي، **جذوة**، ص١٣٣؛ النباهي، **تاريخ**، ص١٣.

(٢) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٦٠.

(٣) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص١٠٥.

(٤) أبومطرف؛ عبدالرحمن بن سعيد بن جُرج، من أهل البيرة، سكن قرطبة، له رحلة للمشرق، ولي الشورى بقرطبة، ذكر ابن بشكوال أنه من أهل الخير كثير الصلاة حافظاً للمسائل وله حظ من علم النحو، بينما ذكر ابن حيان أن وفاته كانت عام٤٣٩هـ/١٠٤٧م ودفن في مقبرة الربض. ابن بشكوال، **الصلة**، ص٢٧٣-٢٧٤.

(٥) المرواني، **عيون**، ص١٣١.

(٦) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص ١٠٣؛ ص١٠٧.

في الصراعات الداخلية بين البربر وعامة قرطبة، وفي ذلك يعلق ابن عذاري: «وجرد القاضي عنايته في ذلك ووعد بخمسمئة فرس من مال الأحباس يحمل عليها مرتجلة العبيد وهو يعلم أن القاتل والمقتول في النار»(1).

ومجمل القول؛ إن شريحة الفقهاء بات نفوذها السياسي واضحاً خصوصاً زمن العامريين، وهذا ما ساعد بعض أفرادها من تبوء مناصب سياسية حينما سقط نظام العامريين مستغلين الفراغ السياسي التي عاشته البلاد، والشواهد على ذلك واضحة، مثل مشاركتهم في إلغاء الخلافة الأموية، وتولية رئاسة قرطبة شخص من تلك الطبقة هو ابن جهور، كذلك تشكيل بعضهم لإمارات سياسية مستقلة كما حصل مع القاضي إسماعيل بن عبّاد (ت٤١٤هـ/ ١٠٢٣هـ) في إشبيلية، والقاضي مختار بن عبدالرحمن الرعيني (ت٤٣٥هـ/ ١٠٤٣م)(2) في المرية(3)، بل استطاع أحدهم اعتلاء منصب الخلافة!(4) وتسمى بالمنتصر بالله، وأثبت اسمه في السكة وفي أعلامه(5). وقد علقت بعض المصادر على ذلك بالقول: «وثار كل قاضٍ في موضعه..» (6).

---

(1) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص١٠٣.

(2) أبو الحسن؛ مختار بن عبدالرحمن بن سهر الرعيني، من أهل قرطبة، قال عنه ابن بشكوال: «كان جامعاً لفنون العلم والمعرفة»، تولى قضاء المرية فأحسن السيرة. ابن بشكوال، **الصلة**، ص٤٨٤.

(3) المرية Almeria: تقع شرق الأندلس، أمر ببنائها الخليفة عبدالرحمن الناصر عام ٣٤٤هـ/ ٩٥٥م، وهي مدينة كبيرة من كور إلبيرة. وتقع على ساحل البحر، فيها مرفأ ومرسى للسفن والمراكب. ياقوت، **معجم البلدان**، ج٥، ص١١٩؛ الحميري، **الروض**، ص٥٣٧.

(4) يدعى الفقيه أبومحمد عبدالله المعيطي، نصبه خليفة؛ مجاهد العامري في دانية عام ٤٠٥هـ/ ١٠١٤م. ابن بسام، **الذخيرة**، ق١، ج١، ص٤٣.

(5) ابن بسام، **الذخيرة**، ق١، ج١، ص٤٣؛ ابن الأثير، **الكامل**، ج٨، ص١١١؛ السيد سالم، **قرطبة**، ج١،ص٨٨.

(6) ابن الكردبوس، **تاريخ**، ج٢، ص١٢١٨.

خامساً: نفوذ النساء السياسي:

تبوَأت المرأة الأندلسية خلال حقبة الخلافة مكانة مميزة اجتماعياً وسياسياً، ولعل الطفرة الاقتصادية والثقافية التي عمت البلاد خلال تلك الحقبة قد طال أثرها على المرأة الأندلسية بشكل واضح، فباتت هناك المتعلمة والمثقفة والعاملة[1]، بل والمؤثرة في الشأن السياسي الأندلسي. ففي المجال العلمي وصلت المرأة الأندلسية إلى درجات متقدمة من العلم والمعرفة جعلها تتبوأ مراكز علمية واجتماعية وحتى سياسية مهمة، ولا أدل على ذلك مما ذكره العالم ابن حزم أنه تعلّم على أيدي نساء القرآن الكريم والشعر والكتابة[2]، وما تزخر به كتب الطبقات من تراجم لنساء اشتغلن في العلوم والآداب[3]، وهذا ما جعل الساسة يثقون بهن ويجعلوهن كاتبات عندهم في القصر كالكاتبة مُزنة[4]عند الخليفة عبدالرحمن (الناصر)،

---

(١) ذكر ابن حزم بعض المهن التي تزاولها المرأة الأندلسية في تلك الحقبة، مثل الطبيبة والحجامة والدلالة والماشطة والنائحة والصانعة في المغزل والنسيج. ابن حزم، **طوق، رسائل**، م١، ص١٤٢.

(٢) ابن حزم، **طوق، رسائل**، م١، ص١٦٦.

(٣) كغالبة بنت محمد المعلمة الأندلسية، كانت تروي عن أصبغ بن مالك الزاهد، وفاطمة بنت يحيى بن يوسف قال عنها ابن بشكوال: «كانت خيرة فاضلة عالمة فقيهة». وعائشة بنت أحمد بن محمد القرطبية، قال ابن حيان عنها: «لم يكن في جزائر الأندلس في زمانها من يعدلها فهماً، وعلماً، وأدباً، وشعراً، وفصاحة، وعفة وجزالة وحصافة». ومريم بنت أبي يعقوب الفيصولي الشلبي، قال الحميدي عنها: «أديبة شاعرة جزلة مشهورة، كانت تعلم النساء الأدب، وتحتشم لدينها وفضلها». وذكر ابن حيان أن أخت القاضي منذر بن سعيد البلوطي كانت من خيرة نساء بلدها فاضلة متعبدة، وكان لها مسجد ملاصق لبيتها يقصدها النساء للذكر والتفقه في الدين ودراسة سير العابدين. وللمزيد انظر: تراجم أرقام عند ابن بشكوال، (١٥٣١)، (١٥٣٥)، (١٥٣٦)، (١٥٣٧)، (١٥٣٨)، (١٥٣٩)، (١٥٤١)، (١٥٤٢). الحميدي، **جذوة**، ص٣٩٩، ابن بشكوال، **الصلة**، ج٢، ص٥٣٠-٥٣٢؛ ابن الأبار، **التكملة**، ج٤، ص٢٥٥.

(٤) مُزنة، كاتبة الخليفة عبدالرحمن الناصر، قال ابن بشكوال عنها: «كانت حاذقة من أخط النساء»، توفيت عام ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م. ابن بشكوال، **الصلة**، ج٢، ص٥٣١.

والكاتبة لُبنى[١] عند الخليفة الحكم (المستنصر بالله)، ويبدو أن الخطابات التي يُعدنها ويكتبنها لم تكن لموضوعات بعيدة عن الشأن السياسي أو لأمور اعتيادية في الغالب، بدليل أن الكاتبة نظام[٢] هي من أنشأت الخطاب الذي عزَّى فيه المظفر في أبيه وجدد له البيعة بولايته في شوال عام ٣٩٩هـ/ ١٠٠٢م[٣].

يظهر دور المــرأة الأندلسية السياسي المؤثر مــن خــلال شخصيات نسائية ساهمت بشكل واضــح في لعب أدوار مهمة في الشأن السياسي خـــلال تلك الحقبة، بل كان بعضهن أحد الأسباب المهمة في سقوط النظام العامري برمته. وتبرز خــلال ذلك شخصيتان نسائيتان الأولى السيدة صبح[٤] أم الخليفة هشام (المؤيد بالله)، والثانية الذلفاء

(١) لُبنى كاتبة الخليفة الحكم المستنصر بالله، قال ابن بشكوال عنها: «كانت حاذقة بالكتابة، نحوية شاعرة بصيرة بالحساب، مشاركة في العلم، لم يكن في قصرهم أنبل منها»، توفيت سنة ٣٧٤هـ/ ٩٨٤م. ابن بشكوال، **الصلة**، ج٢، ص٥٣١.

(٢) كانت كاتبة بقصر الخلافة في قرطبة أيام الخليفة هشام، قالوا عنها إنها: «كانت بليغة مدركة محبرة للرسائل». ابن الأبار، **التكملة**، ج٤، ص٢٤٩؛ ابن عبدالملك؛ محمد بن محمد بن عبدالملك المراكشي الأنصاري، **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، تحقيق محمد بن شريفة، (المغرب: مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، ١٩٨٤م)، ج٨، ص٤٩٤.

(٣) ابن الأبار، **التكملة**، ج٤، ص٢٤٩؛ ابن عبدالملك، **الذيل**، ج٨، ص٤٩٤.

(٤) صبح: Aurora جارية بشكنسية "نافارية"، كان سيدها الحكم يسميها جعفر، وجعفر في اللغة معناها النهر أو الناقة الغزيرة الحلب، ولعلها ترمز هنا للعطاء، لأنها أنجبت لسيدها ولي العهد، وكانت حظيةً الحكم، توفيت في خلافة ابنها هشام. ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص٢٥٣؛ للمزيد انظر: محمد عنان؛ **دولة الإسلام**، ج٣، ص٣٤-٣٥؛ سيمون حايك، **صبح البشكنسية أو عهد الحكم المستنصر والدولة العامرية**، (د.ن ١٩٧٦م)؛ رواية عبدالحميد شافع، **المرأة في المجتمع الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط قرطبة**، (مصر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠٦م)، ص١١٧.

والدة الحاجب عبدالملك (المظفر)، فصبح كانت من أقرب نساء الخليفة الحكم المستنصر بالله إلى قلبه، وهي من أنجبت له ولي عهده هشام على كبر، وكانت حريصة على تولي ابنها سدة الخلافة بعد والده، ورغم أنه كان ولي عهد والده والخليفة المتوج بعده إلا أن الأحداث التي أعقبت وفاة الخليفة الحكم كادت أن تذهب بسدة الخلافة إلى الأمير المغيرة بن الناصر بمؤامرة كان خلفها كبار الصقالبة في القصر بقيادة جؤذر وفائق، بيد أن مخططهم كشف وأحبط، وكان وراء إحباطه الوزير جعفر المصحفي ومحمد بن أبي عامر[١]، ويبدو أن السيدة صبح حاولت مكافأة محمد بن أبي عامر فأخرجت أمر الخليفة للحاجب جعفر المصحفي بالاستعانة بمحمد بن أبي عامر في التدبير والمشورة له في الأمور، والاختصاص به على الجمهور[٢]، ويظهر أن السيدة صبح وجدت في ابن أبي عامر شخصية مناسبة ومن الممكن الوثوق بها، نظراً لكونه ذا تجربة عملية عريضة في المجالات الإدارية والسياسية والعسكرية[٣]، علاوة على ما أبداه من حماسة في

---

(١) انظر: تفاصيل ذلك عند ابن بسام، **الذخيرة**، ق٤، ج٧، ص٤٤، ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص٢٦١.

(٢) ابن بسام، **الذخيرة**، ق٤، ج٧، ص٤٥.

(٣) انتقل محمد بن أبي عامر للعمل في الزهراء عندما طلبت السيدة صبح من يقوم بتدبير أعمال ابنها الصغير عبدالرحمن، فتم اختيار ابن أبي عامر ليكون وكيلاً لولد الخليفة، وذلك في التاسع من ربيع الأول سنة ٣٥٦هـ/ ٢٢ فبراير سنة ٩٦٧م، ثم أضيف له خطة دار السكة وذلك في شوال ٣٥٦هـ / ٩٦٧م، وبعدها بأشهر قليلة قدمه الخليفة الحكم لخطة المواريث في محرم ٣٥٨هـ/ ٩٦٨م، ثم قضاء كورة إشبيلية ولبلة وأعمالها وذلك في ذي الحجة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م.وبعد وفاة عبدالرحمن ابن الخليفة، كُلِّف بوكالة الابن الثاني هشام، وذلك في الرابع من رمضان سنة ٣٥٩هـ/ ٩٧٠م، ثم ولاه الخليفة الحكم الشرطة الوسطى في جمادى الآخر سنة ٣٦١هـ / ٩٧٢م، ثم تولى الأمانات بالعدوة، وجعله قاضِ القضاة بالغرب من العِدوة. ثم أضاف إليه الخليفة الحكم قبيل وفاته النظر في الحشم.ابن بسام، **الذخيرة**، ق٤، ج٧، ص٤٦، ابن الخطيب، **أعمال**، ج٢، ص٥٩ ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص٢٥١؛ للمزيد انظر: فوزي العتيبي، **فقهاء الأندلس**، ص٢٩.

القضاء على منافسي هشام (المؤيد بالله)[1] لذا وجدت من المهم وضعه في مراكز سيادية في الدولة حتى بلوغ ابنها لسن يتسنى له تولي شؤون البلاد بنفسه بعد ذلك[2].

على أن ابن أبي عامر كانت لديه مشاريعه الخاصة، فحاول الانفراد بالسلطة وحده واستبعاد الخليفة (هشام المؤيد بالله) عن تدبير الشؤون السياسية بنفسه، وهنا لم تقف السيدة صبح مكتوفة الأيدي، بل حاولت الاتصال بالزعيم الزناتي زيري بن عطية (٣٩١هـ/ ١٠٠١م)[3] في المغرب ودعمه بالأموال لإسقاط المنصور بن أبي عامر[4]، مستغلة وجود الأموال في قصر الخلافة، لكن المنصور كشف المخطط وأفشل ذلك التحالف، ولخطورة وجود المال العام بالقرب من شخصية ليست سهلة كصبح، قام المنصور بنقل المال من قصر الخلافة في قرطبة إلى مدينته الزاهرة، وحاولت السيدة صبح منع هذا الأمر، رغم أن المنصور لم يتخذ هذا القرار إلا بعد أخذ موافقة الخليفة هشام نفسه وبعض الفقهاء[5]، لكن ذلك لم يمنع السيدة صبح من محاولة إفشال هذا العمل لمعرفتها بخطورة هذه العملية التي أقدم

---

(١) ابن عذاري، **البيان**، ج٢، ص٢٦١؛ فوزي العتيبي، **فقهاء الأندلس**، ص٤٤.

(٢) أما ما يقال عن العلاقة الغرامية بين صبح وابن أبي عامر فقد دحضناها في كتابنا فقهاء الأندلس والمشروع العامري. انظر: فوزي العتيبي، **فقهاء الأندلس**، ص٤٢ ومابعدها.

(٣) زيري بن عطية بن عبدالله بن تبادلت بن محمد بن حزر الزناتي المغراوي الخزري، تزعم زناته سنة ٣٦٨هـ/ ٩٨٨م، وأقام في المغرب معلناً ولاءه للأمويين وللحاجب محمد بن أبي عامر بعد سقوط دولة الأدارسة، فسيطر زيري على جميع بوادي المغرب، وعلى مدينة فاس. توترت العلاقة بينه وبين المنصور بن أبي عامر، وجرت بينهم حروب انتهت بانتصار العامريين، ومات زيري متأثراً بجراحه جراء تلك الحروب، سنة ٣٩١هـ/ ١٠٠١م. ابن أبي زرع، **الأنيس**، ص١٠٢-١٠٧؛ ابن خلدون، **تاريخ** ج٢، ص٢٤٤٢-٢٤٤٤.

(٤) ابن بسام، **الذخيرة**، ق٤، ج٧، ص٥٣؛ رينهرت دوزي، **المسلمون**، ج٢، ص١٣٦.

(٥) ابن بسام، **الذخيرة**، ق٤، ج٧، ص٥٤.

عليها المنصور على مستقبل ابنها السياسي، فحاولت منع هذا الأمر، وفي ذلك ذكر ابن حيان مشاهدات والده لهذا الموقف وعن مدى استبسال تلك المرأة في محاولة صد المظفر بن المنصور المكلف بحمل تلك الأموال من قصر الخلافة إلى الزاهرة، فقال: «أخبرني أبي بعظيم ما شاهده من صرامة تلك المرأة لابن أبي عامر وولده ورميها لهما بكل عظيمة، وعبدالملك يومئذ ساكتٌ يتجرَّع غُصَصه، لا يردُّ بكلمة»[١]، ويبدو أن المنصور ابن أبي عامر بدهائه السياسي عرف كيف يحجم دورها السياسي بشكل نهائي، فلم يعد لها دور يذكر بعد تلك الحادثة[٢]. ويرى يوسف حوالة أن السيدة صبح بالأدوار التي حاولت القيام بها تمثل صورة من صور التسلط النسوي في البلاط الأموي[٣].

الشخصية النسائية الأخرى التي كان لها دور خطير في الشأن السياسي الأندلسي هي الذلفاء والدة المظفر، والتي كانت من محظيات المنصور بن أبي عامر المقربات لديه، والتي استطاعت كسب ثقته حتى ائتمنها على بعض الأموال الخاصة به[٤]. ويظهر أن تلك السيدة بعد وفاة المنصور وتولي ابنها المظفر باتت تتمتع بمكانة كبيرة في الدولة، فذكرت بعض المصادر أن المظفر ما عدل بوالدته في سلطانه أحداً ولا غير لها حالاً ولا خالف لها أمراً[٥]. ويمكن تأكيد هذا النفوذ والمكانة من بعض الأحداث السياسية التي حصلت أثناء حكم

---

(١) ابن بسام، **الذخيرة**، ق٤، ج٧، ص٥٤.

(٢) توفيت السيدة صبح سنة ٣٨٩هـ/ ٩٩٩م، ابن الفرضي، **تاريخ**، ج١، ص١٧٠.

(٣) يوسف أحمد حوالة، المرأة في البلاط الأموي في الأندلس ١٣٨-٤٢٢هـ/ ٧٥٥-١٠٣٠م دراسة في سيرتها ودورها السياسي والاجتماعي والثقافي، **حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية**، الكويت، الرسالة ٢١٢، الحولية ٢٤، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥، ص١٤١.

(٤) ابن الخطيب، **أعمال**، ج٢، ص٨٢.

(٥) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٣.

المظفر، فتذكر بعض المصادر أنه كانت هناك مؤامرة سياسية يُخطط لها لقلب نظام الحكم العامري، يتزعمها الوزير عيسى بن سعيد القطاع، الذي بات نفوذه كبيراً في الدولة، لذا رأى أن يستبدل الخليفة هشام المؤيد بالله بأمير أموي آخر؛ كان يستنجز حوائجه في الدولة بعيسى، فربما وجد فيه الأخير فرصة لينفرد بالحكم باسمه، بيد أن المؤامرة تكشفت لبعض العيون العامرية[١]. وأخبر بها صاحب الرد الفقيه أبو حاتم بن ذكوان (ت٤١٤هـ/ ١٠٢٣م)[٢] ؛ والملاحظ في الرواية أن الفقيه أبا حاتم لم يخبر المظفر عبدالملك بهذا الأمر الخطير مباشرة؛ بل أخبر رجلاً ثقة عند الذلفاء وهو بدوره أخبرها؛ فلما علمت بذلك عزمت على ابنها قتله فخرج لوقته فأمر بقتله[٣]. ويتضح من هذه الحادثة أن للذلفاء مكانة واضحة في الدولة والنظام العامري، لأن مسألة حساسة كهذه كان من المفترض أن تعرض على الحاجب المظفر مباشرة، فهي تمس أمن النظام العامري برمته، بيد أن التوصل إلى الذلفاء لإخبارها بمثل هذه الحادثة يؤكد أنها تتمتع بمنزلة عظيمة في النظام العامري.

إن دور الذلفاء الخطير يكمن فيما قامت به بعد وفاة ابنها عبدالملك، إذ يبدو أنها لم تستكن لوفاة ولدها المفاجئ واتهمت أخاه غير الشقيق عبدالرحمن (شنجول) أنه وراء موته[٤]. ورغم أن شنجول عاملها معاملة طيبة، إذ «أجمل عشرتها وعظم منزلتها وأقرها مع ولد أخيه عبدالملك ابنها وحرمه.. لم ينقصها شيء من حالها»[٥]. إلا أن الذلفاء قد تمكن حقدها عليه،

---

(١) ابن بسام، **الذخيرة**، ج١، ق١، ص١٠٦-١٠٧، ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٣٢.

(٢) أبو حاتم، محمد بن عبدالله بن هرثمة بن ذكوان، من أهل قرطبة، صحب القاضي محمد بن زرب وتفقه عنده، تولى الشورى، وأحكام المظالم بقرطبة. عياض، **ترتيب**، ج٤، ص٦٦٧؛ ابن بشكوال، **الصلة**، ص٣٩٧.

(٣) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص ٣٢.

(٤) ابن الخطيب، **أعمال**، ج٢، ص١٠٩.

(٥) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص ٥٢.

لذا سعت للإطاحة به، فتذكر بعض المصادر دورها الواضح في دعم الثورة في إسقاط عبدالرحمن (شنجول)؛وأنها كانت على علاقة بالثوار بمدهم بالأموال لقتل عبدالرحمن (شنجول)[(١)]. وقد نجحت الثورة في إسقاط الحاجب عبدالرحمن (شنجول) لكنها أسقطت معه النظام العامري برمته.

ورغم سقوط النظام العامري إلا أن الذلفاء بقيت في مكانة مميزة اجتماعياً؛ إذ ظلت تملك الكثير من المال، فالثائر المهدي أمر بأن تُصان ولا تمس، فكانت تدير أملاكها بشيء من الحرية، خصوصاً أنها أودعت كثيراً من الأموال والذخائر بعيداً عن قصرها قبيل الثورة، ومن ذلك اجتنى ابن ابنها محمد بن عبدالملك بعد موتها[(٢)].

كذلك كانت هناك مشاركة نسائية في أحداث الفتنة البربرية من خلال احتواء بعض الملاحقين سياسياً من قبل الثوار، وهذا ربما يعبر عن بعض مواقف تلك النسوة في مدى الرضا على القائمين على رأس السلطة من عدمها؛ فمثلاً الفقيه يحيى بن وافد الثائر على البربر، استخفى عند امرأة حينما كان من أشد الملاحقين عند البربر[(٣)]، وربما تكون هذه المرأة من ضمن الطائفة الوافدية المؤيدة لما يراه هذا الفقيه من محاربة البربر وطردهم من قرطبة، وربما اختار الفقيه هذه المرأة لثقته بها، وربما ليبعد الأنظار عن مكانه، إذ من الممكن أن يستبعد وجود فقيه عند امرأة أجنبية عنه. في المقابل إن قبول هذه المرأة لرجل مطلوب لدى السلطات القائمة دليل على مدى ما تتمتع به هذه المرأة من قوة وجرأة لما يمكن أن يحصل لها في حال كشف أمره.

---

(١) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٣٢، ص٦٣، للمزيد انظر: رواية شافع، **المرأة في المجتمع**، ص١٢٥-١٢٦.

(٢) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٦٤.

(٣) النباهي، **المرقبة**، ص٨٨.

ولم تكن هذه المرأة الوحيدة التي يُستنجد بها، بل إن خليفة الأندلس المخلوع هشام (المؤيد بالله) اختار المكوث عند الكاتبة أميمة جارية الحسين بن حيي وحظيته، إذ كانت أميمة ممن يحرس الخليفة هشام المؤيد بالله[1] أيام تغيبه بدار الحسين بن حيي(٤٠١هـ/ ١٠١١م)[2].

* * * * *

(١) ابن الأبار، **التكملة**، ج٤، ص٢٥٠.

(٢) أبوعبدالله؛ الحسين بن حي بن عبدالملك بن حي التجيبي، من أهل قرطبة، شاوره القاضي محمد بن يبقى بن زرب، فصار صدراً في المفتين بقرطبة، قال ابن بشكوال عنه: «كان حافظاً للمسائل على مذهب الإمام مالك، ذاكراً أصولها». له رحلة إلى المشرق، تولى الوثائق السلطانية في حجابة المظفر عبدالملك، وتوليقضاء بعض المدن كباجة ومدينة سالم وجيان.توفيفي صدر الفتنة البربرية في ثمان ذي القعدة سنة ٤٠١هـ/ ١٠١١م بعد اختفاء ومحنة عظيمة نالته. ابن بشكوال، **الصلة**، ج١، ص١٢٩.



الفصل الرابع

نتائج التحولات الاجتماعية على الأوضاع السياسية في الأندلس

الفصل الرابع

نتائج التحولات الاجتماعية على الحياة العامة في الأندلس

تمهيد:

إن التحولات الاجتماعية التي حدثت في قرطبة خلال حقبة الخلافة، لم يتوقف تأثيرها عند سقوط الخلافة الأموية، بل تعتبر نتائج تلك التحولات أحد العوامل الرئيسة لما آلت إليه الأندلس في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، أو عصر ما يسمى في التاريخ الأندلسي؛ عصر ملوك الطوائف، إذ قسمت الأندلس إلى ممالك وطوائف، كتأثير طبيعي للتحولات التي حدثت أثناء تلك الحقبة، فالأندلس بقالبها الاجتماعي التي باتت عليه أثناء تلك الحقبة؛ أثرت في تشكيل أطرها السياسي خلال عصر ملوك الطوائف، فالتقسيم الاجتماعي كان أعمق وأبقى أثراً من تقسيمها السياسي؛ إذ جزأت القبائل والأعراق في الأندلس ومزقتها إلى قطع متناحرة.

وفي هذا الباب سنحاول إلقاء الضوء على أبرز النتائج التي تمخضت عنها تلك التحولات على الحياة العامة في الأندلس خلال تلك المرحلة، لا سيما السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية.

أولاً: النتائج السياسية :

رأينا أن قرطبة في بدايات القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي باتت في دوامة كبيرة بعد جملة من التخبطات السياسية والحروب الأهلية، وهذا بدوره ألقى بظلاله على الأوضاع العامة في الأندلس، ولعل من أكبر الأخطاء السياسية تأثيراً هي السياسة التي اتبعها سليمان (المستعين بالله) خلال فتره حكمه[1]، وقد وصف بعض المعاصرين له سوء سياسته

---

(١) هذا غير الأخطاء السياسية الأخرى التي ارتكبها الثائر الأموي محمد (المهدي) بن هشام بن عبدالجبار والتي كان لها تأثيراتها على الوحدة الأندلسية، بيد أن ما قام به المستعين يعتبر ضربة قاتلة للوحدة الأندلسية.

وإدارته للبلاد؛ فمثلاً قال ابن حزم عنه: «وهو الذي كان شؤم الأندلس وشؤم قومه؛ وهو الذي سلَّط جنده من البرابرة، فأخلوا مدينة الزهراء وجمهور قرطبة حاشا المدينة، وأفنوا أهلها بالقتل والسبي، وهو لا ينكر ولا يغير»(١). و قال عنه ابن حيان يصف سنوات حكمه بأنها : «كلها شداد نكرات كريهات المبدأ والفاتحة لم يعدم فيها حيف ولا أمن فيها خوف»(٢).

كذلك فهو لم يكتف بالإجراءات الانتقامية التي فعلها في قرطبة وضواحيها؛ والتي أدت إلى تأجيج نار الحرب الأهلية في الأندلس، بل زاد على ذلك حينما ضرب الوحدة الأندلسية في مقتل بقيامه باقتطاع أجزاء من الأندلس وتوزيعها على القبائل(٣).

والظاهر أن تلك الرغبة لم تصدر عن سليمان نفسه، بل من أحد قادته الكبار وهو زاوي بن زيري الصنهاجي، يؤكد ذلك ابن حيان حينما نقل لنا حديثاً على لسان زاوي الصنهاجي يقول فيه: «إن مثل هذا الحال لا يقوى على الاستطالة، فيقيّد له رئيس كل قبيلة منكم، قبيلة يتكفّل السلطان بتقويمهم، وأنا الكفيل بصنهاجة»(٤). وهنا تظهر بوضوح أهداف هذا القائد الصنهاجي السياسية، ولعل المنصور بن أبي عامر كان على صواب حينما تفادى دخول زاوي بن زيري إلى الأندلس إبّان فترة حكمه ربما لخشيته من أهدافه السياسية تلك، بينما لم يتقيد ابنه عبدالملك المظفر بسياسة والده وسمح له بالعبور إلى الأندلس(٥)، فكانت له مساهمات

---

(١) ابن حزم، **جمهرة**، ص١٠٢.

(٢) ابن بسام، **الذخيرة**، ق١، ج١، ص٣٩؛ ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص١١٨.

(٣) ذكر بعض المصادر أن بعد دخول المستعين قرطبة دخوله الثاني قسم البلاد بين ست قبائل إذ أعطى صنهاجة إلبيرة فبقيت بيد حبوس وذريته نحو مائة سنة، ومغرواة الجوف، ومنذر بن يحيى سرقسطة، وبنو برزال وبنو يفرن جيان وذواتها، وبنو دمّر وأزدواجه شذونة ومورور وغير ذلك من الحصون. انظر: ابن الخطيب، **أعمال**، ج٢، ص١١٩؛ ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص١١٣.

(٤) ابن الخطيب، **الإحاطة**، ج١، ص٢٩٥.

(٥) ابن بسام، **الذخيرة**، ق٤، ج٧، ص٥٩؛ ابن سماك، **الزهرات**، ص١٢٦-١٢٧.

سياسية واضحة وخطره على الأندلس أدت إلى تقسيم الأندلس في نهاية الأمر. ولعل أدق تحليل لكلام الزعيم الصنهاجي زاوي السابق هو ما ذكره ابن حيان تعقيباً على كلام زاوي السابق بقوله: «وامتازت بطون القبائل على أرحامها وقبائلها إلى أفخاذها وفصائلها، فاجتمع كل فريق منهم على تقديم سيده، فاجتمعت صنهاجة على كبيرهم زاوي، ولم تزل تلك القبائل المتألّفة بالأندلس لطاعة أميرها المُنادين له إلى أن أورثوهم الإمارة»[(١)].

وبهذه القرار السياسي الأرعن؛ قتل سليمان (المستعين بالله) أي بارقة أمل في إمكانية استعادة قرطبة توازنها السياسي ومن ثم سيطرتها على بقية المدن الأخرى. خصوصاً أن تلك المدن نشأت فيها قوى محلية متنفذة عميقة الجذور تنتظر الفرصة السانحة للاستفراد بقرارها وعدم الخضوع لحكومة مركزية في قرطبة[(٢)]، وبذلك بات من الصعوبة خضوع تلك المدن لقرطبة مرة أخرى لا سيما وهي بتلك الحالة الضعيفة سياسياً. بل يمكن القول إن قرطبة باتت تشكل خطورة واضحة على أي نظام سياسي يحاول أن يتربع على عرشها، بسبب الغليان الاجتماعي العارم الذي ينبع من محيطها وأرباضها والذي كان نتائجه واضحة في التعاقب السريع على كرسي الحكم فيها[(٣)]، هذا إضافة إلى عدم وجود شخصية سياسية توافقية -إن صح التعبير- بين تلك الأطياف الاجتماعية المختلفة والمتصارعة والذي أدى بدوره إلى انفراط عقد الخلافة وتشتت الأندلس سياسياً واجتماعياً إلى ممالك متباغضة متناحرة.

كذلك من أبرز النتائج السياسية؛ هي التجرؤ على الخلافة، وذلك بانتحال بعض صفاتها والتسمي بمسمياتها، فالحاجب محمد بن أبي عامر هو من ابتداء هذا الأمر حينما لقب نفسه

---

(١) ابن الخطيب، **الإحاطة**، ج١، ص٢٩٥.

(٢) صلاح خالص، **محمد بن عمار الأندلسي، دراسة أدبية وتاريخية**، (بغداد: دار الهدى، ١٩٥٧م) ص١١، عمر إبراهيم، **صورة المجتمع**، ص٣٩.

(٣) للمزيد من التفاصيل انظر: المقري، **نفح**، ج١، ص٤٣١ ومابعدها.

بالمنصور[١]، دون أن يحدث ذلك العمل أي غضبة اجتماعية، وسار على نهجه ابن عبدالملك وتلقب بالمظفر وفي ذلك علقت بعض المصادر بقولها: «وسما الحاجب عبد الملك آخر وقته من طلب اللقب السلطاني الذي أولع الناس به فلا حيلة في إزالتهم عنه»[٢]. وزاد على هذا الأمر ابن المنصور الآخر عبدالرحمن بن محمد بن أبي عامر فتلقب بالناصر والمأمون[٣]. بل ذهب أبعد من ذلك حينما طلب الخلافة لنفسه.

إن مكانة الخلافة في نفوس الأندلسيين لم تعد ذات قيمة شرعية واجتماعية وسياسية خلال تلك الحقبة بل وصلت لمرحلة أن طالبوا بإلغائها بعد ذلك. وما إن انفرط عقد الخلافة وتشتت الأندلس إلى ممالك متفرقة حتى تجرأ على ألقاب الخلافة كثير من ملوك الطوائف، ومع ذلك لم تكن تلك الألقاب ذات قيمة لهم إذ لم تصبغ على حكمهم شيئاً من الشرعية أو الهيبة ، بل باتوا مجال سخرية حتى قيل فيهم بعض الأبيات المشهورة مثل:

مما يبغضني في أرض أندلسِ ... سماع مقتدر فيها ومعتضد

ألقاب مملكة في غير موضعها ... كالهر يحكي انتفاخاً صورة الأسد[٤]

ثانياً: النتائج الاجتماعية:

(أ) انقسام الأندلس إلى شرائح اجتماعية متناثرة متنافرة:

يبدو أن الفئات الاجتماعية مختلفة الأعراق -عرب، بربر، مولدين، موالي إسبان- في الأندلس باتت تشعر بشخصيتها الأندلسية المتميزة عن العناصر الجديدة التي ازداد عددها -خلال حقبة الخلافة- خاصة من عناصر الصقالبة والبربر[٥]. ولعل عدم احتواء الساسة سواء العامريين أم من أتى بعدهم للتباعد والتنافر الذي كان يتزايد بين القرطبيين وتلك

---

(١) الحميدي، **جذوة**، ص٨٣.

(٢) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص١٥.

(٣) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٣٨.

(٤) ابن بسام، **الذخيرة**، ق٤، ج٧، ص١٢١.

(٥) أحمد بدر، **تاريخ الأندلس**، ج٢، ص٢٣٤.

العناصر الوافدة الجديدة أدى إلى تناحر وتباغض بين تلك العناصر حتى وصل الأمر إلى حروب وفتن كثيرة، وهذا بدوره أدى إلى تمزق المجتمع الأندلسي إلى فئات متباغضة متناحرة تتقاتل فيما بينها، بل الأشد من ذلك والأنكى هو الاستعانة بالدول النصرانية في الشمال في هذه الأحداث مما جعل الأمور أكثر تعقيداً وإيلاماً.

ولعل شواهد ذلك تكون أكثر وضوحاً حينما أُسقط العامريون بثورة شعبية قرطبية داخلية، لم تقف عند سقوط حكومة العامريين، بل تجاوزت ذلك إلى محاولة اجتثاث تلك العناصر الوافدة خاصة البربر. ومما ساعدهم على ذلك الأمر أن قائد الثائرين محمد (المهدي) بن هشام بن عبدالجبار كان متعصباً للقرطبيين ضد العناصر الأخرى من المجتمع القرطبي، لاسيما البربر الوافدين في حكومة العامريين[1]، وهذا الأمر أعطى المتعطشين المتعصبين من أهل قرطبة فرصة للانتقام من البربر، بدليل ذكر بعض المؤرخين أنه نهبت كثير من دور البربر في الرصافة والسبب يعود إلى سوء تصرف ابن عبدالجبار (المهدي)، إذ قال في نفس اليوم الذي نهبت فيه تلك الدور: «لا يركبن أحد من الغزاة إمارة لهم ولا يحمل سلاحاً ولا يأت القصر»[2]. ويبدو أن المهدي بسوء سياسته فتح باب الفتنة على مصراعيه، وفي ذلك قال بعض المؤرخين إن فعل السفيه ابن عبدالجبار ورأيه سبب الفساد والفتنة العظيمة الطويلة التي يسميها أهل الأندلس بالفتنة البربرية، ولو سمّوها بفتنة ابن عبدالجبار لكان الأحق والأولى[3].

وقد تكون هذه المقولة أنسب للواقع التاريخي، فالمهدي نزع خيوطاً اجتماعية كان من الممكن أن يعيد بها نسيج المجتمع الأندلسي إلى وضعه الطبيعي، فالمجتمع القرطبي بالفعل كان في حالة انقسام واضح اجتماعياً (قرطبيون– بربر– صقالبة..) قبيل سقوط العامريين،

---

(١) انظر: تفاصيل ذلك عند ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٧٥ وما بعدها.

(٢) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٧٥.

(٣) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٧٦.

وفي ذلك ذكر أحمد هيكل أنه أدى استخدام المنصور للمرتزقة من بربر وصقالبة ونصارى إسبان؛ إلى نوع من الانفصال بين الشعب والجيش، بل وإلى شيء من الكراهية يضمرها كل فريق للآخر[١]. لكنه كان سياسياً -على الأقل- في حالة استقرار، وما قام به المهدي من أعمال سياسية فتحت هذا البغض والكراهية على مصراعيه للانتشار في أرجاء قرطبة، فترك للقرطبيين مجالاً للفتك بالبربر، وهؤلاء قاموا بإحداث مجازر بالقرطبيين، أما الصقالبة العنصر المهم الآخر في الدولة وفي النسيج الاجتماعي فقد استبعدوا من قرطبة بقرار من المهدي إلى الأطراف الشرقية من الأندلس فملكوا ذلك الجزء[٢].

إن هذه السياسة الإقصائية من قبل المهدي هي التي دفعت بعض زعماء البربر إلى التحالف مع ابن ولي عهد المهدي السابق؛ هشام بن سليمان بن الناصر، خصوصاً بعد توتر العلاقات بين المهدي وولي عهده وسجن الأخير[٣]، وقد كان هشام بن سليمان بحاجة لقوة يستند عليها للوقوف في وجه الخليفة الجديد، وكان البربر بحاجة إلى واجهة شرعية ليحكموا من خلالها، لذا وجدوا في هشام خير معين لهم في الخروج على المهدي ومن ورائه أهل قرطبة فسموه الرشيد[٤]، وقرروا الخروج على المهدي قبل أن تمضي ثلاثة أشهر على خلافته، وانضم إلى هذا الحلف الصقالبة العامريين[٥].

---

(١) أحمد هيكل، **الأدب الأندلسي**، ص٢٦٨.

(٢) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٧٧.

(٣) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٧٨.

(٤) ذكر ابن حزم أنه تسمى بالمعصوم، بينما جاء عند ابن عذاري أن البربر لقبوه بالرشيد. ولعله كان له لقبان. ابن حزم، **نقط، رسائل**، م١، ص٥٨؛ ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٨٣.

(٥) انظر: تفاصيل ذلك عند ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٧٨ومابعدها؛ أحمد بدر، **تاريخ الأندلس**، ج٢، ص٢٠٧.

فباتت قرطبة أمام حرب أهلية لا تبقي ولا تذر، وبدل أن يحاول المهدي إخماد تلك الفتنة وتهدئتها، وذلك بكسب تعاطف البربر معه، قام بعمل نقيض ذلك، فأجج الموقف وزاد في إثارة النعرات العرقية؛ إذ سمح للعامة بنهب دور البربر، وأمر أن ينادى عن مكافأة لكل من يقتل بربرياً..![١]، ويبدو أن المهدي بفعلته هذه حاول أن يكسب مزيداً من التأييد من قبل المتعصبين من القرطبيين ضد البربر، وما علم أنه بهذا الأمر زاد من شدة الاحتقان وزاد في الفتنة لهباً، فسارع الكثير من القرطبيين للقيام بهذه المهمة[٢]، وبات القتل بشكل عشوائي حتى لكل متشبه بالبربر[٣].

إن ما قام به محمد (المهدي) ابن عبدالجبار قد فتح المجال على مصراعيه لحرب أهلية أكلت الأخضر واليابس، وجعلت الأندلس في صراع عرقي اجتماعي بغيض، لم يقف عند قرطبة وحدها بل انتقل الصراع إلى ميادين جديدة وحروب طويلة أرهقت الأندلس وحطمت وحدتها سياسياً واجتماعياً، لاسيما أن من تعاقب على السلطة بعده لم يكونوا على قدر الكفاءة والمسؤولية[٤].

---

(١) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٨١.

(٢) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٨١.

(٣) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص ٨١.

(٤) إن كان اللوم كبيراً على ابن عبدالجبار في إشعال الفتنة فهناك كثير ممن ساهموا في استمرارها، كالحكام الذين تعاقبوا على حكم قرطبة خلال تلك المرحلة؛ فمثلاً هشام (الرشيد) بن سليمان بن الناصر الثائر على المهدي حاول القاضي ابن ذكوان وابن حزم أن يمنعانه من الخروج خوف الفتنة وسوء العاقبة لكنه لم يسمع كلامهما، ودخل مع المهدي في حرب أهلية، ومما زاد الأمر سوءاً استعانة سليمان (المستعين بالله) والبربر بالنصارى في الشمال، فأحدثوا في قرطبة مذبحة عظيمة قتل فيها من أهل قرطبة نيف على ثلاثين ألفاً. بقي نقطة مهمة يجب أن ننوه عليها وهي أن هؤلاء الحكام إنما هم نتاج هذا المجتمع في الأخير لذا لا نستثني كذلك بعض القرطبيين والبربر من هذا الأمر. انظر: ابن الخطيب، **أعمال**، ج٢، ص١١٣؛ ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٨٢-٨٣.

وعليه يمكن القول إن الأندلس تشتتت إلى شرائح اجتماعية قبيل سقوط الخلافة الأموية، واتضح ذلك جلياً بعد سقوط الخلافة بشكل رسمي، إذ تشكلت الخريطة الأندلسية على هذا النحو؛ الأندلسيون (أهل البلد) تمكنوا من السيطرة على بعض المناطق خاصة في وسط الأندلس كقرطبة إذ حكمها بنو جهور، وإشبيلية سيطر عليها بنو عباد، بينما المرية وسرقسطة حكمها بنو تجيب العرب، ولاردة Leruda(١)، استقل بها سليمان بن هود الجذامي(٢)، ولبلة سيطر عليها أحمد بن يحيى اليحصبي(٣)، وبنو الأفطس سيطروا على غرب الأندلس(٤)، بينما اقتسم الأطراف بقية الطوائف من بربر وصقالبة، فالبربر استولوا على الجزء الجنوبي مثل غرناطة Granada(٥)

---

(١) لاردة Leruda: تقع في ثغر الأندلس الشرقي، وكانت قد خربت وأقفرت فجدد بنيانها إسماعيل بن موسى بن لب عام ٢٧٠هـ/ ٨٨٣م. وهي مدينة حصبة تكثر فيها البساتين والفواكه. الحميري، **الروض**، ص٥٠٧.

(٢) سليمان بن محمد بن هود الجذامي، يلقب بالمستعين، كان أيام وحدة الأندلس من كبار الجند بالثغر الأعلى حتى اشتعلت الفتنة فاستقل بلاردة. ابن الخطيب، **أعمال**، ج٢، ص١٧٠؛ ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٢٢١-٢٢.

(٣) أبو العباس، أحمد بن يحيى اليحصبي اللبلي، لقبه تاج الدولة، ثار في لبلة أثناء الفتنة التي أعقبت سقوط العامريين، بايعه أهل تلك النواحي سنة ٤١٤هـ/ ١٠٢٣م واستقامت له الأمور، ولم يكن له معاند ولا ثار عليه ثائر. استمر يحكم منطقته حتى سنة ٤٣٣هـ/ ١٠٤٢م، ولم يكن له عقب فأوصى إلى أخيه وعهد إليه. مجهول، **أخبار دول وملوك الطوائف بجزيرة الأندلس**، ملحق بكتاب، ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٢٩٩-٣٠٠.

(٤) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٢٣٦.

(٥) غرناطة Granada: كانت إلبيرة هي المدينة قبل غرناطة، فلما بنى زاوي بن زيري الصنهاجي مدينة غرناطة وقصبتها وأسوارها انتقل الناس إليها، وذكر ابن الخطيب أنه انحازت صنهاجة مع زاوي إلى غرناطة، فأووا إليها واتخذوها ملجأ وحماها زاوي ، وأقام بها ملكاً، وأثل بها سلطاناً لذويه، فهو أول من مدن غرناطة وبناها وزادها تشييداً ومنعة، واتصل ملكه بها. ابن زيري ، **البيان**، ص٢٠ ومابعدها ، ابن الخطيب، **الإحاطة**، ج١، ص٢٩٤؛ المقري، **نفح**، ج١، ص١٥٠.

وقرمونة ومالقه[1]، بينما الصقالبة سيطروا على الأجزاء الشرقية من الأندلس[2].

ويبدو أنه كانت هناك محاولات لتشكيل أحلاف بين تلك الطوائف والممالك، إذ ذكر ابن حيان أنه «تميز أمراء الأندلس وملوكهم من قبائل البربر وغيرهم وصاروا فريقين ما منهم من يحذر الدار الآخرة»[3].

---

(١) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٢٦٢، ص٢٦٧.

(٢) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص١٥٥؛ عمر إبراهيم، **صورة المجتمع**، ص٣٩.

(٣) فصل ابن حيان في هذا الأمر بقوله: «أحد الفريقين فيه عظيمهم سليمان بن هود الجذامي وصاحب الثغر الأعلى ومعه مقاتل الصقلبي وصاحب طرطوشة وعبدالعزيز بن أبي عامر صاحب بلنسية ومن تحتهما من أصحاب الأعمال بالموسطة، وكان ابن معن صاحب المرية وسعيد بن رفيل صاحب شقورة وغيرهما من الرؤساء إلى الوزير محمد بن جهور صاحب قرطبة، كان هؤلاء الأندلسيون نمطاً واحداً متظاهرين على عظيم البرابرة يومئذ باديس بن حبوس الصنهاجي صاحب غرناطة ومن تميز معه من البربر ومن يدعو إليه من إدريس بن يحيى صاحب مالقة، وكانوا متعاضدين متناصرين على من يباينهم من الأمراء سواهم على اختلافهم في الرأي والدعوة، وكان هؤلاء الثغريون المذكورون يدعون لهشام المنصوب في إشبيلية، وكان باديس ومن والاه من أمراء البرابرة يدعون لإمامهم بمالقة وهو إدريس بن يحيى بن علي بن حمود الحسني، وكان أبو نور بن أبي قرة صاحب رندة وكورة تاكرنا يدعو بابن عباد-لعلها لابن عباد-ورضي ابن عباد منه بذلك.وفريق آخر من أملاك الأندلس المسارعين في التمايز كمجاهد العامري صاحب دانية، وكابن الأفطس صاحب بطليوس ومن يتصل به من الرؤساء بالغرب، ويحيى بن ذي النون صاحب طليطلة، وإسحاق بن محمد البرزالي صاحب قرمونة، ومن والاه من الامراء الأصاغر مثل ابن نوح وابن خزرون وغيرهما، يلتفت جميع هؤلاء النمط لعبَّاد المعتضد صاحب إشبيلية وكلهم على دعوته الهاشمية ما خلا يحيى بن ذي النون فإنه كان في هذا الوقت ساكناً عن الدعاء لأحدعليرسم والده ورسم أهل قرطبة إلى أن دخل في دعوة ابن عباد سنة ست وثلاثين لما التحم ما بينهما..». ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٢١٩-٢٢٠.

(ب) صعود أصحاب المكانة الاجتماعية الدُنيا إلى مراكز عُليا في الحكم والمجتمع:

كانت المناصب الحساسة والهامة في الأندلس خلال حقبة الأمويين تكاد تكون حكراً على بيوتات معينة، ومن النادر أن يتجاوز أحد من خارج تلك البيوتات إلى مناصب ذات سيادة ونفوذ، ولعل محمد بن أبي عامر من القلائل الذين وصلوا إلى مثل تلك المناصب وهو من خارج تلك البيوتات. ويعتبر وصول المنصور محمد بن أبي عامر إلى سلطة الأندلس بشكل فعلي نقطة تحول فعلي في الشأن الأندلسي، فهو كسر هذا الحاجز بوصول من هم خارج تلك البيوتات إلى مراتب عُليا في الدولة وبالتالي شجع هذا الأمر كل طامح سياسي لا ينتمي إلى تلك البيوتات العريقة أن يسعى إلى السلطة.

كذلك سمح العامريون بصعود أصحاب بيوتات متوسطة ودُنيا إلى مراكز عُليا في الدولة، وكانت لتلك البيوتات أو الأسر دور واضح ومؤثر في الأحداث السياسية التي أعقبت سقوط العامريين، وفي اقتطاع أجزاء من الأندلس ليتولوا حكمها ويتوارثوه، ومن أبرز هؤلاء صاحب سرقسطة منذر بن يحيى، إذ قال عنه ابن حيان: «كان منذر بن يحيى صاحب سرقسطة رجلاً من عرض الجند، ترقى إلى القيادة آخر دولة ابن أبي عامر، وتناهى أمره في الفتنة إلى نيل الإمارة....وكان أبوه من الفرسان غير النبهاء»[١]. وكذلك كان بنو عباد في إشبيلية؛ إذ برز جدهم القاضي إسماعيل بن عباد أيام العامريين[٢].

وسنلحظ أن هذا الأمر تفشى بعد سقوط العامريين، إذ إن كثيراً من تلك الدويلات التي نشأت -بعد ذلك- لم يكن حكامها ذوو جذور عميقة في الحكم والسياسة؛ فمثلاً؛ كان بنو الأفطس الذين حكموا بطليوس من أغمار الناس، إذ ذكر ابن حيان بداية سيطرتهم على تلك

(١) ابن بسام، **الذخيرة**، ق١، ج١، ص١٤٧.

(٢) النباهي، **المرقبة**، ص٩٤.

الجهات بقوله إن عبدالله بن مسلمة وهو رجل من مكناسة، كان يساعد ويظاهر سابور العامري – أحد صبيان فائق الخادم فتى الحكم- حينما بسط نفوذه على بطليوس وثغر الغرب، ثم سيطر عبدالله هذا بشكل كبير على أمور المنطقة، ولما توفي سابور سنة ٤١٣هـ/ ١٠٢٢م ورث سلطانه من بعده، فاستولى على الأمور وتلقب بالمنصور مؤسساً مملكة بني الأفطس[١]. ومثلهم كان بنو صمادح[٢]؛ إذ ذكر ابن حيان أن جدهم: «محمد بن أحمد بن صمادح كان صاحب مدينة وشقة وعملها، طلعت نباهته في أيام المؤيد بالله»[٣].

ولم يتوقف الأمر عند الأسر الصغيرة تلك بل ذهب الأمر إلى أبعد من ذلك حينما تمكن العبيد من الوصول إلى السلطة وحكم بعض الأقاليم، ولعل أبرز مثال العبيد العامريين وسيطرتهم على بعض المناطق سواء في حكم قرطبة نفسها بعض الوقت أم سيطرتهم على شرق الأندلس[٤]. ولعل الحالة الكبيرة التي وصلا إليها مظفر ومبارك في حكم مناطقهم في شرق الأندلس جعلت أحد المعاصرين لهما يجعل هذه الحالة من الاعتبار في أحوال الدنيا، إذ يقول عنهما: «وكنت أعرفهما عبدي مهنة لمولاهما مُفرج العامري فكان حظي من الاعتبار في الدنيا...»[٥]. وقد حاولا مبارك ومظفر مجاراة الحكام العظماء للأندلس في مواكب خروجهم، ولعل هذا الأمر ما جعل المؤرخ المعاصر لهما ابن حيان يتعجب من الحالة التي وصلا إليها فقال: «حدَّث من رأي مركوب هذين العبدين الزلمتين في بعض أيام الجمع للمسجد الجامع

(١) ابن الأبار، **الحلة**، ص٢٢٧؛ عمر إبراهيم، **صورة المجتمع**، ص٨٠.

(٢) ذكر ابن حيان أنهم من تجيب، قال الحجاري: كانت مدة المملكة الصمادحية نحو خمسين سنة ونيف. ابن بسام، **الذخيرة**، ق١، ج٢، ص٥٥٦؛ ابن سعيد، **المغرب**، ج٢، ص١٦٣.

(٣) ابن بسام، **الذخيرة**، ق١، ج٢، ص٥٥٦.

(٤) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص١٠١، ص١٥٥.

(٥) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص١٦٢.

ببلنسية بها أنسى مركب المظفر عبدالملك بن أبي عامر مولاهما المثير كان للنعمة الوارث لحجابة الخلافة في فخور لباسهما ووفورعدد أصحابهما وحسن خدمتهم لهما...»[١].

كذلك كان من الذين وصلوا إلى مناصب سلطوية وهو من أبناء الطبقة العامة الوزير حكم الحائك[٢] أواخر الحقبة الأموية، ولعل أحد المعاصرين لتلك الحقبة يصف تلك الحالة بشيء من الدقة بقوله: «على أن أكثر من لفظتهُ يومئذ تلك الفتنة القرطبية، من الطبقة الأدبية، فأفلت من شركها، ونجا من دركها، قوم لم تكن لهم بيوت مشهورة، ولا حظوظ من الأدب موفورة، ولكنهم وجدوا ملوكاً أغماراً، لا يعرفون إلا سُرَى الليل، ومتون الخيل، أسود شعاب...»[٣].

ويذكر ابن حيان أن بعض أصحاب الطبقة الخاصة[٤] التي كانت في قرطبة تطبعت بأخلاق العوام وباتت في طبقة متدنية، فقال: «وأما عترة الأشراف الأموية، فتقلببهم الزمان وغير أحوالهم الحدثان، وكان بقرطبة منهم طائفة غامضة الشخوص، باذة الهيئة، عارمة الأدب والمروءة، متطبعة بأخلاق العوام الغفل، أكثرهم من ولد الناصر»[٥]. ويبدو أن هذا التحول شمل العديد من أبناء تلك الطبقة؛ بدليل ما تذكره بعض المصادر من أن يونس بن أحمد

---

(١) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص١٦١-١٦٢.

(٢) يسمى حكم بن سعيد القزاز، تولى الوزارة زمن الخليفة هشام (المعتدبالله). للمزيد انظر: ، ابن الخطيب، **أعمال**، ج٢، ص١٣٨؛ ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص١٤٨.

(٣) ابن بسام، **الذخيرة**، ق٣، ج١، ص٢٠.

(٤) يرى محمد عبود أن مصطلح الخاصة استعمل لتمييز الفئة الاجتماعية المحظوظة والتي شملت الطبقة الحاكمة والعائلات ذات النفوذ من الأعيان والتجار والملاكين الكبار. ويرى أنه خلال عهد الطوائف طرأ على هذا المصطلح بعض التغيير حيث بات يتكون من عناصر جنسية مختلطة لأن المجتمع الأندلسي أصبح ملتحماً حيث اندمجت فيه جميع العناصر العرقية من العرب والبربر والصقالبة والإسبان.محمد عبود، **جوانب من الواقع**، ص١٩-٢٢.

(٥) ابن بسام، **الذخيرة**، ق١، ج٢، ص٤٦٤.

الجذامي(ت٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م)[١] ـ كان من أبناء النعم بقرطبة الذين سلختهم الفتنة فيها فاضطر إلى التعيش بالوراقة، وكان والده من خاصة الخليفة الحكم وطبيبه[٢]. وكذلك يروي ابن حيان قصة قد تكون غير مهمة في موضوعها وتفاصيلها، إنما تكمن أهميتها في رأي ابن حيان فيها خصوصاً أن الأخير محسوب على الطبقة الخاصة، وابن حيان هنا يؤكد على هذا التحول الاجتماعي حيث قال: «ومن غرائب هذا الدهر الغُفل في اعتبار تحوّل العالم..»، ثم يسرد قصة لامرأة عجوز من العامة توفيت وحضر جنازتها أعيان البلد بما فيهم ابن جهور نفسه. فيصف هذا الأمر بقوله: «فقضي العجب بمشاهدة هذه النادرة في امرأة من نساء حثالة العامة»[٣].

بيد أنه يجب أن نشير إلى أنه من الأخطاء السياسية الواضحة التي ارتكبها الخلفاء الذين تعاقبوا على الخلافة بعد العامريين هو عدم اعتمادهم على وزراء ثقات من أبناء تلك البيوتات المعروفة، ولعل ابن حيان الذي ينتمي إلى إحدى تلك البيوتات في قرطبة انتقد الخليفة هشام (المعتد بالله) على اعتماده على وزير حائك، ونقل ما قيل فيه من الشعر:

هبك كما تدعي وزيراً   وزير من أنت يا وزير[٤]

كذلك استنكر الفقيه ابن حزم تلقب وزير- ينتمي إلى العامة - في حكومة المستكفي بلقب أمل الدولة، ويراها نتيجة لسوء الحالة التي باتت عليها حال البلاد والعباد «ليري الله عباده هَوان ما تناحروا عليه وباعوا دينهم وأخلاقهم وما غالوا به..»[٥].

---

(١) أبو سهل؛ يونس بن أحمد بن يونس الجذامي، المعروف بالحرَّاني، قال عنه ابن بشكوال: «كان بصيراً بلسان العرب، حافظاً للغة، قيماً بالأشعار الجاهلية، عارفاً بالعروض، وأوزان الشعر وعلله..». ابن بشكوال، **الصلة**، ص٥٢٧-٥٢٨.

(٢) المرواني، **عيون**، ص٢٨.

(٣) ابن بسام، **الذخيرة** ق١، ج٢، ص٤٥٦-٤٥٧.

(٤) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص١٤٧.

(٥) ابن حزم، **نقط، رسائل**، م١، ص١٠٢.

(جـ) استمرار مظاهر الترف في المجتمع الأندلسي:

رغم الحالة السياسية السيئة التي باتت عليها الأندلس عقب سقوط العامريين وما تبعه من أحداث أدت إلى سقوط الخلافة الأموية عام ٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م بشكل رسمي؛ إلا أنه كانت هناك عدة مظاهر اجتماعية ظلت مستمرة دون أن تتأثر بتلك التحولات السياسية التي تمر بها الأندلس، كمظاهر الترف، والتي كانت موجودة منذ حقبة الخلافة والوحدة الأندلسية لا سيما في قرطبة، ويبدو أن لقرطبة تحديداً أثرها في انتقال مثل تلك الظواهر إلى الأقاليم الأخرى، فمثلاً ظاهرة الترف؛ والتي كانت متفشية بشكل واضح في مجتمع قرطبة إبان حقبة الخلافة وازدهارها الاقتصادي، فيبدو أنه بعد سقوط قرطبة السياسي وفقدان الأمن، والحروب الطاحنة التي حدثت فيها، انتقلت جماعات من أهلها إلى الأقاليم الأندلسية المختلفة، ويظهر أن هؤلاء أثروا على الحياة الاجتماعية في تلك المناطق، فمثلاً تذكر بعض المصادر أن منطقة بلنسية Valencia[(١)]، وشاطبة Jativa[(٢)] زمن سيطرة الصقالبة عليها، قصدها قرطبيون بسبب حصانتها وهدوئها النسبي وبعدها عن مواطن الفتن: «ورحل الناس من كل قطر بالأموال إليها وطمعت بسكانها الآمال، واستوطنها طائفة من جالية قرطبة القَلِقَة الاستقرار، فألقوا فيها عصا التَّسيار، وأجمل عشرتهم فتبوّءوا بها المنازل والقصور، واتخذوا البساتين الزاهرة والرياضات الناضرة وأجروا بها المياه المتدفقة»[(٣)].

إن مظاهر البذخ والترف استمرت في عصر ملوك الطوائف كحالة لوجودها في حقبة أندلسية مميزة ومترفة سابقة، وربما حاول بعض هؤلاء الملوك مجاراة تلك الثقافة الأندلسية

---

(١) بلنسية Valencia: تقع شرق الأندلس، مدينة سهلية وقاعدة من قواعد الأندلس في مستو من الأرض قال عنها الحميري: «عامرة القطر كثيرة التجارات وبها أسواق وقلاع». الحميري، **الروض**، ص٩٧.

(٢) شاطبة Jativa: تقع شرق الأندلس، وهي مدينة حصينة لها قصبتان ممتنعتان، قال عنها الحميري:"وهي حاضرة آهلة بها جامع ومساجد وفنادق وأسواق". الحميري، **الروض**، ص٣٣٧.

(٣) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص١٦٠.

والتي أخذت منها ثقافة الترف حيز غير قليل، وكذلك لإعطاء حكمهم شيئاً من الهيبة والوقار. فمثلاً لو أخذنا إشبيلية، والتي سيطرت عليها أسرة أندلسية هم بنو عبّاد، والذي يبدو أنهم تأثروا بشكل واضح بالحالة التي كانت عليها الأندلس إبان حقبة الأمويين، وحاولوا مجاراتها، لذا اشتهروا بتشييد القصور والعمارات الفخمة[1]، فذكر ابن حيان أن الأمير المعتضد (٤٣٣-٤٦١هـ/ ١٠٤١-١٠٦٩م)[2]: «أكثر شغله فيها شبَّ الحروب وكياد الملوك... من توفُّر حظه الأوفى من الأمور الملوكية، والعدد السلطانية، والآلات الرياسية، فابتنى القصور السامية، واعتمر العمارات المُغلّة، واكتسب الملابس الفاخرة..»[3].

وكذلك الحال في طليطلة؛ إذ ظهرت فيها مظاهر البذخ والترف، وفي ذلك قال المقري: «وبلغوا في البذخ والترف إلى الغاية، ولهم الإعذار المشهور الذي يقال الإعذار الذُّنُّوني وبه يضرب المثل عند أهل المغرب»[4].

أيضا في أقاليم الأندلس الشرقية والتي يُسيطر عليها الصقالبة ظهر اهتمامهم الزائد بعملية البناء والتوسع فيه: «وسلك مبارك ومظفر سبيل الملوك الجبارين في إشادة البناء والقصور

---

(١) مثل المبارك والثريا والزاهي والمكرم والزاهر وسعد السعود، وقيل في القصر الزاهي هذه الأبيات:

للزاهي الكمال سناً وحسناً كما وسع الجلالة الكمالا
يحاط بشكله عرضا وطولا ولكن لا يحاط به جمالا

ابن بسام، **الذخيرة**، ق٢، ج٣، ص٣٨٢؛ عمر إبراهيم، **صورة المجتمع**، ص١٣٤.

(٢) عباد بن محمد بن عباد، تسمى بفخر الدولة، ثم بالمعتضد، قال عنه ابن حيان: «أسد الملوك وشهاب الفتنة...»، كان طاغية فتاكاً، قيل إنه وضع حديقة جمع فيها جماجم خصومه. ابن بسام، **الذخيرة**، ق٢، ج٣، ص٢٢-٢٤.

(٣) ابن بسام، **الذخيرة**، ق٢، ج١، ص٢٣-٢٤.

(٤) المقري، **نفح**، ج١، ص٤٤٠.

والتباهي في عليات الأمور إلى أبعد الغايات...»[١]. ووصل الإنفاق على المنازل مبالغ ضخمة إذ وصل إلى مائة ألف دينار[٢].

وفي المرية ابتنى صاحبها المعتصم أبو يحيى محمد بن معن التجيبي[٣] قصوراً عرفت بالقصور الصمادحية[٤]، وقد عاش فيها حياة مترفة لمدة طويلة، إذ حكم تلك البقاع لمدة واحدٍ وأربعين عاماً، والتي يبدو أنها كانت كافية «حتى ملَّ العافية، وبطر الدّعة»[٥]، ولعل ذلك ما يؤكده المعتصم نفسه بأبيات تنسب له قبيل وفاته قال فيها:

تمتعت بالنعماء حتى مللتُها ... وقد أضجرت عيني مما سئِمتُها

فيا عجباً لما قضيتُ قضاءها ... ومُلِّيتُها عُمري تَصَرَّم وقتها[٦]

ثالثاً: النتائج الثقافية:

إذا أخذنا الجانب الفكري الثقافي، فيمكن ملاحظة مدى الاهتمام الواضح بالكتب وجمعها، والذي يظهر أنه لم يكن لأهداف علمية بالدرجة الأولى، بدليل عدة شواهد منها، أن

---

(١) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص١٦١.

(٢) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص١٦١.

(٣) أبو يحيى؛ محمد بن معن التجيبي، لقبه المعتصم، قال ابن بسام عنه: «لم يكن من فحول ملوك الفتنة، أخلد إلى الدعة، واكتفى بالضيق من السعة». قال الحجاري: «ملك المعتصم إحدى وأربعين سنة وهو ابن أربع عشرة سنة»، بينما قال ابن خاقان عنه: «لم تخل أيامه من مناظرة، ولا عمرت إلا بمذاكرة أو محاضرة إلا ساعات أوقفها على المُدام، وعطلها من ذلك النظام، وكانت دولته مشرعاً للكرم، ومطلعاً للهمم..». انظر: الفتح بن خاقان، **قلائد العقيان ومحاسن الأعيان**، حققه حسين يوسف خريوش، (الأردن: مكتبة المنار، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م)، ج١، ص١٤٦؛ ابن بسام، **الذخيرة**، ق١، ج٢، ص٥٥٨؛ ابن سعيد، **المغرب**، ج٢، ص١٦٣.

(٤) المقري، **نفح**، ص٣٦٦.

(٥) ابن بسام، **الذخيرة**، ق١، ج٢، ص٥٥٨.

(٦) ابن سعيد، **المغرب**، ج٢، ص١٦٣؛ عمر إبراهيم، **صورة المجتمع**، ص١٩٣.

مجاهد العامري (٤٠٠-٤٣٦هـ/ ١٠١٠-١٠٤٤م)[(١)] صاحب دانية Denia[(٢)] والجزائر الشرقية عرض على أبي غالب اللغوي[(٣)]، ألف دينار ذهب وبعض الأشياء العينية مقابل أن يضع اسمه على كتاب قام بتأليفه، فلم يقبل ذلك أبو غالب[(٤)] وقال: «كتاب ألفته لينتفع به الناس، وأخلد فيه همتي، أجعل في صدره اسم غيري وأصرف الفخر له، لا أفعل ذلك»[(٥)]، فلما بلغ مجاهد ذلك استحسنه وأضعف له العطاء[(٦)]. ولعل الفقيه ابن عبدالبر القرطبي يؤكد هذه الظاهرة حينما وصف الذين يجمعون الكتب للزينة بقوله:

العلم ويحك، ما في الصدر تجمعه   حفظاً وفهماً وإتقاناً فداك أبي[(٧)]

---

(١) كان مجاهد من فحول فتيان بني عامر، قدمه المنصور بن أبي عامر على دانية، وحينما سقط النظام العامري، تمكن مجاهد من السيطرة على دانية والجزائر الشرقية، قال عنه ابن حيان:"كان مجاهد فتى أمراء دهره، وأديب ملوك عصره. ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص١٥٥-١٥٦.

(٢) دانية Denia: تقع شرق الأندلس على البحر، قال الحميري عنها: «لها قصبة منيعة جداً، وهي على عمارة متصلة وشجر تين كثيرة وكروم.. ومنها كان يخرج الأسطول إلى الغزو...»، الحميري، **الروض**، ص٢٣١-٢٣٢.

(٣) أبوغالب؛ تمام بن غالب المرسي المعروف بابن التياني، قال عنه الحميدي: «كان إماماً في اللغة، ثقة في إيرادها، مذكوراً بالديانة والعفة والورع». الحميدي، **جذوة**، ص١٨١. ابن الأثير؛ أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني الجزري، **اللباب في تهذيب الأنساب**، (بيروت: دار صادر، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م)، ج٣، ص١٣٨.

(٤) ابن حزم، **رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها، رسائل ابن حزم**، م١، ص١٨١-١٨٢.

(٥) المقري، **النفح**، ج٣، ص١٩٠.

(٦) المقري، **النفح**، ج٣، ص١٩٠ عمر إبراهيم، **صورة المجتمع**، ص٢١٤.

(٧) ابن عبدالبر القرطبي، **جامع بيان العلم وفضله**، تحقيق عبدالرحمن عثمان، (المدينة المنورة: المكتبة السلفية، د.ت)، ج١، ص١١٠. عمر إبراهيم، **صورة المجتمع**، ص٢١٥.

ويبدو أن حكام تلك الحقبة حرصوا على حضورهم في المجال الثقافي؛ لما للكتب والثقافة بشكل عام من مكانة في نفوس الأندلسيين ولتعزيز مكانتهم السياسية، لذا دعموا هذا الجانب بشكل مميز، فمثلاً اشتهر محمد المظفر بن الأفطس صاحب بطليوس[(١)] بجمع الكتب وكان ذا خزانة عظيمة، قال عنه ابن بسام: «كان المظفر أديب ملوك عصره غير مدافع ولا منازع..»[(٢)]، كذلك اشتهر من بعض الأمراء في مشاركته في تأليف الكتب كيوسف بن المقتدر بن هود؛ إذ برع في تأليف العلوم الرياضية، كتأليفه كتاب الاستكمال والمناظر[(٣)].

كذلك من الشواهد على شغفهم بجمع الكتب أن الكاتب أحمد بن عباس (ت٤٢٧هـ/ ١٠٣٦م)[(٤)]، كان جامعاً للكتب حتى ذكر وراقه أنها بلغت أربع مائة ألف مجلد، وأما الدفاتر المحزومة فلم يقف على عددها لكثرتها[(٥)].

---

(١) أبوبكر؛ محمد بن عبدالله بن محمد بن مسلمة التجيبي، كان ذا اطلاع واسع بالأدب والمعرفة، محباً للعلم جامعاً للكتب، حكمت أسرته منطقة بطليوس وهي شمال إشبيلية؛ أكثر من سبعين عاماً، وانتهى حكمهم على يد المرابطين. ابن الأبار، محمد بن عبدالله القضاعي، **التكملة لكتاب الصلة**، تحقيق عبدالسلام الهراش، (بيروت، دار الفكر، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م)، ج١، ص٣١٧-٣١٨، المقري، **نفح**، ج١، ص٤٤٢؛ ناطق مطلوب وآخرون، **تاريخ العرب**، ص٢٣١-٢٣٢.

(٢) ابن بسام، **الذخيرة**، ق٢، ج٤، ص٤٧٨؛ ابن الأبار، **التكملة**، ج١، ص٣١٨.

(٣) المقري، **نفح**، ج١، ص٤٤١.

(٤) أبو جعفر؛ أحمد بن عباس بن أبي زكريا، قيل عنه أنه كان كاتباً حسن الكتابة، بارع الخط فصيحاً، غزير الأدب، قوي المعرفة. وزر لزهير العامري صاحب المرية. وبعد توتر العلاقات بين زهير و صاحب غرناطة باديس انتهى الأمر بينهما إلى معركة طاحنة قبض خلالها على أحمد بن عباس أسيراً لدى باديس ثم انتهى به المطاف إلى القتل. ابن بسام، **الذخيرة**، ق١، ج٢، ص٤٩٢ وما بعدها، ابن الخطيب، **الإحاطة**، ج١، ص١٢٥.

(٥) ابن بسام، **الذخيرة**، ق١، ج١، ص٥٠٨.

والحق أن الأندلس شهدت نشاطاً ثقافياً كبيراً في الحقبة التي أعقبت سقوط الخلافة الأموية، وهو انعكاس للنشاط الثقافي المميز الذي شهدته الأندلس خلال حقبة الخلافة.

رابعاً: النتائج الاقتصادية:

(أ) تمكن الأسر الغنية من السيطرة بعض الأقاليم:

ذكرنا أن قرطبة مرت بعدة تحولات اجتماعية، إذ كانت القبلية هي الغالبة على المشهد السياسي والاجتماعي فيها وفي الأندلس بشكل عام، ثم برزت طبقة اجتماعية عرفت بالبيوتات الأندلسية تدور في فلك السلطة بشكل عام، واستحوذت على العديد من المناصب الهامة في الدولة، ثم برزت روح إقليمية أندلسية كان لها تأثير كبير على المشهد الأندلسي.

ولعل خلال ذلك استفادت من تلك الأجواء عائلات أندلسية ذات عمق اجتماعي في توطيد سلطانها سواء في قرطبة أو في بعض الأقاليم مستفيداً من الأوضاع الاقتصادية المميزة التي عاشتها الأندلس -خلال حقبة الخلافة- وذلك بتكوين ثروات خاصة بها، ساعدتها -بعد ذلك- على أداء أدوار هامة خلال تزعزع الأوضاع في قرطبة، وشواهد ذلك عديدة، فمثلاً في العاصمة قرطبة، اختار الناس الوزير أبا الحزم بن جهور وهو من كبار الموالي من الفرس ليتولى شؤون إدارة المدينة، وكان من أغنى أهل قرطبة[1]. بينما تمكن من السيطرة على مدينة إشبيلية القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد وكان من أغنياء إشبيلية، بل قيل إنه يملك ثلث إشبيلية ضيعة وغلة[2]، وهما عائلتان لم تكن لهما رئاسة قبل ذلك، ويبدو أن المعيار المالي كان من أهم عوامل الاختيار والرضا بتلك العائلتين للسيطرة على مناطقهم، بعدما كانت هناك معايير أخرى تتطلب وجودها في شخصية الحاكم أو الثائر في الأقاليم الأندلسية مثل النسب والقبيلة أو حتى العرق في مراحل سابقة.

---

(١) ابن الأبار، **الحلة**، ص١٩٠؛ أحمد بدر، **تاريخ الأندلس**، ج٢، ص٢٣٢.

(٢) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص١٩٥.

وهذا نتاج لمرحلة سابقة تحولت فيها بعض تلك الأسر إلى مكانة مميزة فيبلدها، وذلك لثرائها ومساهمة البعض منها في دعم أنشطة الدولة، ولعل خير دليل على ذلك ما أشار إليه ابن حيان من استضافة أحمد بن الخطاب[١]-أحد أعيان أسرة بني خطاب المعروفة بثرائها- للمنصور بن أبي عامر وجيشه لمدة ثلاثة عشر يوماً في مرسية، وكان الجيش في طريقه لغزو برشلونة عام ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م[٢]، ويؤكد ابن حيان على ثراء ذلك الرجل أيضاً بقوله: «وكان في نهاية الثراء..» [٣]، وكذلك كان ابنه موسى من الثراء، إذ استضاف جيش عبدالملك (المظفر) بن أبي عامر حينما اجتاز مرسية غازياً. وفي ذلك علق ابن حيان بالقول: «أعانهم على الحسب الثراء»[٤]. لذا كان لهذه الأسرة نفوذ ومكانة في مرسية، ولها تقدير خاص من الدولة[٥].

(ب) الحركة الاقتصادية في الأقاليم الأخرى زمن الفتنة:

إذا كانت قرطبة خسرت في الفتنة التي عصفت بها وأدت إلى اندثار مجدها؛ فإن هناك أقاليم أندلسية أخرى استفادت من تلك الأوضاع السيئة التي تمر بها العاصمة الأندلسية، لا

---

(١) أحمد بن دحيم بن خطاب، يعرف بالخازن، من أسرة من الموالي، ينتسبون إلى جدهم الأول عبدالجبار بن خطاب، لأسرته مكانة ونفوذ في مرسية. انظر: ابن الأبار، **الحلة**، ص٣٢٩.

(٢) ابن الأبار، **الحلة**، ص٣٢٩، بينما ينقل ابن الأبار في موضع آخر رواية لابن أبي الفياض تختلف في بعض التفاصيل حيث تذكر أن السنة ٣٧٤هـ/ ٩٨٤م ومدة الضيافة ثلاثة وعشرين يوما. ابن الأبار، **الحلة**، ص٣٣٠.

(٣) ابن الأبار، **الحلة**، ص٣٢٩.

(٤) ابن الأبار، **الحلة**، ص٣٢٩.

(٥) مثلاً كان يتولى أحد أبناءها مرسية وبلنسية وأنداره وطرطوشة وجيزة يابسة وجزيرة ميورقة وجزيرة منورقة. وقد أوصى المنصور بن أبي عامر عماله على تدمير بحفظ ابن الخطاب وتحري موافقته في كل ما يرغبه. انظر: العذري، **ترصيع**، ص١٥-١٦؛ ابن الأبار، **الحلة**، ص٣٣٠.

سيما في الجانب الاقتصادي؛ إذ أحدثت تلك الفتنة في قرطبة هجرة معاكسة لأهل قرطبة للأقاليم الأندلسية المختلفة، وابن حزم المعاصر لتلك الأحداث يؤكد على حدوث عمليات تهجير واسعة حصلت في قرطبة والزهراء والقرى القريبة منها، وفي ذلك ذكر أن البربر «أخلوا مدينة الزهراء وجمهور قرطبة حاشا المدينة، وطرفاً من الجانب الشرقي، وأخلوا ما حوالي قرطبة من القرى والمنازل والمدن»[١].

على أية حال إن عمليات التهجير هذه وانتقال بعض أهالي قرطبة للأقاليم الأندلسية الأخرى نتج عنها حركة اقتصادية واضحة في تلك الأقاليم، خصوصاً أن قرطبة كانت تنعم بوضع اقتصادي مميز، إضافة إلى أن الثائر هشام (المهدي) حاول كسب رضا العامة فترك لهم حرية أخذ أموال ومواد عينية ثمينة خلفها النظام العامري، وبذلك توفرت الأموال عند بعضهم، خاصة أن تلك الأموال تقدر بملايين الدنانير[٢].

وربما انعكست هذه الحالة حينما انتقل بعض القرطبيين إلى مدن أندلسية، فمثلاً في بلنسية وشاطبة انتقال جماعة من أهل قرطبة إلى تلك المناطق؛ فازدهرت الحركة الاقتصادية ونشطت عملية البناء والعمارة فيها[٣]. ولعل ثقافة الترف التي ساهم القرطبيون في نقلها إلى تلك المناطق زادت من الحركة الاقتصادية للتجار فقصدوا شرق الأندلس، لذا: «ضرب تجّارها وجوه الركاب نحوهم حتى بلغوا من ذلك البغية فما شئت من طرف رائق وملبس رفيع جليل وخادم عجيب...»[٤].

---

(١) ابن حزم، **جمهرة**، ص١٠٢.

(٢) قدر ابن عذاري الأموال التي وجدت بعد نهب الزاهرة بثلاثة أيام بخمسة ملايين من الدنانير، وبذهب تقدر قيمته بمليون وخمسمائة ألف دينار، إضافة إلى خوابي أخرى تقدر بمائتين ألف دينار. ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٦١.

(٣) انظر: ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص١٦٠.

(٤) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص١٦١.

ويبدو أن مظاهر البذخ والترف وصلت إلى مراحل متقدمة فارتفعت معه الأسعار لا سيما في قيمة الجواري والقيان، فمثلا اشترى ابن رزين[١] صاحب ثغر المسيلة جارية بثلاثة آلاف دينار، وفي ذلك قال ابن حيان: «هو أول من بالغ الثمن في شراء القينات»[٢]. وهذا يرجع ربما إلى توفر الأموال التي كانت في الأندلس لا سيما في بعض المناطق، والدليل على ذلك ما قاله ملك جليقية لأهل طليطلة: «أما قولكم لا تقدرون مع هذه الأموال فذلك محال فلو كسف سقوف بيوتكم لبرق ذهباً لكثرته»[٣]. كذلك كانت إشبيلية مدينة عامرة، وبها أسواق قائمة وتجارات رابحة، وأهلها ذوو أموال عظيمة[٤].

كذلك كانت المرية وأهلها من أكثر بلاد الأندلس مالاً وتجارة وفي ذلك ذكرت بعض المصادر عن المرية أنها: «لم يكن في بلاد الأندلس أكثر مالاً من أهل المرية، ولا أعظم متاجر ولا ذخائر...»[٥].

ويبدو أن سيطرة ثقافة البذخ والترف في الجو العام الأندلسي، جعل الكثير من حكام الأقاليم يطلب المزيد من الثراء والأموال، حتى لو أوصله ذلك إلى الاعتداء على ممتلكات غيره لتوسيع ممتلكاته دون وجه حق، مستغلين انفراط الوحدة المركزية وسوء الأحوال السياسية التي تمر بها الأندلس، وفي ذلك ذكر ابن حيان أن الكثير من الناس فر عن قراهم

---

(١) أبو محمد؛ هذيل بن خلف بن لب بن رزين المعروف بابن الأصلع صاحب السهلة، وهي متوسطة مابين الثغر الأعلى والأدنى بقرطبة، وكان من أكابر بربر الثغر، استغل نشوب الفتنة البربرية وسقوط النظام العامري، فاقتطع تلك المنطقة وسيطر عليها. ابن بسام، **الذخيرة**، ق٣، ج٥، ص٨٤.

(٢) ابن بسام، **الذخيرة**، ق٣، ج٥، ص٨٦.

(٣) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص٢٨٢.

(٤) المقري، **نفح**، ج١، ص١٥٨.

(٥) المقري، **نفح**، ج١، ص١٦٣.

وضياعهم فاستغل مبارك ومظفر ذلك بالاستيلاء عليها، وعلى نفس سبيلهما سار أكثر الثوار[1]. وهذا بدوره ساهم في جعل الأموال تتركز بكثرة في طبقات معينة.

كذلك يلاحظ أنه في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، والذي شهد اضطرابات سياسية كبيرة؛ شهد أيضاً حركة تجارية نشطة في بعض مدن الأندلس يؤكد ذلك توافد علماء مشارقة من أقطار إسلامية مختلفة شدوا رحالهم إلى الأندلس لقصد التجارة فيما يبدو في المقام الأول[2]، بل هناك من انتقل مع أبنائه إلى الأندلس بغرض التجارة مثل قدوم سالم بن علي اليماني وابنه عام ٤١٦هـ/ ١٠٢٥م[3]، وتمام بن الحارث البصري وابنه[4] الذين قدما إلى إشبيلية لغرض التجارة عام٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م. وكذلك كان قدوم عيسى بن محمد النسفي[5] مع أبيه إلى إشبيلية لنفس الغرض عام ٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م[6].

---

(١) ابن عذاري، **البيان**، ج٣، ص١٦٢.

(٢) انظر: أمثلة لذلك عند ابن بشكوال تراجم رقم؛ ٩٦١، ١٣١٤، ١٣١٥، ١٣١٦، ١٣١٧، ١٤٠٥، ١٤٠٩. ابن بشكوال، **الصلة**.

(٣) أبو يزيد، سالم بن علي بن ثابت الغساني اليماني، قال عنه ابن بشكوال: «قدم الأندلس مع ابنه تاجراً سنة ست عشرة وأربعمائة، وكان من خيار المسلمين، على طريقة قويمة من المتسننين، حنبلي المذهب». ابن بشكوال، **الصلة**، ص١٩٧.

(٤) أبوسهل، تمام بن الحارث بن أسد بن عفير البصري، قال عنه ابن بشكوال: «قدم الأندلس مع ابنه سهل تاجرين سنة عشرين وأربعمائة، كان ثقة فاضلاً على مذهب أبي حنيفة». ابن بشكوال، **الصلة**، ص١١٣.

(٥) أبوموسى، عيسى بن محمد بن هارون بن عتاب النسفي، قدم إشبيلية تاجراً مع أبيه سنة اثنين وعشرين وأربعمائة، قال عنه ابن بشكوال: «كان من أحفظ الناس لأخبار العلماء وأميزهم بالتعديل والجرح وكان حنفي المذهب ثقة فيما رواه». ابن بشكوال، **الصلة**، ص٣٥١.

(٦) ابن بشكوال، **الصلة**، ٣٥١.

ويمكن ملاحظة أن إشبيلية القريبة من قرطبة شهدت النصيب الأكبر من التجار الوافدين لها من خارج الأندلس وربما لوقعها القريب من قرطبة وسهولة انتقال أهلها إليها عكس المناطق الأخرى، مما ساعد على الحركة الاقتصادية فيها.

ويظهر أن بعض المدن الأندلسية شهدت نشاطاً اقتصادياً فيها رغم الأحوال السياسية الصعبة التي تمر بها البلاد بيد أنها استمرت في نشاطها،وتؤكدأوليفيا كونستبلبأن بعض المدن الأندلسية كانت مراكز اقتصادية مهمة للتجار والبضائع من جميع مناطق عالم البحر الأبيض المتوسط، فقد كانت تلك المدن أسواقاً للتجار الأندلسيين والأجانب، يقومون فيها بأعمال التجارة "البعيدة" أو "الدولية"، وقد بقيت التجارة الأندلسية شديدة الارتباط بمناطق أخرى من عالم المتوسط الإسلامي طوال غالبية العهد الإسلامي من أواسط الفترة الأموية في القرن الرابع الهجري / العشر الميلادي حتى القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي(١).

* * * * *

---

(١) أوليفيا ريمي كونستبل، **التجار المسلمون في تجارة الأندلس الدولية**، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٨م)، ص١٠٦٣.

الخاتمة

إن للتحولات الاجتماعية أثراً عميقاً في أي نظام سياسي، وقد يظل هذا الأثر عميقاً كامناً يستشري في عروق الدولة ببطء، ثم يبرز للسطح بشكل فجائي؛ وقد يكون ظهوره مدمراً، إذ لم تتعاطَ الدولة مع ذلك المجتمع وفق متغيراته وتحولاته بشكل مناسب، وهذا ما حصل في الأندلس لاسيما مع نهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي.

فالأندلس -خلال حقبة الدراسة- مرت بعدة تحولات اجتماعية ساهم البعض منها في الاستقرار التي نعمت به الأندلس معظم مراحل تلك الحقبة، وهذا وفق تعامل السلطات الجيد مع تلك المتغيرات خاصة زمن الخليفة الناصر والخليفة المستنصر والحاجب المنصور- وإن كان بعضهم مساهماً في بعض تلك التحولات - في المقابل كانت لبعض تلك التحولات الاجتماعية نتائج عكسية، لاسيما في أواخر هذه الحقبة، والتي كانت من أعمقها أثراً مساهمتها في سقوط الخلافة الأموية في الأندلس.

لقد بينت الدراسة أن الثورات التي عصفت بالأندلس في أواخر القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي كان لها عميق الأثر في الشأنين الاجتماعي والسياسي على حد سواء في القرن التالي؛ إذ أثرت تلك الثورات في التركيبة السكانية لبعض المدن والمناطق الأندلسية،خاصة إضعافها لشريحة اجتماعية مهمة كالمولدين والتي كانت رأس الحربة في تلك الثورات، وفي ضعف تلك الشريحة وركونها إلى الدعة أثر واضح في ركون المجتمع الأندلسي إلى الهدوء النسبي خلال معظم مراحل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، في المقابل خرجت قرطبة من تلك الأحداث كأقل المتضررين، بل خرجت منها أكثر ترابطاً من الناحية الاجتماعية على الأقل. وعليه فقد رأينا أن مثل تلك الظروف ساعدت حاكم قرطبة الجديد عبدالرحمن الثالث في تمكينه من إحكام قبضته على الأندلس، وذلك بتوفير أرض خصبة

سياسياً واجتماعياً وحتى اقتصادياً مهدت له الطريق في وضع اللبنات المناسبة للنهوض بالأندلس لتعيش أزهى فترات حكمها الإسلامي.

لقد وضحت الدراسة أن المجتمع الأندلسي خلال تلك الحقبة تحول من كونه مجتمعاً يغلب عليه الطابع القبلي والعرقي والعسكري إلى مجتمع متماسك يميل إلى المدنية وشيء من الطبقية، وقد حاولت الدراسة تتبع مسببات تلك التحولات، فوجدت أن هناك عدة مسببات مختلفة؛ دينية وسياسية واجتماعية وعسكرية واقتصادية وثقافية أدت إلى التحولات الاجتماعية التي مرت بها قرطبة تحديداً خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، مما كان له عميق الأثر في بدايات القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي على الأوضاع العامة في قرطبة بشكل خاص والأندلس بشكل عام.

ثم حاولت الدراسة تتبع -بعد ذلك- مظاهر تلك التحولات، ووجدت أنها تتمحور في مظاهر عدة منها المظهر الاجتماعي؛ ويكمن في جانبين؛ الأول في التحولات التي حدثت في الطبقات الاجتماعية كاضمحلال العصبية القبلية، وظهور ظاهرة البيوتات الأندلسية، وبروز النزعة الإقليمية الأندلسية، واضمحلال بيوتات الموالي، وبروز بيوتات جديدة، كذلك الزيادة المُطّردة في الطبقة العامة في قرطبة خلال تلك الحقبة، مما أدى إلى كثافة واضحة في تلك الطبقة مع نهاية القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي. كما أن التسامح الكبير الذي أظهرته السلطات المسلمة في قرطبة مع غير المسلمين لاسيما مع اليهود والنصارى أدى إلى اندماجهم إلى حد كبير مع المسلمين الأندلسيين، وشكلوا لحمة وطنية -إن صح التعبير- في الدولة الأندلسية.

أما الجانب الآخر في المظهر الاجتماعي؛ فيكمن في التحولات التي حدثت في السلوك الاجتماعي كبروز ظاهرة الترف، وظهور انحرافات أخلاقية وسلوكية في المجتمع الأندلسي، كذلك من مظاهر تلك التحولات الاجتماعية المظهر الاقتصادي؛ فالمجتمع الأندلسي بدأ

ينحو بشكل تدريجي من الإنتاج الزراعي إلى الإنتاج الصناعي، وقد بينت الدراسة أن أسباب ذلك تعود إلى الاهتمام المجتمعي بمظاهر الترف والكماليات والمواد الاستهلاكية بشكل عام، والأهم أن النظرة الاجتماعية الدونية لأصحاب تلك الحرف قلَّت عن السابق، وقد دللت الدراسة على ذلك من خلال تراجم كثير من أعيان قرطبة الذين باتوا يلقبون بأسماء صنعتهم لا بأسماء قبائلهم وأعراقهم. كذلك من تلك المظاهر، المظهر الثقافي؛ فالترف الذي شهدته قرطبة لم يقتصر على الجوانب السلوكية والمادية فحسب-كما بينت الدراسة- بل تجاوز ذلك إلى الجوانب الثقافية؛ وهو ما يمكن أن نطلق عليه ترفاً ثقافياً استحوذ على حيز غير قليل من الحياة الأندلسية.

كذلك حاولت الدراسة تتبع انعكاس تلك التحولات الاجتماعية على الأوضاع السياسية في الأندلس، والتي تبين أنها كان لها أثر سلبي في هذا الجانب؛ فالمجتمع الأندلسي اختلف في تعاطيه مع بعض القضايا السياسية المختلفة، لاسيما قضية جوهرية كالخلافة؛ إذ بات يُنظر لهذا اللقب أنه مجرد لقب سياسي لا أكثر، ولم تعد تحيط به تلك الهالة الدينية التي ظلت تزامنه لبرهة من الزمن، بدليل اعتلاء كرسي الخلافة أشخاص غير مؤهلين سواء من البيت الأموي، أم وصول أشخاص من خارج البيت الأموي كالعلويين الحموديين، دون أن يحدث هذا الأمر أي ضجة أو غضبة اجتماعية. أيضاً من انعكاسات تلك التحولات الاجتماعية على الجوانب السياسية هوظهور طبقات سياسية جديدة، كذلك بروز نفوذ شرائح اجتماعية تنافست على أداء أدوار سياسية فعالة في قرطبة مثل؛ الفقهاء والعامة والنساء، وهذا أدى في النهاية إلى صراع اجتماعي كانت نتائجه وخيمة سياسياً واجتماعياً واقتصادياً على الأندلس، فسياسياً؛ نشأت في بعض المدن الأندلسية قوى محلية متنفذة، وبات من الصعوبة خضوع تلك المدن لقرطبة، خاصة وهي تمر بمرحلة ترهل سياسي بعد سقوط النظام العامري. بل باتت قرطبة نفسها تشكل خطورة واضحة على أي نظام سياسي يحاول أن يتربع على عرشها، وذلك

بسبب الغليان الاجتماعي العارم الذي ينبع من محيطها وأرباضها، والذي كانت نتائجه واضحة في التعاقب السريع على كرسي الحكم فيها. أما اجتماعياً فانقسمت الأندلس إلى شرائح اجتماعية متناثرة متنافرة، كذلك صعود أصحاب المكانة الاجتماعية الدُنيا إلى مراكز عُليا في الحكم والمجتمع. أما نتائجه الاقتصادية فكان لثراء بعض الأُسر عامل مهم في ارتقائها إلى كراسي الحكم في أقاليمها.

وعليه؛ من الممكن القول إن الدراسة حاولت تقديم رؤية وتفسير جديد لأسباب سقوط الخلافة الأموية من خلال زاوية مختلفة، وذلك بتتبع التحولات الاجتماعية التي مر بها المجتمع القرطبي، وما ألقته تلك التحولات من آثار لاسيما في الجوانب السياسية، وقد تبين أن لتلك التحولات أثراً عميقاً ومؤثراً في سقوط الخلافة الأموية، بل ولما تشكلت عليه خريطة الأندلس سياسياً بعد ذلك أو لما عرف تاريخياً في الأندلس بعصر ملوك الطوائف.

* * * * *

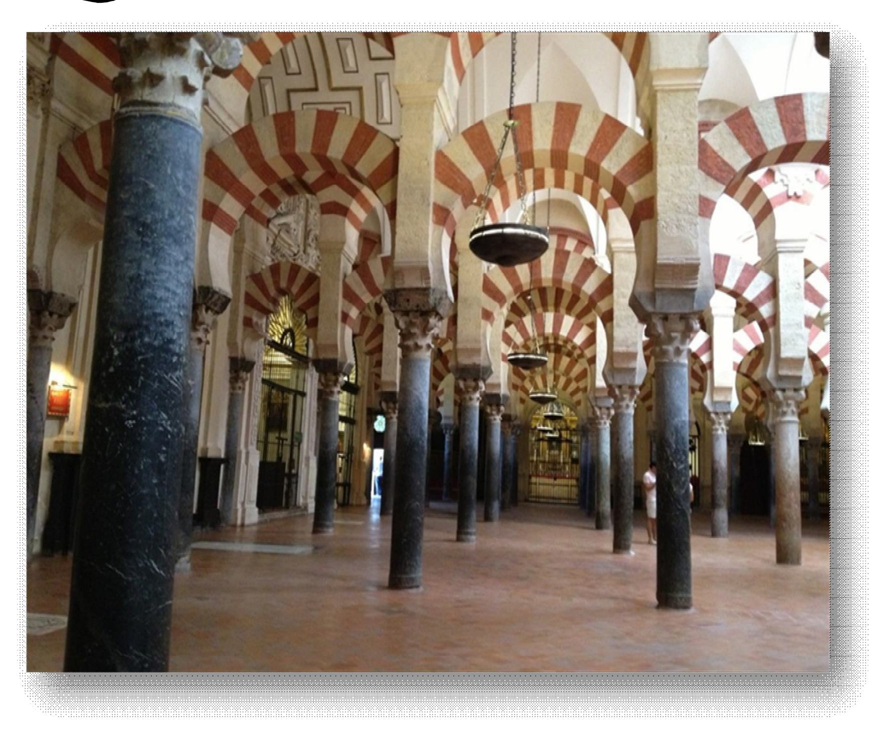
الملاحق



* صورة جوية حديثة لمدينة قرطبة ملتقطة من برنامج قوقل إيرث، حددنا عليها أماكن وأحياء قرطبة القديمة (تصميم وإعداد الباحث).



* صورة جوية لمدينة قرطبة والزهراء ملتقطة من برنامج قوقل إيرث، نبين من خلالها حجم المسافة بينهما والتي تقدر بحوالي ٦ كم (تصميم وإعداد الباحث).



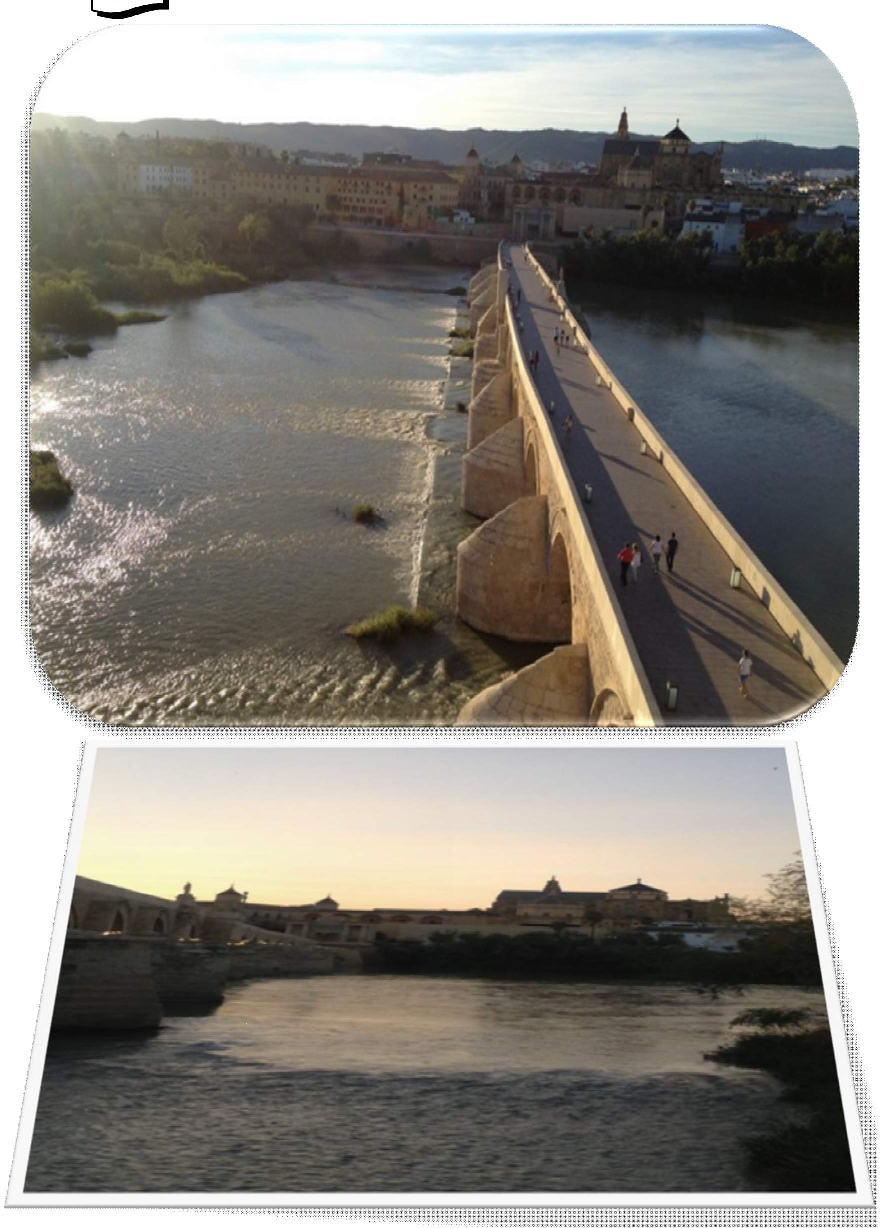


* صور حديثة للمسجد الجامع في قرطبة من الداخل ومن الخارج، من تصوير الباحث (١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م).





*صور لسوق قرطبة القديم من تصوير الباحث (١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤).



* صور لقنطرة الوادي(قرطبة) من تصوير الباحث (١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤).



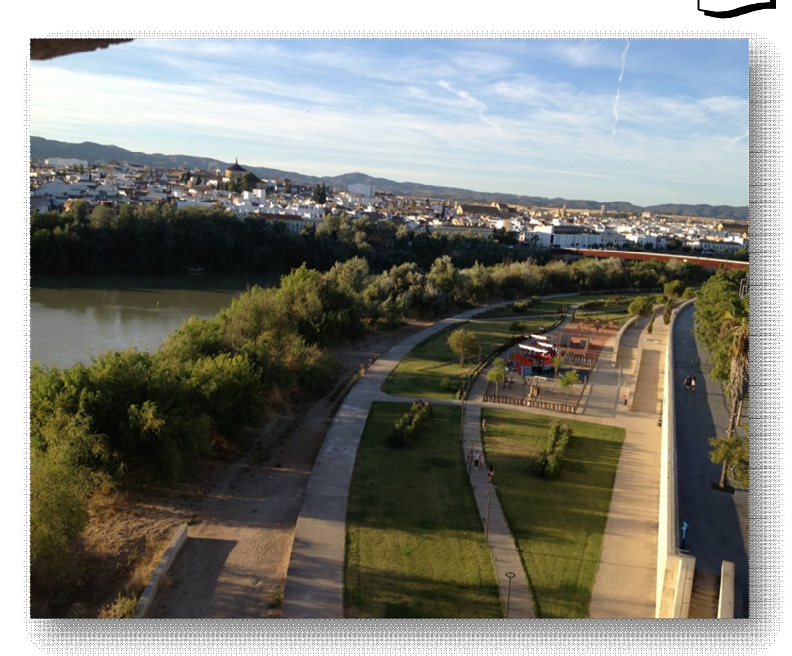


*صورة لمعبد يهودي، وللحي اليهودي في قرطبة (١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م) (تصوير الباحث).





*صور لمدينة الزهراء (١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م) (تصوير الباحث).





*حي شقندة؛ ويظهر أن هذه الحديقة هي مكان مقبرة الربض. تصوير الباحث ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.

المصادر والمراجع

أولاً: المخطوطات:

* عيسى بن أحمد الأندلسي(ت٤٢٠هـ) :

١- **عيون الأخبار**، مخطوط (ميكروفيلم) الرياض، جامعة الملك سعود، مكتبة الأمير سلمان، رقم (١١٦٢).

ثانياً: المصادر:

* ابن الأبار، محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي (ت ٦٥٨هـ) :

١-**أعتاب الكتاب**، تحقيق صالح الأشتر، (دمشق: مطبوعات مجمع اللغة العربية، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م).

٢-**التكملة لكتاب الصلة**، تحقيق عبدالسلام الهراش، (بيروت، دار الفكر، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م).

٣-**الحلة السيراء**، اعتنى به علي إبراهيم محمود، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م).

* ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي كرم الشيباني (ت٦٣٠هـ) :

٤-**الكامل في التاريخ**، تحقيق محمد بن يوسف الدقاق، ط٣، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٨/ ١٩٩٨م).

٥-**اللباب في تهذيب الأنساب**، (بيروت: دار صادر، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م).

* الإدريسي، محمد بن محمد بن عبدالله بن إدريس الحسني (ت٥٦٠ه) :

٦-**نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٩هـ)

* ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم بن خليفة (ت٦٦٨ه) :

٧-**عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، تحقيق مزار رضا، (بيروت: دار مكتبة الحياة، د. ت)

* الإيلاني، صالح بن عبدالحليم(عاش في القرن الثامن الهجري):
٨-**مفاخر البربر**، تحقيق عبدالقادر بوباية،(الرباط: دار قراقر،٢٠٠٨م).
* البخاري، محمد بن إسماعيل (ت٢٥٦هـ)
٩-**صحيح البخاري**، تحقيق وتخريج أحمد رهوة وأحمد عناية، ط١،(بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م).
* ابن بسام، علي الشنتريني (ت ٥٤٢هـ) :
١٠-**الذخيرةفي محاسن أهل الجزيرة**، تحقيق الدكتور إحسان عباس، ط١،(لبنان: دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٠م).
* ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبدالملك (ت٥٧٨هـ) :
١١-**الصلة في تاريخ علماء الأندلس**، اعتنى به صلاح الدين الهواري (لبنان: المكتبة العصرية ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م).
* البلاذري، أبي الحسن أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ) :
١٢-**فتوح البلدان**، اعتناء، عبدالقادر محمد علي، ط١، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م)
* ابن البيطار، ضياء الدين أبي محمد عبد الله (ت٦٤٦هـ).
١٣-**الجامع لمفردات الأدوية والأغذية**، (بيروت : دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م).
* ابن تغري؛ أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي(ت٨٧٤هـ):
١٤-**النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، (القاهرة : دار الكتب المصرية، ١٩٧٢م).
* ثابت بن سنان وآخرون :
١٥-**أخبار القرامطة في الأحساء والعراق والشام واليمن**، جمع وتحقيق سهيل زكار، (دمشق : دار حسان، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م).

* الثعالبي، عبدالملك بن محمد بن إسماعيل(٤٢٩هـ):

١٦-**يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، (بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م).

* حاجي خليفة، مصطفى بن عبدالله القسطنطيني(ت١٠٦٧هـ) :

١٧-كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون،(بيروت:دار إحياء التراث العربي،١٩٤١م)

ابن حبيب؛ عبدالملك بن حبيب السلمي الأندلسي(ت٢٣٨هـ) :

١٨-**كتاب التاريخ**، اعتنى به عبد الغني مستو، ط١، (لبنان : المكتبة العصرية، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٨م).

* ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني(ت٨٥٢هـ):

١٩-**تهذيب التهذيب**، اعتناء إبراهيم الزيبق،عادل مرشد (بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م).

* ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد (ت٤٥٦هـ).

٢٠-**جمهرة أنساب العرب**، ط٣،(بيروت : دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م) .

٢١-**رسالة التخليص لوجوه التخليص، رسالة منشورة ضمن كتاب، رسائل ابن حزم الأندلسي**، تحقيق إحسان عباس، ط٢ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٧م)

٢٢-**رسالة في الإمامة،رسالة منشورة ضمن كتاب، رسائل ابن حزم الأندلسي**، تحقيق إحسان عباس، ط٢ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٧م).

٢٣-**رسالة نقط العروس في تواريخ الخلفاء، رسالة منشورة ضمن كتاب، رسائل ابن حزم الأندلسي**، تحقيق إحسان عباس، ط٢ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٧م).

٢٤-**رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها، رسالة منشورة ضمن كتاب، رسائل ابن حزم الأندلسي،** تحقيق إحسان عباس، ط٢ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٧م).

٢٥-**طوق الحمامة في الألفة والألاف، ضمن كتاب، رسائل ابن حزم الأندلسي،** تحقيق إحسان عباس، ط٢ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٧م).

٢٦-**الفصل في الملل والأهواء والنحل،** اعتنى به سامي أنور جاهين، (القاهرة: دار الحديث، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م).

* الحميدي، أبو عبدالله محمد بن أبي نصر فتوح (ت ٤٨٨هـ) :

٢٧-**جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس وأسماء رواة الحديث وأهل الفقه والأدب وذوي النباهة والشعر،**صلاح الدين الهواري، ط١،(بيروت : المكتبة العصرية، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م).

* الحميري، محمد بن عبدالمنعم (ت نحو ٧٢٧هـ) :

٢٨-**الروض المعطار في خبر الأقطار،** تحقيق إحسان عباس، (لبنان : مكتبة لبنان رياض الصلح،١٩٧٥م).

ابن حوقل؛ أبو القاسم محمد بن علي (ت٣٨٠هـ) :

٢٩-**صورة الأرض،** (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٩٢م).

* ابن حيان، خلف بن حيان القرطبي (ت٤٦٩) :

٣٠-**المقتبس الجزء الخامس،** اعتنى بنشره شالميتا، (الرباط-مدريد : المعهد الإسباني العربي للثقافة،١٩٧٩م).

٣١-**السفر الثاني من كتاب المقتبس من أنباء أهل الأندلس،** تحقيق محمود علي مكي، ط١، (الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م).

٣٢-**السفر الثالث من كتاب المقتبس من أنباء أهل الأندلس**، تحقيق محمود علي مكي، ط١، (الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م)

٣٣-**المقتبس في أخبار بلد الأندلس**، شرحه واعتنى به الدكتور صلاح الدين الهواري، ط١،(بيروت، صيدا : المكتبة العصرية ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م).

* الخشني، محمد بن حارث (ت٣٦٥هـ).

٣٤-**قضاة قرطبة وعلماء أفريقية**، تحقيق السيد عزت العطار، ط٢،(القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م)

* ابن الخطيب، محمد بن عبدالله بن سعيد السلماني (ت٧٧٦هـ)

٣٥-**الإحاطة في أخبار غرناطة**، اعتنى به يوسف علي طويل،(بيروت : دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م).

٣٦-**أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**، تحقيق ليقي بروفنسال، ط١، (القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية.١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م).

* ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ) :

٣٧-**تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ط١(لبنان : دار بن حزم).

٣٨-**المقدمة**، اعتناء ودراسة أحمد الزعبي، (لبنان: دار الأرقم بن أبي الأرقم، د.ت).

* ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت ٦٨١هـ):

٣٩-**وفيات الأعيان وأنباء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، (بيروت: دار صادر ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م).

* الخوارزمي؛ محمد بن أحمد بن يوسف (توفي نحو ٣٨٧هـ) :

٤٠-**مفاتيح العلوم**، (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت)

* الدينوري؛ عبدالله بن مسلم (ت٢٧٦هـ):

٤١-**الإمامة والسياسية**، اعتنى به خيري سعد، (مصر : المكتبة التوفيقية، ٢٠٠٠م).

الذهبي؛ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ) :

٤٢-**سير أعلام النبلاء**، حسان عبد المنان، (لبنان : بيت الأفكار الدولية،٢٠٠٤م).

٤٣-**العبر في خبر من غبر**، تحقيق صلاح الدين المنجد، (الكويت: مطبعة حكومة الكويت، ١٩٨٤).

* ابن رضوان المالقي، أبو القاسم (ت٧٨٣هـ):

٤٤-**الشهب اللامعة في السياسة النافعة**، تحقيق علي بن سامي النشار، ط١،(القاهرة: دار السلام،١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م).

* الرقيق؛ أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم (ت٤١٧هـ) :

٤٥-**قطعة من تاريخ إفريقية والمغرب**، تحقيق عبدالله العلي الزيدان، عز الدين عمر موسى، ط١، (بيروت: دار الغرب الإسلامي ١٩٩٠م).

* الزبيدي؛ أبو بكر محمد بن الحسن(ت٣٧٩هـ):

٤٦-**طبقات النحويين واللغويين**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، (مصر : دار المعارف، د.ت).

* الزبيدي؛ محمد مرتضى الحسيني (ت١٢٠٥هـ):

٤٧-**تاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيق مصطفى حجازي، (الكويت : دار الهداية، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م).

* الزجالي؛ عبيدالله بن أحمد القرطبي(ت٦٩٤هـ):

٤٨-**أمثال العوام في الأندلس مستخرجة من كتابه ري الأوام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام**، تحقيق محمد بن شريفة،(فاس: منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م).

* ابن أبي زرع؛ علي الفاسي (ت٧٤١هـ):

٤٩-**الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**،(الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة، ١٩٧٢م).

* ابن زكريا؛ أحمد بن فارس (ت٣٩٠هـ)

٥٠-**معجم مقاييس اللغة،** تحقيق عبد السلام محمد هارون (بيروت: دار الجيل ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م).

* ابن زمنين؛ محمد بن عبدالله (٣٩٩هـ):

٥١-**منتخب الأحكام،** تحقيق عبدالله عطية الغامدي، (مكة، بيروت : المكتبة المكية، مؤسسة الريان، ١٤١٩ه/ ١٩٩٨م).

* ابن زيري، عبدالله بن بلقين(ت٤٨٣هـ):

٥٢-**التبيان، مذكرات الأمير عبدالله** .تحقيق ليفي بروفنسال.(مصر:دار المعارف، د.ت).

ابن سعد؛ محمد بن سعد الزهري(ت٢٣٠هـ) :

٥٣-**الطبقات الكبير**، تحقيق علي محمد عمر، (القاهرة : مكتبة الخانجي،١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م).

* ابن سعيد؛ علي بن موسى بن سعيد(٦٨٥هـ) :

٥٤-**المغربفي حلى المغرب،** اعتنى به خليل المنصور، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م).

* ابن سماك؛ محمد بن أبي العلاء محمد بن سماك العاملي(توفي في القرن الثامن).

٥٥-**الزهرات المنثورة في نكت الأخبار المأثورة** ، تحقيق محمود علي مكي، ط١، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م).

* السمعاني؛ عبدالكريم بن محمد التميمي(٥٦٢هـ) :

٥٦-**الأنساب،** تحقيق عبدالرحمن بن يحيى اليماني، ط٢، (القاهرة : مكتبة ابن تيمية، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م).

* ابن سينا، الحسين بن عبدالله (ت٤٢٧هـ)

٥٧-**القانون في الطب**، تحقيق وشرح حسان عدنان جعفر، (بيروت: دار البحار، المركز اللبناني للطب البديل، ٢٠٠٩م).

* ابن سهل، أبو الأصبغ عيسى بن سهل(ت٤٨٦هـ) :

٥٨-**الأحكام الكبرى**، تحقيق يحيى مراد، (القاهرة : دار الحديث، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م).

* السيوطي،جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر

٥٩-**بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢،(مصر: دار الفكر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)

٦٠-**تاريخ الخلفاء**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١،(لبنان: المكتبة العصرية، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م)

* ابن شهيد، أحمد بن عبدالملك بن مروان الأندلسي(ت٤٢٦هـ):

٦١-**رسالة في التوابع والزوابع**، تحقيق بطرس البتاني، (بيروت: دار صادر، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م).

* صاعد، بن أحمد بن صاعد(ت٤٦٢هـ):

٦٢-**طبقات الأمم**، نشره لويس شيخو اليسوعي، (بيروت : المطبعة الكاثوليكية، ١٩١٢م).

* الصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك (ت ٧٦٤هـ) :

٦٣-**الوافي بالوفيات**، تحقيق أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م).

* الضبي،أحمد بن يحيي بن عميرة (ت٥٩٩هـ)

٦٤-**بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس**، اعتنى به صلاح الدين الهواري (لبنان: المكتبة العصرية ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م)

* ابن طباطبا، محمد بن علي (ت ٧٠٩) :

٦٥-**الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، (بيروت: دار صادر، د.ت).

* الطبري؛ أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ) :

٦٦-**تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق أبو صهيب الكرمي، (الأردن : بيت الأفكار الدولية، د.ت).

* الطرطوشي، محمد بن الوليد بن محمد الفهري القرشي(ت٥٣٠هـ)

٦٧-**الحوادث والبدع**، اعتنى به علي بن حسن الحلبي، (السعودية: دار ابن الجوزي، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م).

٦٨-**سراج الملوك**، تحقيق نعمان صالح الصالح، ط١(الرياض: العاذرية للنشر والتوزيع ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م).

* ابن عبدالبر؛ يوسف بن عبدالله القرطبي(ت٤٦٣هـ):

٦٩-**جامع بيان العلم وفضله**، تحقيق عبدالرحمن عثمان، (المدينة المنورة : المكتبة السلفية، د.ت).

* ابن عبد ربه، أحمد بن محمد (ت٣٢٨هـ):

٧٠-**العقد الفريد**، تحقيق محمد عبدالقادر شاهين، (بيروت : المكتبة العصرية، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م).

* ابن عبدالحكم، عبدالرحمن بن عبدالله (ت٢٥٧هـ):

٧١-**فتوح مصر والمغرب**، تحقيق علي محمد عمر، (القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م).

* ابن عبدالملك، محمد بن محمد بن عبدالملك المراكشي الأنصاري(٧٠٣هـ)

٧٢-**الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، السفر الخامس، تحقيق إحسان عباس، (بيروت: دار الثقافة،١٩٦٥م).

٧٣-**الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، السفر الثامن، تحقيق محمد بن شريفة، (المغرب: مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، ١٩٨٤م).

* ابن عبدون، محمد بن أحمد التجيبي(ت٥٢٠هـ):

٧٤-**رسالة في آداب الحسبة والمحتسب**، نشره ليفي بروفنسال، (القاهرة : مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٥٥م).

* ابن العديم، كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله الحلبي(ت٦٦٠هـ).

٧٥-**زبدة الحلب من تاريخ حلب**، تحقيق خليل المنصور (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٦ م).

* ابن عذاري، أحمد بن محمد (ت بعد ٧١٢هـ) :

٧٦-**البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق ج.س. كولان، ليفي بروفنسال، ط١،(بيروت: دار الكتب العلمية،٢٠٠٩م).

* العذري؛ أحمد بن عمر(ت٤٧٨هـ) :

٧٧-**ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك**، تحقيق عبدالعزيز الأهواني،(مدريد : مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، ١٩٦٥م).

* ابن عساكر، علي بن الحسن ابن هبة الله(٥٧١هـ) :

٧٨-**تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل**، تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري (بيروت : دار الفكر، ١٩٩٥).

* العكري، عبد الحي بن أحمد بن محمد الحنبلي (ت١٠٨٩هـ) :

٧٩-**شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، تحقيق عبد القادر الأرنؤوط، محمود الأرناؤوط، (دمشق: دار بن كثير ١٤٠٦هـ).

* ابن العوام، يحيى بن محمد الإشبيلي (ت نحو ٥٨٠هـ)

٨٠-**الفلاحة**، (مدريد : د.ن، ١٨٠٢م).

* عياض، أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي(ت ٥٤٤هـ) :

٨١-**ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة مذهب الإمام مالك**، تحقيق أحمد بكير محمود (بيروت : دار مكتبة الحياة ودار مكتبة الفكر، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م).

* الغساني، محمد بن عبدالوهاب (ت١١١٩هـ)

٨٢-**رحلة الوزير في افتكاك الأسير** ، حررها وقدم لها نوري الجراح، (أبوظبي، بيروت: دار السويدي للنشر والتوزيع، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٢م).

* الفتح بن خاقان (ت٥٢٨هـ)

٨٣-**قلائد العقيان في محاسن الأعيان**، حققه حسين يوسف خريوش، (الأردن: مكتبة المنار، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م).

٨٤-**مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس**، تحقيق مديحة الشرقاوي، ط٢، (القاهرة : مكتب الثقافة الدينية، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م)

* الفراهيدي، الخليل بن أحمد (ت١٧٤هـ)

٨٥-**كتاب العين**، تحقيق مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، (بيروت : دار ومكتبة الهلال، د.ت).

* ابن فرحون، برهان الدين إبراهيم بن علي (ت٧٩٩هـ)

٨٦-**الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب**، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور (القاهرة : مكتبة دار التراث، د.ت).

* ابن الفرضي، عبدالله بن محمد الازدي (ت٤٠٣هـ)

٨٧-**تاريخ علماء الأندلس**، تحقيق صلاح الدين الهواري، (صيدا-بيروت : المكتبة العصرية، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م).

* الفيومي، أحمد محمد (ت٧٧٠هـ).

٨٨-**المصباح المنير**، (بيروت: المكتبة العلمية، د.ت) .

ابن القوطية، أبو بكر بن محمد بن عمر (ت٣٦٧هـ).

٨٩-**تاريخ افتتاح الأندلس**، ط٢، (القاهرة- بيروت : دار الكتاب المصري - دار الكتاب اللبناني، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م).

* القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ) :

٩٠-**مآثر الأناقة في معالم الخلافة**، تحقيق عبدالستار أحمد فراج، (بيروت: عالم الكتب د.ت).

٩١-**نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب**، تحقيق إبراهيم الأبياري، (بيروت : دار الكتاب اللبناني، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م).

* ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي (ت ٧٧٤) :

٩٢-**البداية والنهاية**، تحقيق أحمد أبو ملحم وعلي نجيب عطوي وفؤاد السيد ومهدي ناصر الدين، ط٣، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م).

* ابن الكردبوس، عبدالملك بن التوزري (عاش في القرن السادس الهجري).

٩٣-**الاكتفاء في أخبار الخلفاء**، تحقيق صالح عبدالله الغامدي، (المدينة: الجامعة الإسلامية، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م).

* الماوردي، أبي حسن علي بن محمد (ت٤٥٠هـ)

٩٤-**الأحكام السلطانية والولايات الدينية**، تحقيق سمير مصطفى رباب، (بيروت : المكتبة العصرية ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م).

* المراكشي، عبدالواحد بن علي(ت٦٤٧) :

٩٥-**المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين وما يتصل بتاريخ هذه الفترة من أخبار الشعراء وأعيان الكتاب**، شرحه واعتنى به صلاح الدين الهواري، (لبنان: المكتبة العصرية ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م).

* مجهول المؤلف (عاش في القرن الرابع الهجري)

٩٦-**أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بها بينهم**، تحقيق إبراهيم الأبياري، (القاهرة- بيروت: دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني،١٤٠١هـ / ١٩٨١م).

* مجهول المؤلف:

٩٧-**أخبار دول وملوك الطوائف بجزيرة الأندلس**، ملحق بكتاب، ابن عذاري، **البيان** ، الجزء الثالث.

* مجهول المؤلف:

٩٨-**ذكر بلاد الأندلس**، تحقيق لويس مولينا، (مدريد: المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، ١٩٨٣م).

* مجهول المؤلف (عاش في القرن الثامن من الهجري)

٩٩-**الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تحقيق سهيل زكار، عبدالقادر زمامة، (الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م).

* مجهول المؤلف :

١٠٠-**كتاب الأندلس وما فيها من بلاد**، تحقيق خالد حسن الجبالي، (الأردن : دار البشير، ٢٠٠٤م).

* المرواني؛ أبو طالب عبدالجبار بن عبدالله القرطبي(ت٥١٦هـ)

١٠١-**قطعة من كتاب عيون الإمامة ونواظر السياسة**، تحقيق بشار عواد معروف وصلاح محمد جرار، (تونس: دار الغرب الإسلامي، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م).

* مسلم بن حجاج بن مسلم النيسابوري (ت٢٦١هـ) :

١٠٢-**صحيح مسلم**، تحقيق وتخريج أحمد زهوة وأحمد عناية، ط ١،(بيروت: دار الكتاب العربي،١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م).

* المقدسي، أبو عبدالله محمد بن أحمد (ت نحو ٣٨٠هـ) :

١٠٣-**أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، (بيروت: عالم الكتب،١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م).

* المقري، أحمد محمد المقري التلمساني (ت ١٠٤١هـ) :

١٠٤-**أزهار الرياض في أخبار عياض**، تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الإيباري، عبدالحفيظ شلبي، (المغرب: المعهد الخليفي للأبحاث المغربية، مطبعة الفضالة، د.ت).

١٠٥-**نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب**، تحقيق إحسان عباس، (بيروت : دار صادر، ٢٠٠٤م).

* المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ):

١٠٦-**اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء**، تحقيق جمال الدين الشّيال، (القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٩٧٣م).

* ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت٧١١هـ) :

١٠٧-**لسان العرب**، ط٣، (بيروت : دار صادر، ٢٠٠٤م).

* الناصري، شهاب الدين أحمد بن خالد (ت١٢٧٩هـ).

١٠٨-**الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، اعتنى به محمد عثمان، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٨م).

* النباهي، علي بن عبدالله (توفي بعد ٧٩٣هـ)

١٠٩-**المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا أو تاريخ القضاة في الأندلس**، (بيروت : دار الآفاق الجديدة.١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م)

* النووي، يحيى بن شرف(٦٧٦هـ)

١١٠-**المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، (القاهرة: المطبعة المصرية بالأزهر، ١٣٧٤هـ/ ١٩٢٩م).

* النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب(ت٧٣٣هـ) :

١١١-**نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق أحمد كمال زكي، (مصر : الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٤م).

* ابن الوردي؛ زين الدين عمر بن مظفر (ت٧٤٩هـ)

١١٢-**تاريخ ابن الوردي**، (بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م)

الونشريسي، أحمد بن يحيى (ت٩١٤هـ)

١١٣-**المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء أفريقية والأندلس والمغرب**، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، ط١٣ (تونس : دار الغرب الإسلامي، ٢٠١٣م).

* ياقوت؛ شهاب الدينأبو عبدالله الحموي(ت٦٢٦هـ)

١١٤- **معجم الأدباء**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م)

١١٥-**معجم البلدان** ، (بيروت : دار الفكر. د.ت).

ثالثاً: الدراسات الحديثة:

* إبراهيم بيضون:

١-**الدولة العربية في إسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة ٩٢-٤٢٢هـ/ ٧١١-١٠٣١م**، (بيروت : دار النهضة العربية، ١٩٨٠م).

* إبراهيم القادري بوتشيش :

٢-**أثر الإقطاع في تاريخ الأندلس السياسي من منتصف القرن الثالث الهجري حتى ظهور الخلافة (٢٥٠-٣١٦هـ)** (الرباط: مطابع منشورات عكاظ،١٩٩٢م).

* إبراهيم مصطفى وأحمد الزيات وحامد عبدالقادر ومحمد النجار :

٣-**المعجم الوسيط**، (استانبول: دار الدعوة، ١٩٨٩م).

* إحسان عباس:

٤-**تاريخ الأدب الأندلسي عصر السيادة**، ط١، (لبنان : دار الثقافة، ١٩٦٠م)

* أحمد بن إبراهيم الشعرواي :

٥-**الأمويون أمراء الأندلس الأول**، (القاهرة : د.ن ١٩٦٩م)

٦-**هياج الربض ثورة شعبية على الحكم الأموي الأندلسي-بحوث ندوة الأندلس الدرس والتاريخ**، (الإسكندرية : جامعة الإسكندرية ورابطة الجامعات الإسلامية، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م).

* أحمد بدر :

٧-**تاريخ الأندلس وحضارتها**،(دمشق: مكتبة أطلس، ط٢، ١٩٧٢م).

* أحمد الطاهري :

٨-**عامة قرطبة في عصر الخلافة**، (الرباط: منشورات عكاظ، د.ت).

أحمد فكري :

٩-**قرطبة في العصر الإسلامي تاريخ وحضارة**، (الإسكندرية : مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٣م).

* إفريست ليفي بروفنسال:

١٠-**تاريخ إسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية ٧١١-١٠٣١م**، ط٣، (مصر : المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠م).

* أحمد هيكل:

١١-**الأدب الاندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة**، ط١٤، (القاهرة: دار المعارف د.ت).

أوليفيا ريمي كونستيل :

١٢-**التجار المسلمون في تجارة الأندلس الدولية -الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس،** ترجمة عبدالواحد لؤلؤة، (بيروت : دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٨م).
١٣-**التجارة والتجار في الأندلس،** ترجمة فيصل عبدالله، (الرياض:مكتبة العبيكان، ١٤٣٢هـ/ ٢٠٠٢م)

* أيمن فؤاد سيد :

١٤-**الدولة الفاطمية في مصر تفسير جديد،** (القاهرة : الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٠م).

* بيير غيشار:

١٥-**التاريخ الاجتماعي لإسبانيا المسلمة من الفتح إلى نهاية حكم الموحدين -من بداية القرن الثامن إلى بداية القرن الثالث عشر-الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس،** (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية،١٩٩٨م)، ج٢.

* جهاد غالب مصطفى الزغول:

١٦-**الحرف والصناعات في الأندلس منذ الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة ٩٢-٨٩٧هـ/ ٧١١-١٤٩٢م،** ط١(إربد : مركز الأفق، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م).

* حسن إبراهيم حسن :

١٧-**تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي،** ط١٤، (بيروت -القاهرة : دار الجيل، مكتبة النهضة المصرية،١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م).

* حسين مؤنس :

١٨-**فجر الأندلس،** ط١، (بيروت : العصر الحديث، دار المناهل، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م).
١٩-**معالم من تاريخ المغرب والأندلس،** ط٨، (مصر: دار الإرشاد، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م).

* حسين يوسف دويدار :

٢٠-**المجتمع الأندلسي في العصر الأموي ١٣٨ -٤٢٢هـ/ ٧٥٥-١٠٣٠م،** ط١، (مصر: مطبعة الحسين الإسلامية ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م).

* حمدي أحمد حسانين :

٢١-**مجالس المنصور بن أبي عامر الأدبية**، ط١، (مصر : مكتبة رشيد ٢٠٠٦م).

* حمدي عبدالمنعم محمد حسين :

٢٢-**دراسات في التاريخ الأندلسي "دولة بني برزال في قرمونة" ٤٠٤-٤٥٩هـ/ ١٠١٣-١٠٦٧م**)، (الإسكندرية : مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٩٠م).

* خالد بن عبدالكريم البكر :

٢٣-**الرحلة الأندلسية إلى الجزيرة العربية من القرن الثاني حتى القرن السادس الهجري**، ط١،(الرياض: مكتبة الملك فهد، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م).

* خالد يونس الخالدي:

٢٤-**اليهود تحت حكم المسلمين ٩٢-٨٩٧هـ/ ٧١١-١٤٩٢م**، ط١،(الشارقة: دائرة الثقافة والإعلام، ٢٠٠٢م).

* خليل إبراهيم الكبيسي :

٢٥-**دور الفقهاء في الحياة السياسية والاجتماعية بالأندلس في عصري الإمارة والخلافة**، (لبنان : دار البشائر الإسلامية، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م).

* رضا هادي عباس :

٢٦-**الأندلس محاضرات في التاريخ والحضارة**، (د. م : منشورات إلجا ١٩٩٨م).

* رواية عبدالحميد شافع :

٢٧-**المرأة في المجتمع الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط قرطبة**، (مصر:عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠٦م).

* رينهرت دوزي:

٢٨-**المسلمون في الأندلس**؛ ترجمة حسن حبشي، (الهئية المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م).

سالم عبدالله الخلف:

٢٩-نظم الحكم الأمويين رسومهم في الأندلس، (المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية، ١٤٢٤/ ٢٠٠٣م).

* سحر السيد عبدالعزيز سالم :

٣٠-بنو خطاب بن عبدالجبار التدميري أسرة من المولدين بمرسية في العصر الإسلامي، (مصر : مؤسسة شباب االجامعة،١٩٨٩).

* سحر عبدالمجيد مناور المجالي :

٣١-تطور الجيش العربي في الأندلس ١٣٨-٤٢٢هـ / ٧٥٦-١٠٣١م (عمان:المكتبة الوطنية، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م).

* السيد عبدالعزيز سالم :

٣٢--تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة، (لبنان : دار النهضة العربية، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).

٣٣-قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس(دراسة تاريخية،عمرانية، أثرية في العصر الإسلامي)، (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٢م)

٣٤-المساجد والقصور في الأندلس، (الإسكندرية:مؤسسة شباب الجامعة،١٩٨٦م).

* سيمون حايك :

٣٥-صبح البشكنسية أو عهد الحكم المستنصر والدولة العامرية، (د.ن ١٩٧٦م).

* صلاح خالص :

٣٦-محمد بن عمار الأندلسي، دراسة أدبية وتاريخية،(بغداد: دار الهدى،١٩٥٧م).

* عبد الرحمن علي الحجي :

٣٧-**التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة٩٢-٨٩٧هـ/ ٧١١-١٤٩٢م** (دمشق: دار القلم، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م).

٣٧-**الكتب والمكتبات في الأندلس**،(أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي،٢٠٠٧م).

* عبدالسلام الجعماطي :

٣٩-**النقل والمواصلات بالأندلس خلال عصري الخلافة والطوائف (٣١٦-٤٨٣هـ)**، (الرباط، بيروت: دار الأمان، دار ابن حزم، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م).

* عبدالمجيد نعنعي :

٤٠-**الإسلام في طليطلة**، (لبنان: دار النهضة العربية، د.ت).

* عبدالعزيز عتيق :

٤١-**الأدب العربي في الأندلس**، (بيروت : دار النهضة العربية، ١٩٧٦م).

* عبدالواحد ذنون طه وخليل السامرائي وناطق مطلوب:

٤٢-**تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس**، (بيروت: دار المدى الإسلامي،٢٠٠٤م)

* عبدالوهاب خلاف :

٤٣-**تاريخ القضاء في الأندلس من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي**، ط١،(مصر: المؤسسة العربية الحديثة،١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م).

* عبير زكريا سليمان :

٤٤-**دور الفقهاء السياسي والحضاري في الأندلس في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي**، (مصر: دار العلم والايمان، ٢٠١٠م).

* عز الدين عمر موسى :

٤٥-**النشاط الاقتصادي في المغرب في القرن السادس**، ط٢(لبنان : دار الغرب، ١٤٢٤هـ).

* عصام الدين عبدالرءوف الفقي :

٤٦-**تاريخ المغرب والأندلس**، (القاهرة : مكتبة نهضة الشرق، د.ت).

* عصمت عبداللطيف دندش :

٤٧-**الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني ٥١٠-٥٤٦هـ/ ١١١٦-١١٥١م**،(بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).

* عمر رضا كحالة:

٤٨- معجم المؤلفين، (بيروت: مكتبة المثنى-دار إحياء التراث،د.ت).

* علي جمعة محمد :

٤٩-**المكاييل والموازين الشرعية**، ط٢،(القاهرة: القدس للإعلان والنشر والتسويق، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م).

* علي أدهم :

٥٠-**المعتمد بن عباد**، (مصر: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ٢٠٠٠م).

* علي حسني الخربوطلي :

٥١-**أبوعبدالله الشيعي مؤسس الدولة الفاطمية**، (د.م : المطبعة الفنية الحديثة، ١٩٧٢م).

* عمر إبراهيم توفيق :

٥٢-**صورة المجتمع الأندلسي في القرن الخامس للهجرة، سياسياً واجتماعياً وثقافياً**، (الأردن : دار غيداء للنشر والتوزيع، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م).

* غوستاف لوبون:

٥٣-**حضارة العرب**، (القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة،٢٠١٢م).

* فاروق عمر فوزي :

٥٤-**الخلافة العباسية**،(عَمان :دار الشروق، ١٩٩٨م).

* فوزي بن عناد القبوري العتيبي:

٥٥-**فقهاء الأندلس والمشروع العامري٣٦٧-٣٩٩هـ/ ٩٧٨-١٠٠٩م**، (الرياض: دار كنوز إشبيليا، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م).

* فون شاك :

٥٦-**الفن العربي في إسبانيا وصقلية**، ترجمة الطاهر مكي، (مصر : دار المعارف، د.ت).

* كارل بروكلمان :

٥٧-**تاريخ الشعوب الإسلامية**، ترجمة نبيه أمين ومنير البعلبكي، (بيروت : دار العلم للملايين، ٢٠٠٥م)

٥٨-**الحضارة العرب في الأندلس**، ترجمة ذوقان قرقوط، (بيروت : دار مكتبة الحياة، د.ت)

* لويس سيكو دي لوثينا :

٥٩-**الحموديون سادة مالقة والجزيرة الخضراء**، ترجمة عدنان محمد آل طعمة، (دمشق : دار سعد الدين، ١٩٩٢م).

* كليليا سارنللي :

٦٠-**مجاهدالعامري قائد الأسطول العربي في غرب البحر المتوسط في القرن الخامس الهجري**، ط١،(مصر: لجنة البيان العربي، ١٩٦١م).

* محمد أحمد أبو زهرة :

٦١- **تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية**، (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٩٦م).

* محمد بشير العامري :

٦٢-**دراسات حضارية في التاريخ الأندلسي**، (الأردن: دار غيداء للنشر والتوزيع، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م).

* محمد جبرون :

٦٣-**الفكر السياسي في المغرب والأندلس في القرن الخامس الهجري في تشكل الهوية السياسية في المغرب وتكريس الفتنة في الأندلس**، (الرباط : دار راقراق،٢٠٠٨م).

* محمد عبدالحميد عيسى:

٦٤-**تاريخ التعليم في الأندلس**، (مصر : دار الفكر العربي،١٩٨٢م).

* محمد عبدالله عنان :

٦٥-**دولة الإسلام في الأندلس** ط١، (مصر: مطبعة مصر، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م).

* محمد عبدالوهاب خلاف :

٦٦-**قرطبة الإسلامية في القرن الخامس الهجري- الحادي عشر الميلادي الحياة الاقتصادية والاجتماعية**، (تونس : الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤).

* محمد عبود :

٦٧-**جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري**، (تطوان: المعهد الجامعي للبحث العلمي،١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م).

* محمود علي مكي :

٦٨-**التشيع في الأندلس منذ الفتح حتى نهاية الدولة الأموية**، ط١، (القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية،١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م).

* منيرة عبدالرحمن الشرقي :

٦٩-**علماء الأندلس في القرنين الرابع والخامس دراسة في أوضاعهم الاقتصادية وأثرها على مواقفهم السياسية**، (الرياض : مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م).

* ناصر الدين الألباني:

٧٠-**الأدب المفرد للإمام البخاري**، ط٤، (الجبيل : مكتبة الدليل،١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م)

٧١-**صحيح الجامع الصغير وزيادته للإمام السيوطي**، ط٣،(بيروت : المكتب الإسلامي ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).

* ول وايريل ديورانت :

٧٢-**قصة الحضارة**، ترجمة محمد بدران، (بيروت، تونس: دار الجيل، جامعة الدول العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم،د.ت).

* يوسف أحمد حوالة :

٧٣-**بنو عباد في إشبيلية٤١٤-٤٨٤هـ/ ١٠٢٣-١٠٩١م دراسة سياسية وحضارية، إشبيلية**، ط١،(د.م: ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م).

رابعاً: المقالات:

* أحمد مختار العبادي :

١-"الأعياد في مملكة غرناطة"،**مجلة معهد الدراسات الإسلامية**، مدريد،١٩٧٠ .

خالد عبدالكريم البكر:

٢-"الأوزاعية في الأندلس فيما بين عصر الولاة وعصر الإمارة الأموية(القرن ٢-٣هـ/ ٨-٩م) دراسة تاريخية"، **مجلة الجمعية التاريخية السعودية**، الرياض، العدد الرابع والعشرون،السنة الثانية عشرة، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

* عبدالجليل عبد الرضا الراشد :

٣-"دور البربر في سقوط الدولة الأموية في الأندلس"، **مجلة المؤرخ العربي**، بغداد، المجلد الثالث، العدد الثالث، ١٩٧٥م

* عبدالسلام بن المختار شقور :

٤- البيوتات الأندلسية : بحث في المكونات والضوابط والنتائج، **ندوة الأندلس،الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات**، (الرياض، مكتبة الملك عبدالعزيز، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م).

* عبدالعزيز الدوري، غيداء كتبي :

٥-"الفتح والأرض في الأندلس"، **مجلة اللغة العربية الاردني**، الأردن، مجمع اللغة العربية الأردني، العدد٧٢، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

* عبدالعزيز الساوري :

٦-"الحاجب المصحفي : حياته وآثاره الأدبية تتمة واستدراك"، **مجلة دراسات أندلسية**، تونس، العدد الثالث والعشرون، شوال ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

* عبدالغفور إسماعيل روزي :

٧- "زرياب والزريابية في الأندلس من منظور عصر عبدالرحمن الأوسط" ، **مجلة العصور**، لندن، دار المريخ، المجلد العاشر، ج١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٨-"التحول من مدرسة المدينة إلى مدرسة بغداد وأثره على المسار العلمي في الأندلس"، **دراسات في تاريخ الجزيرة العربية**،الرياض،كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الكتاب الخامس، ج١٤٢٧،١هـ/ ٢٠٠٦م.

٩- "إسهامات مهاجري الجزيرة العربية في فتوح المغرب والأندلس"، **دراسات في تاريخ الجزيرة العربية، الرياض،** كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الكتاب الرابع، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

* عبدالقادر عثمان محمد جاد الرب :

١٠-"العامريون : الخطط والأساليب لتجاوز شرط قرشية الخلافة وأمويتها بالأندلس (٣٦٦-٣٩٩هـ/ ٩٧٦-١٠٠٩م)"، **مجلة التاريخ العربي،** المغرب، العدد الثاني والثلاثون ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

* عبداللطيف نزار الحديثي:

١١- "إمارة بني الأخيضر في اليمامة"، **مجلة كلية الآداب جامعة بغداد،**بغداد، المجلد الثاني، **١٩٧٦م.**

* عبدالله بن يوسف الشبل:

١٢-"الدولة الأخيضرية"، **مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية،** الرياض، جامعة الأمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد السادس، ١٣٩٦هـ.

* محمد عبدالوهاب خلاف :

١٣-"صاحب المدينة في الأندلس"، **مجلة الفيصل،** العدد٤٤، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

١٤-"رؤية جديدة لأسباب سقوط الخلافة الأموية في الأندلس"، **المجلة العربية للعلوم الإنسانية،** الكويت، جامعة الكويت، العدد ٦، ١٩٨٢م.

* محمود علي مكي :

١٥-"المنصور ابن أبي عامر" **مجلة العربي،** الكويت، العدد ٢٢٤، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

يوسف أحمد بني ياسين :

١٦-"الاستبداد والمعارضة المنصور بن أبي عامر (٣٦٦-٣٩٢هـ/ ٩٧٦-١٠٠١م) نموذجاً"، **المجلة الأردنية للتاريخ والآثار،** المجلد الأول، العدد ١، ٢٠٠٧م.

* يوسف أحمد حوالة :

١٧- المرأة في البلاط الأموي في الأندلس ١٣٨-٤٢٢هـ/ ٧٥٥-١٠٣٠م دراسة في سيرتها ودورها السياسي والاجتماعي والثقافي، **حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية،** الكويت، الرسالة ٢١٢، الحولية ٢٤، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥.

خامساً: الرسائل العلمية:

* سعد عبدالله صالح البشري:

١-**الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس(٣١٦-٤٢٢هـ/ ٩٢٨-١٠٣٠م)**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨٢م.

* فايزه عبدالله الحساني :

٢-**تاريخ مدينة سرقسطة منذ عصر الخلافة الأموية حتى سقوطها ٣١٦-٥١٢هـ/ ٩٢٨-١١١٨م دراسة سياسية وحضارية**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٣٠هـ.

* محمد محمد مصطفى النجار :

٣-**المنصور بن أبي عامر**، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الأزهر، مصر، ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م.

* نادر فرج زيادة :

٤-**الترف في المجتمع الإسلامي الأندلسي٩٢هـ-٧١١م/ ٦٦٨هـ-١٢٦٩م)** رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية، غزة.

سادساً: المراجع الأجنبية:

Ann Christys,
1-**Christians in al-Andalus700-1000**,(England:Curzon Press 2002).

Chejne,Anwarg **,**
2- Muslim spain its History And Culture ,(Minneapolis:The university of Minnista Prees.1974).

David james ,
3-**Ahistory of Early Al-andalus**,(London,new York:routledge,2012).

Jan Read:
4- **The Moors in Spain and Portugal** (London:Faber and Faber ,1974).

* * * * *

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة

*****